

قد تملکه الفقیر العبد
الی رحمة ربه الباری
[illegible]
[illegible]
حسن ...
امیری



سبحان الدايم الباقي على [illegible]

كتاب
ادب الدين والدنيا

تصنيف القاضي الاجل الامام الاوحد اقضى القضاة
علي بن محمد بن حبيب
الماوردي البصري رضي الله عنه وارضاه

[illegible] على اله وصحبه
وسلم تسليما كثيرا

في نوبة العبد الفقير الى
الغني القدير محمد
البخاري عفا الله عنه
[illegible]

لكاتبهما عفا الله عنه

قل لمن يجهله في كل يوم يلتهي
كانه لم يستمتع كلاهما لم ينتهي

من كتب الفقير الى الله سبحانه وتعالى
السيد [illegible] عنه

[illegible] العبد الفقير [illegible] الضعيف [illegible] الحاج محمد [illegible]

[illegible] الحاج [illegible] عفا الله عنه [illegible]

[illegible] فكم قرانا
[illegible] ولكن [illegible]
[illegible] كانوا عندنا

حكم شرعي

هذا الكتاب صحيح شرعي [illegible] مضمونه شرعا انه بالمجلس الشرع الشريف [illegible]
[illegible] الشرعي محل حكمه وقضائه [illegible] المولى الامام [illegible] الفاضل قاضي القضاة
[illegible] الحكام [illegible] ابو بكر [illegible] وعلا [illegible] المهدية
[illegible] الاسلام ودين خير الانام عليه السلام المسماة [illegible]
[illegible] صحيحا شرعيا
من غير اكراه ولا اجبار بل طائعا [illegible] رضي [illegible]
[illegible] بان غير [illegible]
[illegible] صحيح [illegible] المشار اليه [illegible]
[illegible] صحيحا شرعيا
[illegible] بجميع الشروط المصححة للنكاح [illegible]
[illegible] النكاح [illegible]
القضاة والحكام والنواب [illegible]
[illegible] على [illegible] المذكورة [illegible]
[illegible]
[illegible]

... فجلد رجل جوارحه عليه شهود

بسم الله الرحمن الرحيم وعونك يا رب

قال أقضى القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب رضي الله عنه
الحمد لله ذي الطول والآلاء وصلى الله على محمد خاتم الرسل والأنبيا وعلى آله
وصحابته الأتقيا أما بعد فإن شرف المطلوب بشرف نتايجه وعظم
خطره بكثرة منافعه وبحسب منافعه تجب العناية
به وعلى قدر العناية به والاجتهاد فيه تكون اجتنا ثمرته وأعظم الأمور خطرا
وقدرا وأعمها نفعا ورفدا ما استقام به أمر الدين والدنيا وانتظم به صلاح
الآخرة والسعادة وقد توخيت بهذا الكتاب الإشارة إلى آدابهما وتفصيل
ما أجمل من أحوالهما على أعدل الأمرين من إيجاز وبسط أجمع فيه بين تحقيق
الفقها وترقيق الأدبا فلا ينبو عن فهم ولا يدق في وهم مستشهدا
من كتاب الله جل اسمه ما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما يضاهيه ثم متبعا ذلك بأمثال الحكما وآداب البلغا وأقوال الشعرا
لأن القلوب ترتاح إلى الفنون المختلفة وتسأم الفن الواحد وقد قال
علي بن أبي طالب عليه السلام إن القلوب تمل كما تمل الأبدان فاهدوا
إليها طرايف الحكمة وكان المأمون يتنقل كثيرا في داره من
مكان إلى مكان وينشد قول أبي العتاهيه رحمة الله عليه

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال

فجعلت ما تضمنه هذا الكتاب من ذلك خمسة أبواب

فالباب الأول
في فضل العقل وذم الهوى

والباب الثاني
في أدب العلم
والباب الثالث
في أدب الدين
والباب الرابع
في أدب الدنيا
والباب الخامس
في أدب النفس

وأنا أستمد الله حسن توفيقه وأستدفع عنه حفظه وهو حسبه
بطوله ومشيته وهو حسبي من معين وحفيظ

باب فضل العقل وذم الهوى

اعلم أن لكل فضيلة أسا ولكل أدب ينبوعا وأس الفضايل وينبوع
الأدب هو العقل الذي جعله الله سبحانه للدين أصلا وللدنيا عمادا فأوجب
التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف به بين خلقه مع
اختلاف هممهم وما ربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم
به قسمين قسما وجب بالعقل فوكده الشرع وقسما جاز في العقل فأوجبه
الشرع وكان العقل عليهما عمادا وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه
قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى وروي
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لكل شي دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر
عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل ما
كنا في أصحاب السعير وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصل الرجل عقله وحسبه

دينه ومروته خلقه ٥ وقال الحسن اليمني ما استودع الله احدا عقلا الا
استنقذه به يوما ما ٥ وقال بعض الحكما العقل افضل مرجو والجهل انكا
عدو ٥ وقال بعض الادبا صديق كل امرى عقله وعدوه جهله وقال
بعض البلغا خير المواهب العقل وشر المصايب الجهل ٥ وقال
بعض الشعرا هو ابرهيم ابن حسان

يزين الفتى في الناس صحة عقله وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلة عقله وان كرمت اعراقه ومناسبه
يعيش الفتى في الناس بالعقل انه على العقل يجري علمه وتجاربه
وافضل قسم الله للمرء عقله فليس من الاشيا شيا يقاربه
اذا اكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت اعراقه وما اربه

واعلم ان بالعقل يعرف حقايق الامور ويفصل بين الحسنات والسيات
وقد ينقسم قسمين غريزي ومكتسب فالغريزي هو العقل الحقيقي وله حد
يتعلق به التكليف لا يجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه الى نقصان ٥ وبه يمتاز
الانسان من ساير الحيوان فاذا تم في الانسان سمي عاقلا وخرج به
الى حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس

اذا تم عقل المرء تمت اموره وتمت اياديه وتم بناوه

وروى عن الضحاك في قوله تعالى لينذر من كان حيا اي من كان عاقلا
واختلف الناس فيه وفي صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر
شريف لطيف يفصل به بين حقايق المعلومات ومن قال بهذا القول اختلفوا
في محله فقالت طايفة [illegible] محله القلب لان القلب معدن الحياة ومادة
الحواس وهذا القول في العقل بانه جوهر لطيف فاسد من وجهين احدهما ان

منهم

الجواهر متماثلة فلا يصح ان يوجب بعضها ما لا يوجب سايرها ولو اوجب سايرها
ما لا يوجبه بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني
ان الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز ان يكون عقل بغير
عاقل كما جاز ان يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين ان يكون العقل جوهرا
وقال اخرون العقل هو المدرك للاشيا على ما هي عليه في حقايق المعنى وهذا
القول وان كان قبله يبعد الصواب من وجه واحد وهو ان الادراك من صفات
الحي في الاصل بما يبقى وينفي والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل منه
ان يكون ملتذا والما ومشتهيا ٥ وقال اخرون من المتكلمين العقل
جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير كاشف لما تضمنه من الاجمال وتناوله من الاحتمال
والحد انما هو بيان المحدود وبما ينفي عنه الاجمال والاحتمال وقال اخرون وهو القول
الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان احدهما ما
وقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبتدا في النفوس فاما ما كان واقعا عن
درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والطعوم
المدركة بالذوق والروايح المدركة بالشم والاجسام المدركة باللمس فاذا كان
الانسان ممن لو ادرك بحواسه هذه الاشيا ثبت له هذا النوع من العلم
لان خروجه من حال تعيقه عنه من ان يدرك بها وبعلم لا يخرجه من ان
يكون كامل العقل من حيث علم من حاله انه لو ادرك لعلم واما ما كان
مبتدا في النفوس فكالعلم بان الشي لا يخلو من وجود او عدم وان الموجود
لا يخلو من حدوث او قدم فان من المحال اجتماع الضدين وان الواحد اقل من
الاثنين ٥ وهذا النوع من العلم لا يجوز ان ينتفي عن العاقل مع سلامة
حاله وكمال عقله ٥ فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين

فهو كامل العقل وسمي بذلك تشبيها بعقل الناقة لان العقل يمنع الانسان من
الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود اذا نفرت
ولذلك قال عامر ابن عبد قيس اذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فانت عاقل وقد
جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل وكل من نفى ان يكون
العقل جوهرا اثبت محله في القلب لان القلب محل العلوم كلها قال الله تعالى افلم
يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها فدلت هذه الاية على امرين
احدهما ان العقل علم والثاني ان محله القلب وفي قوله تعالى يعقلون بها
تاويلان احدهما يعلمون بها والثاني يعتبرون بها فهذه جملة القول في العقل الغريزي
واما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفه
وصحة السياسه واصابة الفكرة وليس لهذا حد لانه ينمي ان استعمل وينقص ان
اهمل ونماؤه يكون باحد وجهين اما بكثرة الاستعمال اذا لم يعارضه مانع من هوى
ولا صاد عن شهوة كالذي يحصل لذوي الاسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب
وممارسة الامور وكذلك حمدت العرب اراء الشيوخ حتى قالوا المشايخ اشجار
الوقار ومنابع الاخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم وان راوك في قبيح
صدوك وان ابصروك على جميل امدوك وقالوا عليكم باراء الشيوخ فانهم ان فقدوا
ذكاء الطبع فلقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم اثار الغير
وقيل في منثور الحكم من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله
وقيل فيه لا تدع الايام جاهلا الا ادبته وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب
تادبا وبتقلب الايام موعظة وقال بعض الادباء التجربة مراة العقل والغرة
ثمرة الجهل وقال بعض البلغاء كفى مخبرا عما بقي ما مضى وكفى عبرا للاولي

الالباب ما جربوا وقال بعض الشعراء
الم تر ان العقل زين لاهله ولكن تمام العقل طول التجارب
وقال آخر اذا طال عمر المرء في غير آفة افادت له الايام في كرها عقلا
واما الوجه الثاني فقد يكون بفرط الذكا وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس
في زمان غير مهمل للحدس فاذا امتزج بالعقل الغريزي صارت نتيجتهما نمو العقل مؤهل
المكتسب كالذي يكون في الاحداث من وفور العقل وجودة الراي حتى قال
هرم ابن قطبة حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثه عليكم بالحديث
السن الحديد الذهن ولعل هرما اراد ان يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم
ينكر قوله اذ دعانا الى الحق فصار الى ما يحمل لحداثته وحدة ذهنه
فابى ان يحكم بينهما فرجعا الى يوم يحكم فيه يقول لبيد
يا هرم ابن الاكرمين منصبا انك قد اوتيت حكما معجبا
وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رايا لم ينله طول
القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم وقد قال الشاعر
رايت العقل لم يكن انتهابا ولم يقسم على عدد السنينا
ولو ان السنين تقاسمته حوى الاباء انصبة البنينا
حكى الاصمعي قال قلت لغلام حدث من اولاد العرب كان يحادثني
فامتعني بفصاحته وملاحته ايسرك ان يكون لك مائة الف درهم وانك احمق
قال لا والله قلت ولم قال اخاف ان يجني علي حمقي جناية يذهب بمالي ويبقى علي
حمقي فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنبط بجودة
قريحته ما العلة يدق على من هو اكبر منه سنا واكثر تجربة واحسن من هذا الذكاء
والفطنة ما حكى ابن قتيبة ان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه مر بصبيان

يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا منه الا عبد الله فقال له عمر مالك لم تهرب
مع اصحابك فقال يا امير المؤمنين لم اجن فاخافك ولم يكن الطريق بضيق فاوسع لك
فانظر الى ما تضمنه هذا الجواب من هذه الفطنه وقوة المنه وحسن البديهة كيف نفى
عنه اللوم واثبت له الحجه وليس للذكا غايه ولا لجودة القريحة نهايه وحكي ان
سليمان بن عبد الملك امر الفرزدق بضرب اعناق اسارى من الروم فاستعفاه
الفرزدق فلم يفعل واعطاه سيفا لا يقطع شيا فقال الفرزدق بل اضربهم بسيف
ابي رغوان مجاشع يعني بسيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي منهم فنبا السيف
عنه فضحك سليمن ومن حوله فقال الفرزدق

ايعجب الناس ان اضحكت سيدهم خليفة الله يستسقى به المطر
لم ينب سيفي من رعب ولا دهش عن الاسير ولكن اخر القدر
ولن يقدم نفسا قبل ميتتها جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

ثم غمد سيفه وهو يقول ما ان يعاب سيد اذا صبا
ولا يعاب صارم اذا نبا ولا يعاب شاعر اذا كبا

ثم جلس فقال كاني بابن المراغه وقد هجاني فقال

بسيف ابي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

وقام وانصرف وحضر جرير فخبر الخبر ولم ينشد الشعر فانشا يقول

بسيف ابي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قال يا امير المؤمنين كاني بابن القين وقد اجابني فقال

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم اذا اثقل الاعناق حمل المغارم

فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم اخبر الفرزدق بشعر جرير ولم
يخبره بحدسه فقال الفرزدق

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها وتقطع احيانا مناط التمائم
ولن نقتل الاسرى ولكن نفكهم اذا اثقل الاعناق حمل المغارم
وهل ضربة الرومي جاعلة لكم ابا عن كليب او ابا مثل دارم

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكي ان المهدي اتي باسارى من الروم فامر
بقتلهم وكان عنده شبيب بن شيبه فقال له اضرب عنق هذا العلج فقال يا امير
المؤمنين قد عرفت ما ابتلي به الفرزدق فعير قومه الى اليوم فقال انما اردت تشريفك
وقد عفيتك وكان ابو الهول الشاعر حاضرا فقال

جزعت من الرومي وهو مقيد فكيف ولو لاقيته وهو طليق
دعا امير المؤمنين لقتله فكاد شبيب عند ذلك يغرق
فنح شبيبا عن قراع كتيبة وادن شبيب من كلام يلفق

وليس العجب في خبر الفرزدق انه صح من جودة القريحتين ولكن من اتفاق
الخاطرين فيه ولمثل ذلك قالت الحكماء اية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة
الوهم وليس من منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وان اعضل
كما قيل لعلي عليه السلام كيف يحاسب الله الخلايق على كثرة عددهم فقال كما
يرزقهم على كثرة عددهم وقيل لعبد الله بن عباس رضي الله عنه اين تذهب
الارواح اذا فارقت الاجساد فقال اين تذهب نار المصابيح عند فنا الادهان
وهذان الجوابان جوابا اسكات تضمنا دليلي اذعان وتحجج فيهم ومن غير هذا
الفن وان كان مستحسنا ما حكي ان ابليس لعنة الله ظهر لعيسى ابن مريم عليه السلام
فقال له الست تقول انه لن يصيبك الا ما كتب الله عليك قال نعم قال فارم
نفسك من ذروة هذا الجبل فانه ان قدر لك السلامة تسلم فقال له يا ملعون
ان الله يختبر عباده وليس للعبد ان يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب

انبيا الله الذين امدهم بوحيه وايدهم بسره وانما تغرب ممن يلجا الى خاطره
وتعول على بديهته ه وروى قثم ابن العباس قال قيل لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه
كم بين الارض والسما فقال دعوة مستجابة وقيل له فكم بين المشرق والمغرب فقال
مسيرة يوم للشمس فكان هذا السوال من سايله اما اختبارا واما استبصارا
فصدر عنه من الجواب ما اسكت فاما اذا اجتمع هذان الوجهان في العقل المكتسب
وهو ما ينميه فرط الذكا بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه
الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على
الاطلاق من الرجل الفاضل بالاستحقاق ه وروى انس بن مالك قال اثني على رجل عند رسول
الله صلى الله عليه بخير فقال كيف عقله فقالوا يا رسول الله انّ من عبادته ان من خلقه
ان من فضله انّ من ادبه فقال كيف عقله فقالوا يا رسول الله نثني عليه
بالخير والعبادة وتسلنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه ان الاحمق العابد
يصيب بجهله اعظم من فجور الفاجر وانما يتقرب الناس من ربهم بالزلف
على قدر عقولهم ه واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى وزاد هل يكون
فضيلة او لا فقال قوم لا يكون فضيلة لان الفضايل هيات متوسطة بين
فضيلتين ناقصتين كما ان الخير توسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد
الفضيلة ه وقد قالت الحكما للاسكندر ايها الملك عليك بالاعتدال في كل
الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذا ما وردت به السنة عن رسول
الله صلى الله عليه انه قال خير الامور اوسطها ه وقال علي بن ابي طالب عليه السلام
خير الامور النمط الاوسط به يلحق العالي واليه يرجع التالي ه وقال الشاعر

لا تذهبن في الامور فرطا ه لا تسالن ان سالت شططا
وكن من الناس جميعا وسطا ه

وقالوا ان زيادة العقل تفضي بصاحبها الى الدها والمكر وذلك مذموم وصاحبه
ملوم ه وقد امر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابا موسى الاشعري ان يعزل زيادا عن
ولايته ه فقال زياد يا امير المومنين اعن موجدة ام عن خيانة فقال لا عن واحدة
منهما ولكن خفت ان احمل على الناس فضل عقلك ومن اجل هذا المحكي عن عمر
رضي الله عنه ما قيل قديما افراط العقل مضر بالجد ه وقد قال بعض الحكما
كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك ه وقد قال بعض البلغا قليل
يكفي خير من كثير يطغي ه وقال الاخرون وهو اصح القولين زيادة العقل فضيلة لان
المكتسب غير محدود وانما يكون زيادة الفضايل المحمودة نقصا مذموما لان ما
جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة ينسب الى التهور
والسخي اذا زاد على حد السخا نسب الى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب
لان الزيادة فيه زيادة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن
الى ما يكون وذلك فضيلة لا نقص ه وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال افضل
الناس اعقل الناس والعقل حيث كان الوفق مالوفقه ه وقد قيل في تاويل قوله
تعالى قل كل يعمل على شاكلته اي بحسب عقله ه وقال القسم ابن محمد كانت
العرب تقول من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه في اغلب خصال الخير
عليه ه وقد قيل في منثور الحكم كل شي اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا
وقال بعض البلغا ان العاقل من عقله في ارشاد ومن رايه في امداد فقوله
سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في اغوا ومن هواه في اغرا فقوله
سقيم وفعله ذميم ه وانشدني ابن لنكك لابيه

من لم يكن اكثره عقله اهلكه اكثر ما فيه

فاما الدها والمكر فهو مذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى الشر ولو

صرفه الى الخير اذا كان محمودا. وقد ذكر المغيرة عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه
فقال والله كان افضل من ان يخدع واعقل من ان يخدع. وقال عمر رضي الله عنه
لست بالخب ولا يخدعني الخب. واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله الى
الشر كزياد واشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا ام لا فقال
بعضهم نسميه عاقلا لوجود العقل منه. وقال لا نسميه عاقلا حتى يكون
خيرا دينا لان الخير والدين من موجبات العقل فاما الشرير فلا نسميه عاقلا وانما
نسميه صاحب روية وفكر. وقد قيل العاقل من عقل عن الله عز وجل امره ونهيه
حتى قال اصحاب الشافعي رحمه الله فيمن اوصى بثلث ماله لاعقل الناس ان يكون مصروفا
الى الزهاد لانهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالامل. وروى لقمن بن عامر عن ابي
الدردا ان رسول الله صلى الله عليه قال يا عويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا وبه عزا
قلت فداك ابي وامي من لي بالعقل قال اجتنب محارم الله وادّ فرايض الله تكن
عاقلا ثم تنفل صالحات الاعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وبه
عزا. وانشدني بعض اهل الادب هذه الابيات وذكر انها
لعلي ابن ابي طالب كرم الله وجهه

ان المكارم اخلاق مطهرة فالعقل اولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم اني لا اصدقها ولست ارشد الا حين اعصيها
والعين تعرف في عيني محدثها من كان من حزبها او من اعاديها
عيناك قد دلتا عيني منك على اشيا لولاهما ما كنت ادريها

واعلم ان العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لانه نتيجة منه وقد

بعضهم
من

ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضايل
موفور الرذايل كالانوك الذي لا توجد له فضيلة والاحمق الذي قلما تخلو منه
رذيلة. وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال الاحمق ابغض خلق الله تعالى اليه
اذ حرمه اعز الاشيا عليه. وقال بعض الحكما الحاجة الى العقل اقبح من
الحاجة الى المال. وقال بعض البلغا دولة الجاهل عبرة العاقل. وقال
انوشروان لبزرجمهر اي شي خير للمرء قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال
فاخوان يسترون عيبه قال فان لم يكن قال فمال يتحبب به الى الناس قال فان لم
يكن قال فعي صامت قال فان لم يكن قال فموت جارف. وقال سابور ابن
اردشير العقل نوعان احدهما مطبوع والاخر مسموع ولا يصلح واحد منهما الا
بصاحبه. فاخذ ذلك بعض الشعرا فقال

رايت العقل مطبوع فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مطبوع اذا لم يك مسموع
كما لا ينفع العين وضو الشمس ممنوع

عقلان صح

وقد وصف بعض الادبا العاقل بما فيه من الفضايل والاحمق بما فيه من الرذايل
فقال العاقل اذا والى بذل في المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره
فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله ان احسن الى احد ترك المطالبة
بالشكر وان اسا اليه مسي سبب له اسباب العذر او منحه الصفح
والعفو. والاحمق ضال مضل ان اونس تكبر وان اوحش تكدر وان استنطق
تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنة ومعاتبته محنة ومحاورته تعر وموالاته
تضر ومقاربته عمى ومقارنته شقا. وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على
عاقل حبسته مع جاهل. والاحمق يسي الى غيره ويظن انه قد احسن اليه فيطالبه

بالمكر وحسن الحيلة فيظن انه قد اسا اليه فيطالبه بالوتر فمساوي الاحمق لا
تنقضي وعيوبه لا تتناهي ولا يقف النظر منها الي غاية الا لوحت ما وراها مما هو
ادني منها واردي وامر وادهي فما اكثر العبر لمن نظر وانفعها لمن اعتبر
وقال الاحنف ابن قيس من كل شي يحفظ الاحمق الا من نفسه وقال
بعض البلغا ان الدنيا ربما اقبلت علي الجاهل بالاتفاق وادبرت عن العاقل
بالاستحقاق فان اتتك منها سهمة مع جهل او فاتتك منها بغيته مع عقل فلا
يحملنك ذلك علي الرغبه في الجهل والزهد في العقل فدولة الجاهل من الممكنات
ودولة العاقل من الواجبات وليس من امكنه شي من ذاته كمن استوجبه
بالته واداته وبعد ذلك فدولة الجاهل كالغريب يحن الي النقله ودولة
العاقل كالنسيب يحن الي الوصله فلا يفرح المر بحال جليلة نالها بغير
عقل او منزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه
الي رتبته ويرده الي قيمته بعد ان تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير
مادحه هاجيا ووليه معاديا واعلم انه بحسب ما ينبل به من فضايل
العاقل كذلك يظهر من رذايل الجاهل حتي يصير مثلا في الغابرين وحديثا في
الاخرين مع هتكه في عصره وقبح ذكره في دهره كالذي رواه عن
جابر قال كان في بني اسرايل رجل له حمار فقال يا رب لو كان لك حمار
لعلفته مع حماري فهم به نبي من انبيا الله فاوحي الله تعالي اليه انما اثيب
كل انسان علي قدر عقله واستعمل معويه رجلا من كلب فذكر المجوس
يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون امهاتهم والله لو اعطيت عشرة
الاف درهم ما نكحت امي فبلغ ذلك معويه فقال قبحه الله اترونه
لو زادوه فعل فعزله وولي الربيع العامري وكان من النوكي ساير

المعطي

اليمامة فاقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر

شهدت بان الله حق لقاوه وان الربيع العامري رقيع
اقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع دما كلاب المسلمين تضيع

وليس لها بالجهل غايه ولا لضار الحمق نهايه وقد قال الشاعر

لكل دا دوا يستطب به الا الحماقه اعيت من يداويها

فصل فاما الهوي فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد لانه ينتج من الاخلاق
قبايحها ويظهر من الافعال فضايحها ويجعل ستر المروة مهتوكا ومدخل
الشر مسلوكا قال عبد الله ابن عباس رضي الله عنه الهوي اله معبود
من دون الله ثم تلا ارايت من اتخذ الهه هواه وقال عكرمه في قوله تعالي
ولكنكم فتنتم انفسكم يعني بالشهوات وتربصتم يعني بالتوبه وارتبتم
يعني في امر الله وغرتكم الاماني يعني بالتسويف حتي جا امر الله يعني
الموت وغركم بالله الغرور يعني الشيطان وروي عن النبي صلي الله عليه
انه قال طاعة الشهوه دا وعصيانها دوا وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه
اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الي شر غاية ان هذا
الحق مري وان الباطل خفيف وبي وترك الخطيه خير من معالجة التوبة
ورب نظرة زرعت شهوه وشهوه ساعه اورثت حزنا طويلا وقال
علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه اخاف عليكم اثنتين اتباع الهوي
وطول الامل فان اتباع الهوي يصد عن الحق وطول الامل ينسي الاخره
وقال الشعبي انما سمي الهوي هوي لانه يهوي بصاحبه وقال اعرابي
الهوا هوان ولكن غلط باسمه فاخذه الشاعر فقال

ان الهوان هو الهوي قلب اسمه فاذا هويت فقد لقيت هوانا

صوابه مطبوع

وقيل في منثور الحكم من اطاع هواه اعطى عدوه مناه . وقال بعض
الحكما العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع . وقال بعض البلغا افضل
الناس من عصى هواه وافضل منه من رفض دنياه . وقال هشام بن عبد الملك بن
مروان .

اذا انت لم تعص الهوى قادك الهوى … الى كل ما فيه عليك مقال

قال … بن المعتمر لم يقل هشام غير هذا البيت . وقال الشاعر

اذا ما رايت المرء يقتاده الهوى … فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد اشمت الاعدا جهلا بنفسه … وقد وجدت فيه مقالا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى … من الناس الا حازم الراي كامله

فلما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا
يلاحظ عثرة غفلته ويدفع سطوة بادرته ويوضح خداع حيلته لان سلطان
الهوى قوي ومدخل مكره خفي ومن هذين الوجهين يوتى العاقل حتى تنفذ احكام
الهوى عليه اعني باحدى الوجهين قوة سلطانه وبالاخر خفا مكره فاما الوجه
الاول فهو ان يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى يستولي عليه مغالبة
الهوى والشهوات فيكل العقل عن دفعها ويضعف عن منع ما مع وضوح
قبحها في العقل المقهور بها وهذا يكون في الاحداث اكثر وعلى الشباب اغلب
لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى المتسلطة عليهم وانهم ربما جعلوا الشباب
عذرا لهم كما قال محمد ابن بشير

كل يرى ان الشباب له … في كل مبلغ لذة عذر

ولذلك قال بعض الحكما الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم . وقال بعض الادباء
الهوى عسوف والعدل مالوف . وقال بعض الشعراء

يا عاقلا اردى الهوى عقله … ما لك قد سدت عليك الامور

اجتمع العقل اسير الهوى … وانما العقل عليه امير

ومن ذلك ان تستعين العقل بالنفس النفور فيشعرها ما في عواقب
الهوى من شدة الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم الاثام فقد قال
النبي صلى الله عليه حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات اخبر ان الطريق الى
الجنة احتمال المكاره والطريق الى النار اتباع الشهوات . وقال علي بن
ابي طالب كرم الله وجهه اياكم وتحكيم الشهوات على انفسكم فان عاجلها ذميم
واجلها وخيم فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب فسوفها بالتاميل
والارغاب فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت
وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفا ولعقلك مسعفا وانظر ما تسوء عاقبته
فوطن نفسك على مجانبته فان ترك الهوى وما تهوى داها وترك ما تهوى
دواها فاصبر على الدوا لما تخاف من ضرر الداء . وقال الشاعر

صبرت على الايام حتى تولت … والزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى … فان اطمعت تاقت والا تسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد اشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى ان
يصير بالعقل مدحورا وباليقين مقهورا ثم له الحظ الاوفر من ثواب الخالق
وثنا المخلوقين قال الله تعالى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى
فان الجنة هي الماوى . وقال الحسن البصري افضل الجهاد جهاد الهوى . وقال
بعض الحكما اعز العز الامتناع من تملك الهوى . وقال بعض البلغاء
خير الناس من اخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه في طاعة ربه . وقال
بعض الادبا من امات شهوته احيا مروته . وقال بعض العلما ركب الله الملايكه
من عقل بلا شهوة وركب البهايم من شهوة بلا عقل وركب ابن ادم من كليهما فمن

غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من
البهايم د وقيل لبعض الحكما من اشجع الناس واجراهم بالظفر في مجاهدته قال من
جاهد الهوى طاعة لربه واحترس من ورود خواطر الهوى على قلبه وقال بعض الشعرا

قد يدرك الحازم ذو الراي المنى بطاعة الحزم وعصيان الهوى

فاما الوجه الثاني فهو ان يخفي الهوى مكره حتى تتموه افعاله على العقل فيتصور
القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعوا الى احدى شيين اما ان يكون للنفس ميل الى
ذلك القبيح فيخفي عنها القبيح بحسن ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها ولذلك
قال النبي صلى الله عليه حبك الشي يعمي ويصم اي يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة
وقال علي عليه السلام الهوى عمي وقال الشاعر حسن في عين كل من يود
وقال عبد الله بن معويه بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب

ولست براي عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

واما السبب الثاني فهو استثقال الفكر في تمييز ما اشتبه وطلب الراحة في اتباع ما
يسهل حتى يظن ان ذلك اوفق امريه واحمد حاليه اغترارا بان الاسهل محمود والاعسر
مذموم فلم يعدم ان يتورط بخدع الهوى وزينة المكر في كل مخوف حذر ومكروه
عسير ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب د وقال
سليمان بن وهب الهوى امتع والعقل انفع د وقيل في المثل العقل وزير ناصح
والهوى وكيل فاضح وقال الشاعر

اذا المرء اعطى نفسه كلما اشتهت ولم ينهها تاقت الى كل باطل
وساقت اليه الاثم والعار بالذي دعته اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الاول ان يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رايد الشهوة

والشهوة من دواعي الهوى والقلب رايد الحق والحق من دواعي العقل وقد قال
بعض الحكما نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه
في صواب ما احبت وتحسين ما اشتهت ليتضح له الصواب ويتبين
له الحق فان الحق اثقل محملا واصعب مركبا فان اشكل عليه امران اجتنب احبهما
اليه وترك اسهلهما عليه فان النفس عن الحق انفر والهوى اثر وقد قال العباس ابن عبد احبهما
المطلب رضي الله عنه اذا اشتبه عليك امران فدع احبهما اليك وخذ اثقلهما عليك
وعلة هذا القول هو ان النفس تبطي عن التسرع الى الثقيل فيتضح مع الابطا وتطاول
الزمان صواب ما استعجم وظهور ما استبهم د وقال علي بن ابي طالب عليه السلام
من فكر ابصر والمحبوب السهل تسرع النفس اليه وتعجل بالاقدام عليه فيقصر
الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه لتقضي فعله ولا ينفع التصفح بعد العمل
ولا الاستبانة بعد الفوت د وقد قال بعض الحكما من كان عنك معرضا فلا
تكن به متعرضا وقد قال الشاعر جهلا

اليسر طلاب ما قد فات عجز وذكر المرء ما لا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغا حال الهوى وما ينال دنه من محن الدنيا واجاد فقال الهوى
مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فانزل عن الهوى تسلم واعرض عن الدنيا تغنم
ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي ولا تفتنك دنياك بحسن العواري فمدة اللهو
تنقطع وعارية الدهر ترتجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه من الماثم
وقال علي ابن عبد الله الجعفري سمعت امراة في الطواف وانا انشد

اهوى هوى الدين واللذات تعجبني فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالت هما ضرتان فذر ايتهما شيت وخذ الاخرى د فاما وفق ما بين الهوى والشهوة
مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول فهو ان الهوى مختص

بالآراء والاعتقادات والشهوة تختص بنيل المستلذات فصارت الشهوة نتائج الهوى وهي أخص والهوى أصل وهو أعم ونحن نسأل الله تعالى أن يكفينا دواعي الهوى ويصرف عنا سبيل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنا مرشدا فقد حكي أن الله تعالى أوحى إلى يحيى بن زكريا عليه السلام عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني وقال محمد ابن كناسة

ما من روى أدبا فلم يعمل به ... فيكف عن زيغ الهوى بأديب

حتى يكون بما تعلم عاملا ... من صالح فيكون غير معيب

ولقلما تغني إصابة قائل ... أفعاله أفعال غير مصيب

وقال آخر

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك تعذر إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك ويقبل التعليم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

حكى أبو عمرو أن طارقا صاحب شرطة خالد ابن عبد الله القسري مر بابن شبرمة وطارق في موكبه فقال ابن شبرمة

أراها وإن كانت تحب فإنها ... سحابة صيف عن قليل تقشع

اللهم لي ديني ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أتذكر قولك يوم كذا إذ مر بك طارق في موكبه فقال يا بني إنهم يجدون مثل أبيك ولا يجد أبوك مثلهم إن أباك أكل من حلوائهم فحط في أهوائهم أما ترى إلى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه ولعله من أبر بنيه فكيف بنا ونحن أطلق منه عنانا وأطلق جنانا إذا رمقتنا أعين المتتبعين هل نجد غير توفيق الله ملاذا وسوى عصمته معاذا

باب أدب العلم

إن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلبه وجد فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لأن شرفه ينم على صاحبه وفضله ينمي عند طالبه قال الله تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فمنع من المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال الله تعالى ولا يعقلها إلا العالمون فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا ويفهم عنه زجرا وروي عن النبي صلى الله عليه أنه قال أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام إني عليم أحب كل عليم وروى أبو أمامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلا وقال علي ابن أبي طالب عليه السلام الناس أبناء ما يحسنون وقال مصعب ابن الزبير لابنه تعلم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالا وإن لم يكن مال كان لك مالا وقال عبد الملك ابن مروان لبنيه يا بني تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم وإن كنتم وسطا سدتم وإن كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكماء العلم شرف لا قدر له والأدب مال لا خوف عليه وقال بعض الأدباء العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف وقال بعض البلغاء تعلم العلم فإنه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيغك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقيم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك وقال علي عليه السلام قيمة كل امرئ ما يحسن فأخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلي مثل الدني ... لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي

قيمة المرء قدر ما يحسن المر ... ء قضاء من الإمام علي

وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل لأن فضل العلم إنما يعرف بالعلم وهذا أبلغ في

فضله لأن فضل العلم لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا اهله وتوهموا ان ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناه والطرف المشتهاه اولى ان يكون اقبالهم عليها واحرى ان يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز في منثور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله ما انصرفوا عن العلم واهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لان من جهل شيا عاداه انشدني ابن لنكك بن دريد

جهلت فعاديت العلوم واهلها ... كذاك يعادي العلم من هو جاهله

ومن كان يهوى ان يرى متصدرا ... ويكره لا ادري اصيبت مقاتله

وقيل لبعض الحكماء العلم افضل ام المال فقال بل العلم فقيل فما بالنا نرى العلماء على ابواب الاغنيا ولا نكاد نرى الاغنيا على ابواب العلما فقال ذلك لمعرفه العلما بمنفعه المال وجهل الاغنيا بفضل العلم وقيل لبعض الحكما لا يجتمع العلم والمال قال لعز الكمال وانشدت لبعض اهل العصر

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله ... فاجسامهم قبل القبور قبور

وان امرا لم يحي بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور

ووقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فاخرج له طعاما ونفقه فقال فاقتي الى كلامكم اشد من حاجتي الى طعامكم اني طالب هدى لا سايل ندى فاذن له العالم وافاده من كل ما سال عنه فخرج جذلان فرحا مسرورا وهو يقول علم اوضح لبسا خير من مال اغنى نفسا واعلم ان كل العلوم شريفه ولكل علم منها فضيله والاحاطه بجميعها محال وقيل لبعض الحكما من يعرف كل العلم فقال كل الناس وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال من ظن ان للعلم غايه

11

فقد بخس حظه ونقص نفسه عن منزلته التي وضعه الله تعالى بها حيث يقول وما اوتيتم من العلم الا قليلا وقال بعض الحكما لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته لكنا قد بدانا بالنقيصه لكنا نطلبه لننقص في كل يوم من الجهل ونزداد في كل يوم من العلم وقال بعض العلما المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس يرى ارضا ولا يعرف طولا ولا عرضا وقيل لحماد الراويه اما تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ منها المحدود فنحن كما قال الشاعر

اذا قطعنا علما بدا علم

وانشد الرشيد عن المهدي بيتين وقال اراهما له

يا نفس خوضي بحار العلم او غوصي ... فالناس من بين معموم ومنقوص — ومخصوص

لا شي في هذه الدنيا يحيط بها ... الا احاطه منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفه جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفه اهمها والعنايه باولاها وافضلها واولاها علم الدين لان الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح ادا عباده جهل فاعلها صفات ادايها ولم يعلم شروط اجزايها ولذلك قال النبي صلى الله عليه فضل العلم خير من فضل العباده وانما كان كذلك لان العلم يبعث على فضل العباده ولفضلها والعباده مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا تكون عباده فلزم علم الدين كل مكلف وقال رسول الله صلى الله عليه طلب العلم فريضه على كل مسلم وفيه تاويلان احدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات والثاني جمله العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفايه واذا كان علم الدين قد اوجب الله تعالى فرض بعضه على الاعيان وفرض جميعه على الكافه وجب طلبه وكان اولى ما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكافه قال الله تعالى فلولا نفر من كل فرقه منهم طايفه ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون

روى عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه دخل المسجد فإذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال صلى الله عليه كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب إلي من صاحبه أما هؤلاء فيذكرون الله عز وجل ويسألونه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وإنما بعثت معلما وجلس إلى أهل الفقه ٥ وروى مروان ابن جناح عن يوسف ابن ميسره عن رسول الله صلى الله عليه أنه قال الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ٥ وروي عن النبي صلى الله عليه أنه قال خيار أمتي علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها وروى معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ٥ وروي عن النبي صلى الله عليه أنه قال على خلفائي قالوا ومن خلفاؤك قال الذين يحيون سنتي يعلمونها عباد الله تعالى ٥ وروى حميد عن أنس عن النبي صلى الله عليه أنه قال الفقيه في الدين حق على كل مسلم ألا فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا وروى سليمان ابن يسار عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه قال ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه ٥ وربما قال بعض المتهما ونبه بالدين إلى العلوم العقلية ورأى أنها أحق بالفضل وأولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف واسترذالا لما جاء به الشرع من التعبد والتوقيف والكلام مع مثل هذا في أصل لا يتسع له هذا الفصل ولم نر ذلك فيمن سلمت فطرته وصحت رويته لأن العقل يمنع من أن يكون الناس هملا أو سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لأهوائهم المتشعبة لما يؤول إليه أمورهم من الاختلاف والتنازع ويفضي إليه أحوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن دين يأتلفون به ويتفقون عليه ثم العقل موجب له أو متابع ولو

تصور هذا المختل التصور أن الدين ضرورة في العقل وأن العقل للدين أصل لقصر عن التقصير وأذعن للحق ولكن أهمل نفسه فضل وأضل وقد يتعلق بالدين علوم قد بين الشافعي رحمه الله فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم العربية رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ولعمري أن صيانة النفس أصل الفضائل لأن من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل لأن القبيح أنم من الجميل والرذيلة أشهر من الفضيلة لأن الناس لما في طباعهم من بغضة الحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن إلى المساوي فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لا سيما من كان بالعلم موسوما وإليه منسوبا فإن زلته لا تقال وهفوته لا تعذر أما القبح أثرها واغترار كثير من الناس به فيها فقد قيل في منثور الحكم زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير وقيل لعيسى ابن مريم عليه السلام من أشد الناس فتنة قال زلة العالم إذا زل العالم هلك بزلته عالم كثير فهذا وجه وأما لأن أهل الجهل بذمه أغرى وعلى تنقصه أجرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصص عنادا لما جهلوه ومقتا لمن باينوه لأن الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما أن العالم يرى الجهل تخلفا وذما وأنشدت عن الربيع للشافعي رحمه الله

ومنزلة السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيه تنطع في مخالفة الفقيه

وقال يحيى ابن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلوم فخذ منه فإن المرء عدو

بما جهلت وانا اكره ان تكون عدوا لشي من العلم وانشد

تفنن وخذ من كل علم فانما ... يفوق امرؤ في كل فن له علم

فانت عدو للذي انت جاهل به ... ولعلم انت تتقنه سلم

واذا امان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها امن اعتزا الموالي وتحكم المعادي وجمع الى فضيلة العلم جمال الصيانة وعز النزاهة فصار بالمنزلة التي تستحقها بفضايله وروى ابا الدردا ان النبي صلى الله عليه قال العلما ورثة الانبيا ان الانبيا لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وروى ابو هريره ان النبي صلى الله عليه قال بين الانبيا والعلما فضل درجتين وبين العلما والشهدا فضل درجة وقال بعض البلغا ان من الشريعه ان تجل اهل الشريعه ومن الصنيعه ان ترب حسن الصنيعه فينبغي لمن استدل بفطرته على استحسان الفضايل واستقباح الرذايل ان ينفي عن نفسه رذايل الجهل بفضايل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب في العلم رغبة متحقق لفضايله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجده ونفوذ امر وعلو منزله فان من نفذ امره فهو الى العلم احوج ومن علت منزلته فهو بالعلم احق وروى انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه انه قال الحكمه تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك وقد قال بعض الادبا كل عز لا يوطده علم مذله وكل علم لا يويده عقل مضله وقال بعض علما السلف اذا اراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم والملك في علمايهم وقال بعض البلغا العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من الظلم ويردهم الى الحلم ويصدهم عن الاذيه ويعطفهم على الرعيه فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويستبطنوا اهله فاما المال فظل زايل وعاريه مسترجعه وليس في كثرته فضيله ولو كانت فيه فضيله لخص الله تعالى به من

اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان اكثر الانبيا مع ما خصهم الله به من كرامته وفضلهم على سائر خلقه فقرا لا يجدون بلغه ولا يقدرون على شي حتى صاروا في الفقر مثلا قال البحتري

فقر كفقر الانبيا وغربة ... وصبابة ليس البلا بواحد

ولعدم الفضيله في المال منحه الله الكافر وحرمه المومن قال الشاعر

كم كافر بالله امواله ... تزداد اضعافا على كفره

ومومن ليس له درهم ... يزداد ايمانا على فقره

يا لايم الدهر وافعاله ... مشتغلا يزري على دهره

الدهر مامور له امر ... ينصرف الدهر الى امره

وقد فرق علي بن ابي طالب عليه السلام فضل ما بين العلم والمال فقال العلم خير من المال العلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الاموال وبقي خزان العلم اعيانهم مفقوده واشخاصهم في القلوب موجوده وسيل بعض الحكما ايما افضل المال ام العلم فقال الجواب عن هذا ايما افضل المال ام العقل وقال صالح بن عبد القدوس

لا خير فيمن كان خير ثيابه ... في الناس فوقهم غني واجرد

وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبره وعلو سنه واستحياه من تقصيره في صغره ان يتعلم في كبره فرضي بالجهل ان يكون موسوما به واثره على العلم ان يصير مبتديا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيله فرغبة ذوي الاسنان فيه اولى والابتدا بالفضيله فضيله ولان يكون شيخا متعلما اولى من ان يكون شيخا جاهلا وحكي ان بعض الحكما راى شيخا يحب النظر في العلم ويستحي فقال يا هذا اتستحي ان تكون في اخر عمرك افضل مما كنت

في اوله . وذكر ان ابرهيم ابن المهدي دخل على المامون وعنده جماعة يتكلمون
في الفقه فقال يا عم ما عندك فيما يقول هاولاء فقال يا امير المومنين شغلونا في الصغر
واشتغلنا في الكبر فقال له لا تتعلمه اليوم فقال او يحسن بمثلي طلب العلم قال نعم والله
لان تموت طالبا للعلم خير من ان تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن بي طلب العلم
قال ما حسنت بك الحياة ولان الصغير اعذر وان لم يكن في الجهل عذر لانه لم تطل به
مدة التفريط ولا استمرت عليه ايام الاهمال وقد قيل في منثور الحكم جهل الصغير
معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به اقبح ونقصه عليه افضح لان علو السن اذا
لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت ايامه في الجهل ماضيه ومن الفضل خاليه كان
الصغير افضل منه لان الرجا له اكثر والامل فيه اظهر وحسبك نقصا في رجل الصغير
المساوي له في الجهل افضل منه وانشدت لبعض اهل الادب

اذا لم يكن مر السنين مترجما عن الفضل في الانسان سميته طفلا

وما تنفع الاعوام حين تعدها ولم تستفد فيهن علما ولا فضلا

ارى الدهر من سوء التصرف مايلا الى كل ذي جهل يرى جهله نبلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغله باكتسابها عن التماس العلم هذا وان كان
اعذر من غيره مع انه اقل ما يكون ذلك الا عند ذي شره رغيب وشهوة مستعبدة
فينبغي ان يصرف الى العلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب
من اوقات استراحه وايام عطله ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها
فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيا واسراء الحرص وروي عن النبي صلى الله عليه
انه قال كونوا علما صالحين فان لم تكونوا علما صالحين فجالسوا العلما واسمعوا علما يدلكم
على الهدى ويردكم عن الردى وقال بعض العلما من احب العلم احاطت به فضايله
وقال بعض الحكما من صاحب العلما وقر ومن جالس السفها حقر وربما منعه من طلب

انه قال لكل شي فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا وروي عن النبي صلى الله ...

العلم ما يظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا
الظن اعتذار ذوي النقص وخيفة اولي العجز لان الاخبار قبل الاختبار جهل والخشية
قبل الابتلا عجز وقال الشاعر

لا تكونن للامور هيوبا فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لابي هريره رضي الله عنه اريد ان اتعلم العلم واخاف ان اضيعه فقال كفى
بترك العلم اضاعة وليس وان تفاضلت الاذهان وتفاوتت الفطن ينبغي لمن قل منها
حظه ان ييأس من نيل القليل وادراك اليسير الذي يخرج به من حد الجهالة
الى ادنى مراتب التخصص فان الماء مع لينه يوثر في صم الصخور فكيف لا يوثر العلم الزكي في نفس
راغب مشتهي وطالب خلي لا سيما وطالب العلم معان قال النبي صلى الله عليه ان الملايكة
لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم ان يصور
في نفسه حرفة اهله وتضايق الامور مع الاشتغال به حتى يتهمهم بالادبار ويتوهمهم
بالحرمان فان راى محبرة تطير منها وان وجد كتابا اعرض عنه وان راى متحليا بالعلم هرب
منه كانه لم ير عالما مقبلا وجاهلا مدبرا ولقد رايت من هذه الطبقة جماعة ذوي
منازل واحوال كنت اخفي عنهم ما يصحبني من محبرة او كتاب لئلا اكون عندهم
مستثقلا وان كان البعد منهم مونسا ومسلما والقرب موحشا ومفسدا وقد
قال بزرجمهر الجهالة في القلب كالترب في الارض يفسد ما حوله لكني اتبعت فيهم
الحديث المروي عن ابي الاشعث عن ابي عثمان عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه انه قال خالطوا الناس
باخلاقهم وخالفوهم في اعمالهم وكذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علما
وسفه حميت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجا لها صلاح ولا يومل لها فلاح
لان من اعتقد ان العلم شين وان تركه زين وان الجهل اقبالا مجديا والعلم
ادبارا مكديا كان ضلالته مستحكمة ورشاده مستبعدا وكان هو الخاسر الهالك

الذي قال فيه علي بن ابي طالب عليه السلام اغد عالما او متعلما او مستمعا او محبا ولا تكن
الخامس فتهلك وقد رواه خالد الحذا عن عبد الرحمن بن ابي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندا
وليس لمن هذه حاله في العدل نفع ولا في الاستصلاح مطمع. وقد قيل لبزرجمهر ما لكم
لا تعاتبون الجهال فقال انا لا نكلف العمي ان يبصروا ولا الصم ان يسمعوا واما الطايفة
التي تنفر من العلما هذا النفور وتعاند اهله هذا العناد وترى العقل بهذه المثابة
وتنفر من العقلا هذا النفور وتعتقد ان العاقل محارف وان الاحمق محظوظ وناهيك
ضلالا بهذا الاعتقاد في العقل والعلم هل يكون لخير اهلا او لفضيلة موضعا وقال
بعض البلغا اخبث الناس المساوي بين المحاسن والمساوي. وعلة هذا انهم
راوا عاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا ان العلم والعقل هما السبب في قلة حظه
ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان اكثر النوكى وادبار اكثر الجهال لان في العلما و
العقلا قلة وعليهم من فضلهم سمة واذا كان في العلما غربا لكثرة الجهال فاذا
ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم توهموا بالتمييز واشتهرت
بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايما الشامتين والجهال
والحمقى لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف
شامت ولا قصد المجدود منهم باشارة عايب فلذلك ظن الجاهل المرزوق ان الفقر
والضيق مختص بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو تصفحت احوال العلما والعقلا
مع قلتهم لوجدت الاقبال في اكثرهم ولو خبرت امر الجهال والحمقى مع كثرتهم
لوجدت الحرمان في اكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا
لان حظه عجيب واقباله مستغرب كما ان حرمان العالم العاقل غريب واقلاله عجيب
ولم يزل الناس على سالف الدهور في مثل ذلك متعجبين حتى قيل لبزرجمهر ما اعجب
الاشيا قال نجح الجاهل واكدا العاقل لكن الرزق بالجد والحظ لا بالعلم والعقل

حكمة من الله تعالى يدل بها على قدرته واجرا الامور على مشيته. وقد قالت الحكما لو
جرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهايم فنظمه ابو التمام الطاي فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدي الفتى في دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجري على الحجى هلكن اذا من جهلهن البهايم

وقال كعب بن زهير بن ابي سلمى

لو كنت اعجب من شي لاعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها والنفس واحدة والهم منتشر

على ان العلم والعقل سعادة واقبال وان قل معهما المال وضاقت معهما الحال والجهل
والحمق حرمان وادبار وان كثر معهما المال واتسعت فيهما الحال لان السعادة
ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقي ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغني
رفيعا والجهل يضعه ام كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه. وقد
قيل في منثور الحكم كم من ذليل اعزه علمه وكم من عزيز اذله جهله. وقال عبد الله
ابن المعتز نعمة الجاهل كروضة في مزبلة. وقال بعض العلما كلما حسنت نعمة الجاهل
ازداد فيها قبحا. وقال بعض الحكما لبنيه يا بني تعلموا العلم وان لم تنالوا به حظا
من الدنيا فلان يذم الزمان لكم احب الي من ان يذم الزمان بكم. وقال
بعض الادبا من لم يفد بالعلم مالا اكتسب به جمالا. وانشد بعض اهل الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفي انينه ويضحي كئيب البال عندي حزينه
يلوم علي ان رحت للعلم طالبا اجمع من عند الرواة فنونه
واعرف ابكار الكلام وعونه واحفظ مما استفيد عيونه
ويزعم ان العلم لا يجلب الغنى ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لايمي دعني اغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه

بقية

وانا استعيذ بالله من خدع الجهل المذله وبوادر الحمق المضله واساله السعادة بعقل
رادع تستقيم به من زل وعلم نافع يستهدي به من ضل وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه
قال اذا ابغض الله عبدا حظر عليه العلم فينبغي لمن زهد في العلم ان يكون فيه راغبا
ولمن رغب فيه ان يكون له طالبا ولمن يكون طالبه ان يكون له مستكثرا ولمن استكثر
منه ان يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا
وقد قال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي

وليقصد طالب العلم واثقا بتيسير الله قاصدا به وجهه بنية خالصة وعزيمة
صادقة فقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال من تعلم علما لغير الله او اراد
به غير الله فليتبوا مقعده من النار وروى ابو هريره رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه
قال تعلموا العلم قبل ان يرفع ورفعه ذهاب اهله فان احدكم لا يدري متى يحتاج اليه
او متى يحتاج الى ما عنده وليحذر ان يطلبه لمراء او رياء فان المماري مهجور لا ينتفع
والمرائي به محقور لا ينتفع وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال لا تعلموا العلم
لتماروا به ولا تعلموا العلم لتجادلوا به العلما فمن فعل ذلك منكم فالنار النار — السفها
وليس المماري به هو المناظر فيه طلبا للصواب منه ولكنه القاصد لدفع ما يرد عليه
من فاسد او صحيح وفيهم جاءت السنه عن النبي صلى الله عليه انه قال لا يجادل الا منافق
او مرتاب وقال الاوزاعي اذا اراد الله بقوم شرا اعطاهم الجدل ومنعهم العمل — شرا
وانشد الرياشي لمصعب ابن عبد الله

اجادل كل معترض ضنين فاجعل دينه غرضا لديني
واترك ما علمت لراي غيري وليس الراي كالعلم اليقين
وما انا والخصومه وهي شي تصرف في الشمال وفي اليمين

واما ما علمت فقد كفاني واما ما جهلت فجنبوني

وقد بين ذلك بعض العلما فقال لصاحبه لا يمنعنك حذر المراء من حسن المناظرة
فان المماري هو الذي لا يريد ان يتعلم منه احد ولا يرجو ان يتعلم من احد واعلم
ان لكل مطلوب باعثا والباعث على الطلب شيان رغبة او رهبة فليكن طالب
العلم راغبا راهبا اما الرغبة ففي ثواب الله لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته
واما الرهبة فمن عقاب الله عز وجل لتاركي اوامره ومهملي زواجره فاذا اجتمعت الرغبة
والرهبة في ثواب الله والرهبة من عقاب الله ادتا الى كنه العلم وحقيقة الزهد
لان الرغبة اقوى الباعثين على العلم والرهبة اقوى السببين في الزهد وقد
قالت الحكما اصل العلم الرغبة وثمرته السعادة واصل الزهد الرهبة وثمرته
العباده واذا اقترن الزهد والعلم فقد تمت السعادة وعمت الفضيله وان
افترقا فيا ويح مفترقين ما اضر افتراقهما واقبح انفرادهما وقد روي عن النبي
صلى الله عليه انه قال من ازداد في العلم رشدا فلم يزدد في الدنيا زهدا لم يزدد من
الله الا بعدا وقال مالك بن دينار من لم يوت من العلم ما يقمعه فما اوتي من
العلم لا ينفعه وقد قال بعض الحكما الفقيه بغير ورع كالسراج
يضي البيت ويحرق نفسه

فصل واعلم ان للعلوم اوايل
تودي الى اواخرها ومداخل تفضي الى حقايقها فليبتدي طالب العلم باوايلها لينتهي الى
اواخرها وبمداخلها ليفضي الى حقايقها ولا يطلب الاخر قبل الاول ولا الحقيقه قبل
المدخل فلا يدرك الاخر ولا يعرف الحقيقه لان البنا على غير اس لا يبنا والثمر من غير
غرس لا يجنى ولذلك اسباب فاسده ودواع واهيه فمنها ان تكون في النفس
اغراض تختص بنوع من العلم فيدعوه الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته
كرجل يوثر القضا ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه الى ادب القاضي وما يتعلق

عليه من الدعوي والبينات او يجب الارتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات
ليصير موسوما بجهل ما يعاني فاذا ادرك ذلك ظن انه حاز من العلم جمهوره وادرك
منه مشهوره ولم ير ما بقي منه الا غامضا طلبه عنا وعويصا استخراجه فنا فقصر
همته علي ما ادرك وانصرف عما ترك ولو نصح نفسه لعلم ان ما ترك اهم مما ادرك لان
من العلم ما يرتبط بعضه ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبل فلا تقوم الاواخر الا باوايلها وقد
يصح قيام الاوايل بانفسها فيصير طلب الاواخر بترك الاوايل تركا للاواخر والاوايل
فاذا ليس يعري من لوم وان كان تاركا لكل لوم ومنها ان يحب الاشتهار
بالعلم اما لتكسب او لتجمل فيقصد من العلم ما اشتهر به من مسايل الجدل
وطريق النظر ويتعاطي علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر علي الخلاف
وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو يجهل مذهبه مخصوم ولقد رايت من
هذه الطبقه عددا قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلفين واشتهروا به اشتهار
المتبحرين اذا اخذوا في مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سيلوا عن واضح مذهبهم
ضلت افهامهم حتي انهم ليتخبطون في الكلام تخبط عشوا فلا يظهر لهم
صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا اذا نمقوا في المجالس كلاما
موصوفا ولفقوا علي المخالف حجاجا مالوفا وقد جهلوا من المذهب ما يعلمه
المبتدي ويتداوله الناشي فهم دايما في غلط مضل ولغط مذل ورايت قوما منهم
يرون الاشتغال بالمذهب تكلفا والاستكثار منه تخلفا وحاجني بعضهم عليه فقال
لان علم حافظ المذهب مستور وعلم المناظره علم مشهور فقلت كيف يكون علم
حافظ المذهب مستورا وهو سريع الجواب كثير الصواب فقال لانه ان لم يسال سكت
فلم يعرف والمناظر ان لم يسال سال فعرف فقلت له اليس اذا سيل الحافظ فاجاب بان
فضله قال نعم قلت افليس اذا سيل المناظر فاخطا بان نقصه وقيل عند الامتحان يكرم الرجل

او يهان فامسك عن جوابي لانه ان انكر كابر المعقول ولو اعترف لزمته الحجة
والامساك اذعان والسكوت رضا ولان ينقاد الي الحق اولي من ان يستفزه الباطل
وهذه طريقة من يقول اعرفوني وهو غير معروف ولا معروف ويعيبه ضمن لا
يعرف العلم ان يعرف به وقد قال زهير

ومهما تكن عند امري من خليقة ... وان خالها تخفي علي الناس تعلم

ومن اسباب التقصير ايضا ان يغفل عن التعلم في الصغر ثم يشتغل به في الكبر
فيستحي ان يبتدي بما يبتدي به الصغير ويستنكف ان يساويه الحدث الغرير
فيبتدي باواخر العلوم واطرافها ويهتم بحواشيها واكنافها ليتقدم علي الصغير المبتدي
ويساوي الكبير المنتهي وهذا ممن قد رضي بخداع نفسه وقنع بمداهنة حسه
لان معقوله ان احس ومعقول كل ذي حس يشهد بفساد هذا التصور وينطق
باختلال هذا التخيل لانه شي لا يقوم في وهم وجهل ما يبتدي به المتعلم اقبح
من جهل ما ينتهي اليه العالم وقال الشاعر

ترق الي صغير الامر حتي ... يرقيك الصغير الي الكبير
فتعرف بالتفكر في صغير ... كبيرا بعد معرفة الصغير

ولهذا المعني واشباهه كان التعلم في الصغر احمد وروي مروان بن سالم عن
اسماعيل عن ابي الدردا قال قال رسول الله صلي الله عليه مثل الذي يتعلم في صغره
كالنقش علي الحجر والذي يتعلم في كبره كالذي يكتب علي الما وقال علي ابن ابي طالب
كرم الله وجهه قلب الحدث كالارض الخاليه ما القي فيها من شي قبلته وانما كان
كذلك لان الصغير افرغ قلبا واقل شغلا وايسر تبذلا واكثر تواضعا وقد
قيل في منثور الحكم المتواضع من طلاب العلم اكثرهم علما كما ان المكان المنخفض
اكثر البقاع ما فاما ان يكون الصغير اضبط من الكبير اذا عري من هذه

الموانع وادعى منه اذا خلا من هذه القواطع فلاه حكي ان الاحنف بن قيس سمع رجلا
يقول العلم في الصغر كالنقش في الحجر فقال الاحنف الكبير اكثر عقلا ولكنه اشغل
قلبا ولعمري لقد افصح الاحنف عن المعني ونبه علي العلة لان قواطع الكبير كثيره نحص
فمنها ما ذكرناه من الاستحياه وقد قيل في منثور الحكم من رق وجهه رق
علمه وقال الخليل بن احمد يرتع الجهل بين الحيا والكبر في العلم ومنها وفور شهوته
وتقسم افكاره وقد قال الشاعر

صرف الهوي عن ذي الهوي عزيز ان الهوي ليس له تمييز

وقال بعض البلغا القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجه والهموم
المذهله وقد قيل في منثور الحكم الهم قيد الحواس وقال بعض البلغا
من بلغ اشده لاقي من العيش اشده ومنها كثره اشغاله وترادف خلاله حتي
انها تستوعب زمانه وتستنفد ايامه وان الكبير تفقهوا قبل ان تسودوا وان
وقال بزرجمهر الشغل مجهده والفراغ مفسده فينبغي لطالب العلم ان لا يني في
طلبه وينتهز الفرصة به فربما شح الزمان بما سمح وضن بما منح ويبتدي العلم من
اوله وياتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك ما
لا يسع جهله فان لكل علم فضولا مذهله وشذورا مشغله ان صرف اليها نفسه
قطعته عما هو اهم منها وقال ابن عباس رضي الله عنه العلم اكثر من ان يحصي
فخذوا من كل شي احسنه وقال المامون ما لم يكن من العلم بارعا فبطون
الصحف اولي به من قلوب الرجال وقال بعض الحكما بترك ما لا يعنيك
تدرك ما يعنيك ولا ينبغي ان يدعوه ذلك الي ترك ما استصعب عليه اشعارا
لنفسه ان ذلك من فضول علمه اعذارا لها في ترك الاشتغال به فان ذلك مطية
النوكي وعذر المقصرين ومن اخذ من العلم ما تسهل وترك منه ما تعذر كان

كالقانص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خايبا اذ ليس يري الصيد الا
ممتنعا كذلك العلم طلبه صعب علي من جهله سهل علي من علمه لان معانيه التي
يتوصل اليها مستودعه في كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل فهو يجمع لفظا
مسموعا ومعني مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعني تحت اللفظ يفهم
بالقلب وقد قال بعض الحكما العلوم مطالعها من ثلثه اوجه قلب مفكر ولسان
معبر وبيان مصور فاذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعاني
سقطت عنه كلفه استخراجها وبقي عليه معاناه حفظها واستقرارها لان المعاني
شوارد تضل بالاغفال والعلوم وحشيه تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم
انست واذا ذكرها بعد الانس رست وقد قال بعض الحكما من اكثر المذاكره
بالعلم لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم وقال الشاعر

اذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ولم يستفد علما نسي ما تعلما
فكم جامع للكتب في كل مذهب يزيد مع الايام في جمعه عما

فان لم يعلم (يفهم) معاني ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة في تعذر فهمها
فان بمعرفه اسباب الاشيا وعللها يصل الي تلافي ما شذ منها وصلاح ما فسد
وليس يخلو السبب المانع من ذلك من ثلثه اقسام اما ان يكون لعلة في الكلام
المترجم واما ان يكون لعلة في المعني المستودع واما ان يكون لعلة في السامع المستخرج
فان كان السبب المانع من فهمها في الكلام المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلثه
احوال احدها ان يكون لتقصير اللفظ عن المعني فيصير تقصير اللفظ عن ذلك
المعني سببا مانعا من فهم ذلك المعني وهذا قد يكون من احد وجهين اما من حصر
وعيه واما من بلادته وقلة فهمه والحال الثانيه ان يكون لزياده اللفظ علي المعني
فتصير الزياده علة مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من احد وجهين

اما من بعد المتكلم واختاره واما لسوء ظنه بفهم سامعه والحال الثالثة ان
يكون لمواضعة يقصدها المتكلم بكلامه فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها
فاما تقصير اللفظ وزيادته في بعضه من الاسباب الخاصة دون العامة لانك
لست تجد ذلك عاما في كل كلام وانما تجده في بعضه وان عدلت عن الكلام المقصر
الى المستوفى وعن الزائد الى الكافي اربحت نفسك من تكلف ما يكد خاطرك فان
الجيت على استخراجه اما لضرورة دعتك اليه عند اعواز غيره او لحمية داخلتك
عند تعذر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر
والزيادة لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لان ما له من الكلام محصول
لا يجوز ان يكون المختل منه اكثر من الصحيح وفي الاكثر على الاقل دليل
وان كانت زيادة اللفظ على المعنى لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجه
اسهل وان كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو من اصعب
الامور حالا وابعدها استخراجا لان ما لا يفهمه متكلمه فانت من فهمه
ابعد الا ان يكون بفرط ذكائك وجودة خاطرك تنتبه باشارته على
استنباط ما عجز عنه واستخراج ما قصر فيه فتكون فضيلة الاستيفا
لك وحق التقدم له واما المواضعة فضربان عامة وخاصة فاما العامة
فهي مواضعة العلما فيما جعلوه القابا لمعان لا يستغني المتعلم عنها ولا
يقف على معنى كلامهم الا بها كما جعل المتكلمون الجواهر والاعراض والاجسام
القابا تواضعوها لمعان اتفقوا عليه ولست تجد من العلوم علما خلوا من هذه
وهذه المواضعة العامة تسمى عرفا واما الخاصة فمواضعة الواحد تقصد
باطن كلامه غير ظاهره فان كانت في الكلام كانت رمزا وان كانت في الشعر
كانت لغزا فاما الرمز فلست تجده في علم معنوي ولا في كلام لغوي وانما

يختص غالبا باحدى شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل
الرمز به سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التاويل فيه سببا لدفع التهمة عنه واما
لما يدعي اربابه انه علم معوز وان ادراكه بديع معجز كالصنعة التي وضعها اربابها
اسما لعلم الكيميا فرمزوا بابوابها واخفوا معانيها ليوهموا الشبه والاتفاق
عليه خديعة للعقول الواهية والآرا الفاسدة وقد قال الشاعر

منعت شيا فاكثرت الولوع به وحب شي الى الانسان ما منعا

ثم ليكونوا ابرا من عهدة ما قالوه اذا جرب ولو كان ما تضمن هذين النوعين
واشباههما من الرموز معنى صحيحا وعلما مستفادا لخرج من الرمز الخفي الى العلم
الجلي فان اغراض الناس مع اختلاف اهوايهم لا تتفق على حبس سليم واخفا
مفيد وقد قال زهير

الستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

وقد استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه من الالفاظ
ليكون احلا في القلوب موقعا واجل في النفوس موضعا فيصير
بالرمز سائرا وفي الصحف مخلدا كالذي حكي عن فيثاغورس في وصاياه
المرموزة انه قال احفظ ميزانك من الندى واوزانك من الصدى يريد بحفظ
الميزان من الندى حفظ اللسان من الخنا وبحفظ الاوزان من الصدى
حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسنا ومدونا ولو قاله
باللفظ الصريح والمعنى الصحيح لما سار عنه ولا استحسن منه وعلة ذلك
ان المحجوب عن الافهام كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له في
النفوس من التعظيم وفي القلوب من التفخيم وما ظهر منهما ولم يحتجب هان
واسترذل وهذا انما يصح استعماله فيما قل وهو باللفظ الصريح مستقل

فاما العلوم المستحسنة التي تتطلع النفوس اليها فقد استغنت بقوة الباعث عليها
وشدة الداعي اليها عن الاستدعا اليها برمز مستخرج او لفظ مستعذب بل
ذلك يختص غالبا في الشاغل باستخراج رموزها من الانبساط عن دركها وتصور
معانيها فيصير احالة الرموز. واما اللغز فهو تحيير اهل الفراغ وشغل ذوي
البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاخروا في سرعة خواطرهم
فيستكدوا الخواطر فيما لا يجدي نفعا ولا يفيد
علما فهم كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة اجسادهم الى
صراع كدود يصرع عقولهم ويهد اجسادهم ولا يكسبهم حمدا ولا يجدي عليهم
نفعا انظر الى قول الشاعر حيث يقول

رجل مات وخلف رجلا ابن ام ابن ابي اخت ابيه
معه ام بني اولاده وابا اخت بني عم اخيه

اخبرني عن هذين البيتين وقد دون صعوبة ما تضمنهما من
السوال اذا استكد الفكر في استخراجه فعلمت انه اراد ميتا خلف ابا
وزوجة وعما ما الذي افادك من العلم ونفى عنك من الجهل الا ما يثبت بعد علمه
تجهل من كان جاهلا من قبله ولو ان السايل قبل السوال فاخر ما قدم وقدم
ما اخر لكنت في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل بالاول وقد كددت
فكرك واتعبت خاطرك ثم لا تعدم ان يرد عليك مثل هذه مما تجهله فتكون
فيه كما كنت فيما قبله فاصرف نفسك تولى الله تعالى رشدك عن علوم
النوكى وتكلف البطالين وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال من
حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه ثم اجعل ما من الله به عليك من صحة

القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الى علم ما يكون انفاق عمرك فيه مذخورا
وكد فكرك فيه مشكورا. فقد روى سعيد بن ابي هند عن ابن عباس
رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس
الصحة والفراغ. ونحن نستعيذ بالله من ان نغبن فضل نعمته علينا ونمنع
احسانه الينا. وقد قيل في منثور الحكم من الفراغ تكون الصبوة
وقال بعض البلغا من امضى يومه في غير حق قضاه او فرض اداه او مجد اثله او
حمد حصله او خير اسسه او علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه
وقال بعض الشعرا

لقد هاج الفراغ عليك شغلا واسباب البلا من الفراغ

فهذا تعليل ما في الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج بها
الاستيفا الى البطالة والكشف الى الاغماض. واما القسم الثاني وهو ان يكون
السبب المانع من فهم السامع لعلة في المعنى المستودع فلا يخلو حال المعنى من
ثلثة اقسام اما ان يكون مستقلا بنفسه او يكون مقدمة لغيره او يكون
نتيجة من غيره فاما المستقل بنفسه فضربان جلي وخفي فاما الجلي فهو يسبق
الى فهم متصوره من اول وهلة وليس هو من اقسام ما يشكل على ذي
تصور. واما الخفي فيحتاج الى ادراكه الى زيادة تامل وفضل معاناة ليتجلى
عما خفي وينكشف عما اغمض وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به وبالارتياض
به يسهل منه ما استصعب ويقرب منه ما بعد فان للرياضة جراة وللاولية
تاثيرا. واما ما كان مقدمة لغيره فضربان احدهما ان تقوم المقدمة بنفسها
وان تعلقت بغيرها فيكون كالمستقل بنفسه في تصوره وفهمه وان كان
مستدعيا للنتيجة والثاني ان يكون مفتقرا الى نتيجته فيتعذر فهم المقدمة

الا باستيفائها من النتيجه لانها تكون بعضا منه وتبعيض المعنى اشكل له وبعضه لا يغني عن كله ‌. واما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك الا بما قبله ولا يتصور على حقيقته الا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمه عنا واتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته اذا فهذا يوضح تعليل ما في المعاني من الاسباب المانعه من فهمها ‌. واما القسم الثالث وهو ان يكون السبب المانع لعلة في المستمع فذلك ضربان احدهما من ذاته والثاني من طاري طرى عليه فاما ما كان من ذاته فيتنوع نوعين احدهما ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه والثاني ما كان مانعا من حفظه بعد تصوره وفهمه ‌. فاما المانع من تصور المعنى وفهمه فهو البلاده وقلة الفطنه وهو الدا العيا ‌. وقد قال العلما اذا فقد العالم الذهن قل على الاضداد احتجاجه وكثر على الكتب احتياجه ‌. وليس لمن بلي به الا الصبر والاقلال لانه على القليل اقدر وبالصبر احرى ان ينال ويظفر ‌. وقد قال بعض الحكما قدم لحاجتك بعض لجاجتك ‌. وليس يقدر على الصبر من هذه حاله الا ان يكون غالب الشهوه بعيد الهمه فيتبع قلبه الصبر لقوة شهوته ويتكلف حينئذ احتمال التعب لبعد همته فاذا تلوح له المعنى بعد تعب الشهوه اعقبه ذلك الحاح الحاملين ونشاط المدركين فقل عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير ‌. وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال انكم لا تنالون ما تحبون الا بالصبر على ما تكرهون ولا تبلغون ما تهوون الا بترك ما تشتهون ‌. وقيل في منثور الحكم اتعب قدمك فكم تعب قدمك ‌. وقال بعض البلغا اذا اشتد الكلف هانت الكلف ‌. وانشد لبعض الادبا ما ذكر انه لعلي بن ابي طالب عليه السلام

لا تعجزن ولا يدخلك منضجر ... فالنجح يهلك بين العجز والضجر ‌.

واما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير واهمال التواني فينبغي لمن بلي به ان يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل لن يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكد نفسه ‌. وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه الا من يرى العلم مغنما والجهالة مغرما فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينتفي عن معرة الجهل فان نيل العظيم بارتكاب الجسيم وعلى قدر الرغبه يكون الطلب وبحسب الراحة يكون التعب ‌. وقد قيل علة الراحة كثرة الاستراحه ‌. وقال بعض الحكما اطول الراحه ما كان عن كد التعب واعز العلم ما كان عن ذل الطلب ‌. وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ واتكل بعد فهم المعاني الى الرجوع الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة اليها فلا يكون الا كمن اطلق ما صاده ثقة بالقدره عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقه الا خجلا والتفريط الا ندما ‌. وهذه حال قد يدعوا اليها احد ثلثه اشيا اما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته او طول الامل في التوفر عليه عند نشاطه او فساد الراي في عزيمته ‌. وليس يعلم ان الضجر خايب وان الطويل الامل مغرور وان الفاسد الراي مصاب ‌. والعرب تقول في امثالها حرف في قلبك خير من الف في كتبك ‌. وقالوا لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ولا يعمر بك النادي ‌. وانشدت عن الربيع للشافعي رحمه الله عليه

علمي معي حيثما يممت يتبعني ... قلبي وعاء له لا جوف صندوق

ان كنت في البيت كان العلم فيه معي ... او كنت في السوق كان العلم في السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لالفاظ المعاني قيما بتلاوتها وهو لا يتصورها ولا يفهم ما تضمنته ثم يروي بغير روية ويخبر عن غير خبره فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهة ولا يويد حجة ‌. وقد روي

عن النبي صلى الله عليه انه قال همة السفهاء الرواية وهمة العلماء الرعاية وقال ابن
مسعود كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة فقد يرعوي من لا يروي ويروي
من لا يرعوي . وحدث الحسن البصري بحديث فقال له عمن يا ابا سعيد فقال
ما تصنع بعمن اما انت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته . وربما اعتمد على
حفظه وتصوره واغفل تقييد العلم في كتبه ثقة بما استقر في نفسه وهذا
اخطاء منه لان الشك معترض والنسيان طارئ وقد روى انس بن مالك عن
النبي صلى الله عليه انه قال قيدوا العلم بالكتاب . وروي ان رجلا شكى الى
النبي صلى الله عليه النسيان فقال استعن بيدك اي اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى
ما كتبت . وقال الخليل بن احمد اجعل ما في الكتب راس المال وما في القلب النفقة
وقال مهبود لولا ما عقدته الكتب من تجارب الاولين لانحل مع النسيان
عقود الاخرين . وقال بعض البلغاء ان هذه الاداب نوافر تند عن عقل الاذهان
فاجعلوا الكتب عليها حماة والاقلام لها رعاة . واما الطارئ فنوعان احدهما
لشبهة تعترض المعنى فتمنع من تصوره وتدفع عن ادراك حقيقته فينبغي ان يزيل
تلك الشبهة عن نفسه بالسؤال والنظر ليصل الى تصور المعنى وادراك
حقيقته وكذلك قال بعض العلماء لا تخل قلبك من المذاكرة فيعود عقيما ولا تعف
طبعك من المناظرة فيصير سقيما وقال بشار بن برد

شفاء العمى طول السؤال وانما دوام العمى طول السكوت على الجهل

والثاني افكار تعارض الخاطر فيذهل عن تصور المعنى وهذا سبب قل ما يعرى
منه احد لاسيما فيمن انبسطت اماله واتسعت امانيه وقد يقل فيمن لم يكن
له في غير العلم ارب ولا فيما سواه همة فان طرات على الانسان لم يقدر على مصابرة
نفسه على الفهم وغلبة قلبه على التصور لان القلب مع الاكراه اشد نفورا وابعد

قبولا وقد جاء الاثر بان القلب اذا اكره عمي ولكن يتلطف في دفع ما طرى عليه من
هم مذهل وفكر قاطع ليستجيب له القلب مطيعا وقد قال الشاعر

وليس بمغن في المودة شافع اذا لم يكن بين الضلوع شفيع

وقال بعض الحكماء ان لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتالفوها بالاقتصاد في
التعليم والتوسط في التقويم ليحسن طاعتها ويدوم نشاطها فهذا التعليل في
الممتنع من الاسباب المانعة من فهم المعاني . وها هنا قسم رابع يمنع من فهم
الكلام وفهم معانيه ولكنه قد يعرى منه بعض الكلام فلذلك لم نذكره في
جملة اقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره وهو الخط لان من الكلام ما كان
مسموعا لا يحتاج في فهمه الى تامل الخط به والمانع من فهمه هو على ما ذكرناه من اقسامه
ومنه ما كان مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة ماخوذا بالاستخراج فكان
الخط حافظا عنه ومعبرا عنه وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله
تعالى او اثارة من علم ان كنتم صادقين قال يعني الخط وروى مجاهد
في قوله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء قال الخط ومن يؤت الحكمة فقد اوتي
خيرا كثيرا يعني الخط . والعرب تقول الخط احد اللسانين وحسنه احدى
الفصاحتين . وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به تفصل شذورها
وينظم منثورها . وقال ابن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم
على الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم الراهن . وقال حكيم
الروم الخط هندسة روحانية فاذا ظهرت بالة جسمانية . وقال حكيم العرب
الخط اصيل في الروح وان ظهر بحواس الجسد . واختلف في اول من كتب
بالخط فذكر كعب الاحبار ان اول من كتب الخط ادم عليه السلام كتب سائر
الكتب قبل موته بثلاثمائة سنة في طين ثم طبخه فلما غرقت الارض في زمن

نوح عليه السلام بقيت الكتابة في قوم كتابتهم وبقي الكتاب العربي
الى ان خص الله تعالى به اسماعيل فأخذها وتعلمها وحكى ابن قتيبة ان اول من
كتب ادريس وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعده من اجل نفع حتى قال عكرمه
بلغ فدا اهل بدر اربعة الف درهم حتى ان الرجل ليفادى على ان يعلم الخط لما هو
مستقر في نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور نفعه واثره وقال
الله تعالى لنبيه صلى الله عليه اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم فوصف نفسه
بان علم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم واعتد بذلك من نعمه العظام ومن
اياته الجسام حتى اقسم به في كتابه فقال ن والقلم وما يسطرون فاقسم
كما اقسم بما يخط بالقلم واختلف في اول من كتب بالعربية فذكر كعب الاحبار
ان اول من كتب بها ادم عليه السلام ثم وجدها بعد الطوفان اسماعيل عليه السلام
وحكى ابن عباس رضي الله عنه ان اول من كتب بها ووضعها على لفظه
ومنطقه اسماعيل وحكى عروة بن الزبير ان اول من كتب بها قوم من الاوائل اسماوهم
ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت وكانوا
ملوك مدين وحكى ابن قتيبة في المعارف ان اول من كتب بالعربي
مرامر ابن مروه من اهل الانبار ومن الانبار انتشرت وحكى المداينى
ان اول من كتب بها مرامر ابن مروه واسلم ابن سدره وعامر ابن جدره ووضع
الاعجام ولما كان الخط بهذه الحال وجب على من اراد حفظ العلم ان يعتني بامرين
احدهما تقويم الحروف على اشكالها الموضوعة لها والثاني ضبط ما اشتبه منها
بالنقط والاشكال المميزه لها ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة
نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط في صحته وقال علي بن عبيده
حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير وقال ابو العباس المبرد رداة الخط زمانة

الادب وقال عبد الحميد البيان في اللسان والبنان وانشدني بعض اهل
الادب لاحد شعراء البصرة

اعذر اخاك على رداة خطه واغفر زلته لجودة ضبطه
واعلم بان الخط ليس يراد من تركيبه الا تبين سمطه
فاذا ابان عن المعاني لم يكن تحسينه الا زيادة شرطه

ومحل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل ما زاد
على الكلام المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب
حسن الخط احدى الفصاحتين وكما انه لا يعذر من اراد التقدم في الكلام ان يطرح
الفصاحة والاعراب وان فهم وافهم كذلك لا يعذر من اراد التقدم في الخط
ان يطرح تصحيح الحروف وتحسين الصور وان فهم وافهم وربما تقدم بالخط
من كان الخط اجل فضايله واشرف خصايله حتى صار عالما مشهورا وسيدا مذكورا
غير ان العلما اطرحوا صرف الهمه الى تحسين الخط لانه يشغلهم عن العلم ويقطعهم
عن التوفر عليه ولذلك تجد خطوط العلما في الاغلب رديه لا يلتزم الا من اسعده
القضا وقد قال الفضل ابن سهل من سعادة المرء ان يكون ردي الخط لان
الزمان الذي يفنيه بالكتابه يشغله بالحفظ والنظر وليست رداة الخط من
السعاده وانما السعاده ان لا يكون له صارفا عن العلم وعادة ذي الخط
الحسن ان يتشاغل بتحسين خطه عن العلم فمن هذا الوجه صار برداة خطه سعيدا
وان لم تكن رداة الخط سعاده واذا كان كذلك فقد تعرض للخط اسباب
تمنع من فهمه وصحته (قراءته ومعرفته) كما تعرض للكلام اسباب تمنع من فهمه وصحته والاسباب
المانعه من قراه الخط وفهم ما تضمنه قد تكون من ثمنيه اوجه احدها اسقاط
الفاظ من اثنا الكلام يصير الباقي بها مبتورا لا يعرف استخراجه ولا يفهم معناه

[illegible] يكون امّا من سهو الكاتب او من فساد نقله وهذا يسهل استقباطه على من
[illegible] مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشي الكلام وما سلم منه على ما سقط وقد
[illegible] اذا قلّ لان الكلمة تستدعي ما يليها ومعرفة المعنى يوضح عن الكلام المترجم
[illegible] المعنى فقليلا الارتياض بذلك النوع فانه يصعب عليه استنباط المعنى
[illegible] الا بكثير لانه يحتاج في فهم المعاني الى الفكر والروية فيما قد استخرجه
[illegible] لم يعرف تمام الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن ادراكه وضل فكره
[illegible] استنباطه والوجه الثاني زيادة الفاظ في اثناء الكلام يشكل بها معرفة
الصحيح من الزائد من معرفة السقيم الزائد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد
كثيرا الا ان يقصد الكاتب تعمية كلامه فيدخل في اثنائه ما يمنع من فهمه فيصير ذلك
رمزا يعرف بالمواضعة وامّا وقوعه سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لا
يمنع من فهمه على المرتاض وغيره والوجه الثالث اسقاط حروف من اثناء الكلمة تمنع
استخراجها على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف
الهجا فيكثر والقول فيه كالقول في الوجه الاول والوجه الرابع زيادة حروف في
اثناء الكلمة يشكل بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا قد يكون تارة من سهو
الكاتب فيقل ولا يمنع استخراج الصحيح وتارة لتعمية ومواضعة يقصد بها
الكاتب اخفاء غرضه فيكثر كالتراجم ويكون القول فيه كالقول في الوجه
الثاني والوجه الخامس وصل الحروف المفصولة وفصل الحروف الموصولة فيدعو
ذلك الى الاشكال لان الكلمة تشتبه عليها وصل حروفها ويمنع فصلها من
مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل وسهل استخراجه وان كان ذلك قلة
معرفة بالخط او سنة استبق به اليد كثر وصعب استخراجه الا على المرتاض
به ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه شر الكتابة المشق كما شر القراءة الهذرمة

والوجه السادس
وان كانت للتعمية والرمز لم يعرف الا بالمواضعة والوجه السادس
تغيير الحروف عن اشكالها وابدالها باغيارها حتى يكتب الحا على شكل الباء والصاد في
على شكل الراء وهذا يكون في رموز التراجم لا يوقف عليه الا بالمواضعة الا
لمن زاد فيه الذكا فيقدر على استخراج المعمى والوجه السابع ضعف الخط
عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة واثباتها على الاوصاف الحقيقية حتى
لا تكاد الحروف تمتاز عن اغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصولة كالدال
كلها وهذا يكون من رداءة الخط وضعفه واستخراج ذلك ممكن بفضل المعاناة
وشدة التامل وان كان ذلك لضجر قاريه وادهى معانيه ولذلك قيل ان الخط الحسن
يزيد الحق وضوحا والوجه الثامن اغفال النقط والاشكال التي تتميز بها الحروف
المشتبهة وهذا ايسر امرا واخف حالا لان من كان متميزا بصحة الاستخراج
ومعرفة الخط لم يخف عليه معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والاشكال
بل قد استقبح ذلك في المكاتبات ورآه من تقصير الكاتب او سوء ظنه بفهم
المكاتب وكان استقباحهم له في مكاتبة الرؤسا اكثر وقد حكي
قدامة ابن جعفر ان بعض كتاب الدواوين كاتب عاملا فشكى العامل منه الى عبيد
الله ابن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها احتجاجا لصحة دعواه ووضوح
شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هذا هذا فاخذ العامل وقراها
فظن ان عبيد الله اراد هذا هذا اثباتا لصحة دعواه وصدق قوله كما يقال
في اثبات الشي هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان واراه خط عبيد الله
وقال له ان عبيد الله قد صدق قولي وصحح ما ذكرت فخفي على الكاتب ذلك
واطيف به على كتاب الديوان فلم يقفوا على مراد عبيد الله ورد ليسال عن
مراده فشدد عبيد الله الكلمة الثانية وكتب تحتها والله المستعان

استعجالا لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج الى ابانته بالشكل فهذه حال
الكاتب في استقباحهم اعجام المكاتبات بالنقط والاشكال فاما غير المكاتبات من
سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوا الاستيفاء في كتب الادب التي يقصد بها
معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغه والشعر والغريب
فان الحاجة الى ضبطها بالشكل والاعجام اكثر وهي فيما سواه من العلوم ايسر
وقد قال الثوري الخطوط المعجمه كالبرود المعلمه وقال بعض البلغا اعجام
الخط يمنع من استعجامه وشكله يومن من اشكاله وقال بعض الادبا رب علم لم تعجم
فصوله فاستعجم محصوله وكما استقبح الكتاب الشكل والاعجام في المكاتبات
وان كان في كتب العلوم مستحسنا وكذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات
وان كان في كتب العلوم مستقبحا وسبب ذلك اهتمامهم لفرط ادلالهم بالصنعه وتقدمهم
في الكتابه يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفا
شروط الابانه تقصيرا ولفضل ما يعتقدونه من التقدم بهذه الحال راوا ما
نبه عليه من سواد المداد اثرا جميلا وعلى الفضل والتحصيل دليلا وحكي
ان عبيد الله بن سليمان راي على بعض ثيابه اثر صفرة فاخذ من مداد الدواة فطلاه
به ثم قال المداد بنا احسن من الزعفران وانشد

انما الزعفران عطر العذاري ومداد الدوي عطر الرجال

فهذه جملة كافية في الابانه عن الاسباب المانعه من فهم الكلام ومعرفة
معانيه لفظا كان او خطا والله ولي التوفيق فينبغي لطالب العلم ان يكشف
عن الاسباب المانعه ان تعذر عليه فهم المعني ليسهل عليه الوصول اليه
ثم تكون من بعد ذلك سايسا لنفسه مدبرا لها في حال تعلمه فان للنفس
نفورا يفضي الى التقصير وفتورا يوول الى سرف وقيادها عسر ولها

احوال ثلث حال عدل وانصاف وحال غلو واسراف وحال تقصير واجحاف
فاما العدل والانصاف فهو ان تختلف قوي النفس من جهتين متقابلتين طاعة
مشتعلة وشفقة كافة فطاعتها تمنع من التقصير وشفقتها تصد عن السرف
وهذه احمد الاحوال لان ما منع من التقصير نام وما صد عن السرف مستديم
والنمو اذا استدام فاخلق به ان يستكمل وقال بعض الحكما اياك ومفارقة
الاعتدال فان المسرف مثل المقصر في الخروج عن الحد واما حال الغلو والاسراف
فهو ان تختص النفس بقوي الطاعة وتعدم قوي الشفقه فيبعثها اختصاص
الطاعة على افراغ الجهد الى عجز الكلال ويوديها عجز الكلال الى الترك والاهمال
فتصير الزيادة نقصانا والربح خسرانا وقد قالت الحكما طالب العلم وعامل
البر كآكل الطعام ان اخذ منه قوتا عصمه وان اسرف فيه ابشمه وربما كانت فيه
منيته وكالآخذ الادويه التي القصد فيها شفا ومجاوزة الحد فيها السم المميت
واما حال التقصير والاجحاف فهو ان تختص النفس بقوي الشفقه وتعدم
قوي الطاعة فيدعوها الاشفاق الى المعصيه وتمنعها المعصيه من الاجابه
فلا تطلب شاردا ولا تقبل عايدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد
ويقبل العايد ويحفظ المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما
وجد فهو مصاب محزون ومن لم يجد ما فقد فهو خايب مغبون وقد
قال بعض الحكما العجز مع الواني والفوت مع التواني وقد يكون للنفس
مع الاحوال الثلث حالتان مشتركتان تغلب احدي القوتين فيكون للنفس
طاعة واشفاق واحدهما اغلب من الاخر فان كانت الطاعة اغلب كانت
الي الوفور المجاوز اميل وان كانت الاشفاق اغلب كانت الي النقص المقصر
اقرب فاذا عرف من نفسه قدر طاعتها وخبر منها كنه شفقتها واخر نفقته

لتلبث على احدى حالاتها وقد اشار الى ما وصفناه من حال النفس الفرزدق في قوله

لكل امرئ نفسان نفس كريمة واخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى اذا قل من احرارهن شفيعها

فان لهم بسياستها واغفل رياضتها ودام ان ياخذها بالعنف ويقهرها بالعسف استشاطت نافرة ولجت معانده فلم تنقد الى الطاعة ولم تكف عن معصية وقد قال سابق البربري

اذا جرت لجوجا دونه علقا ولجت النفس منه في تماديها
فعل عليه اذا ما نفسه جمحت باللين منك فان اللين يثنيها

فان استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياستها ومعاناة رياضتها تركها ترك راحه ثم عاودها بعد الاستراحه فان اجابتها تسرع وطاعتها ترجع وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال القلب يموت ويحيا ولو بعد حين وقال ابن مسعود رضي الله عنه للقلوب شهوة واقبال وفترة وادبار فاتوها من قبل شهوتها ولا تاتوها من قبل فترتها وقد قال الشاعر

وما سمي الانسان الا لانسه ولا القلب الا انه يتقلب

واما الشروط التي يتوفر عليها علم الطالب وينتهي معها كمال الراغب مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمده به من المعونه فتسعه شروط احدها العقل الذي يدرك به حقايق الامور والثاني الفطنه التي يتصور بها غوامض العلوم والثالث الذكا الذي يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه والرابع الشهوة التي يدوم بها الطلب ولا يسرع اليه الملل والخامس الاكتفا بمادة تغنيه عن كلف الطلب والسادس الفراغ الذي يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار والسابع عدم

القواطع المذهلة من هموم واشغال وامراض والثامن طول العمر واتساع المده لينتهي بالاستكثار الى مراتب الكمال والتاسع الظفر بعالم سمح بعلمه متان في تعليمه فاذا استكمل هذه الشروط التسعه فهو اسعد طالب وانجح متعلم وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم الى اربع مدة وجده وقريحه وشهوه وتمامها في الخامسه معلم ناصح

فصل

وانا ذكر طرفا يتادب به المتعلم ويكون عليه العالم

اعلم ان للمتعلم في زمان تعلمه ملقا وتذللا ان استعملهما غنم وان تركهما حرم لان التملق للعالم يظهر مكنون علمه والتذلل له سبب لادامة صبره وباظهار مكنونه تكون الفايده وباستدامة صبره يكون الاكثار وقد روى معاذ عن النبي صلى الله عليه انه قال ليس من اخلاق المومن الملق الا في العلم وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه ذللت طالبا فعززت مطلوبا وقال بعض الحكما من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل ابدا وقال بعض حكما الفرس اذا قعدت وانت صغير حيث تحب قعدت وانت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف فضل علمه وليشكر له جميل فعله فقد روت عايشه رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه انه قال من وقر عالما فقد وقر ربه وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لا يعرف اهل الفضل الا اهل الفضل وقال بعض الشعرا

ان المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه واصبر لجهلك ان جفوت معلما

ولا يمنعه من ذلك علو منزلة ان كانت له وان كان العالم خاملا فان العلما بعلمهم استحقوا التعظيم لا بالقدره والمال وانشدني بعض اهل الادب وقال

انه لابن دريد

لا تحقرن عالما وان خلقت اثوابه في عيون رامقه

وانظر اليه بعين ذي خطر مهذب الراي في طرايقه

فالمسك بينا تراه ممتهنا بفهر عطاره وساحقه

حتي تراه بعارضي ملك او موضع التاج من مفارقه

ولكن متشبها بهم في رضي اخلاقهم متشبها بهم في جميل افعالهم ليصير لها آلفا وعليها ناشيا ولما خالفها مجانبا فقد قال النبي صلى الله عليه خيار شبابكم المتشبهون بشيوخكم وشرار شيوخكم المتشبهون بشبابكم وروي بن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه قال من تشبه بقوم فهو منهم وانشدني بعض اهل الادب

العالم العاقل ابن نفسه اغناه جنس علمه عن جنسه

كن ابن من شيت وكن مودبا فانما المرء بفضل كيسه

كم بين من تكرمه لغيره وبين من تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وان آنسه والادلال عليه وان تقدمت صحبته فقد قيل لبعض الحكما من اذل الناس فقال عالم يجري عليه حكم جاهل وكلمت رسول الله صلى الله عليه جارية من السبي فقال لها من انت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال صلى الله عليه ارحموا عزيزا ذل ارحموا غنيا افتقر ارحموا عالما ضاع بين الجهال ولا يظهر له الاستكفا والاستغنا عنه فان في ذلك كفرا لنعمته واستخفافا بحقه وربما بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكايه وحدة خاطره فقصد من يعلمه بالاعنات له والاعتراض عليه ازرا به وتبكيتا له فيكون كمن تقدم فيه المثل الساير لابي البطحا

اعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

وهذا من مصايب العلما وانعكاس حظوظهم ان يصيروا عند من علموه مستجهلين

وعند من قدموه مستذلين وقال صالح بن عبد القدوس

وان عنا ان تعلم جاهلا فيحسب جهلا انه منك اعلم

متي يبلغ البنيان يوما تمامه اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

متي ينتهي عن سيي من اتي به اذا لم يكن منه عليه تندم

وقد رجح كثير من العلما حق العالم على حق الوالد حتي قال بعض الشعراء

يا فاخر السفاه بالسلف وتاركا للعلا والشرف

آبا اجسادنا هم سبب لان جعلنا عوارض التلف

من علم الناس كان خير اب ذاك ابو الروح لا ابو النطف

ولا ينبغي ان يبعثه معرفة الحق له على قبول الشبه منه ولا يدعوه ترك الاعنات له على التقليد فيما اخذ عنه فانه ربما غلا بعض الاتباع في عالمهم حتي يروا ان قوله دليل وان لم يستدل وان اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضي بهم الامر الى التسليم له فيما اخذوا عنه ويوول ذلك بهم الى التقصير فيما يصدر منه لانه يجتهد بحسب اجتهاد من ياخذ عنه فلا يبعد ان تبطل تلك المقالة ان تفردت او يخرج اهلها من عدد العلما ان شاركت لانه قد لا يري لهم من ياخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن اخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفون عن ابانته ويعجزون عن نصرته فيذهبون ضايعين ويصيرون عجزة مضعوفين ولقد رايت من هذه الطبقة رجلا يناظر في مجلس حفل وقد استدل الخصم عليه بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها ان قال هذه دلالة فاسدة ووجه فسادها ان شيخي لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ فلا خير فيه فامسك المستدل عنه تعجبا ولان شيخه كان محتشما وقد حضرت طايفة يرون فيه مثل راي هذا الجاهل ثم اقبل المستدل علي وقال لي والله لقد افحمني بجهله

هذه الجهالة

وصار سائر الناس المبرّين من الجهل بين مستهزئ او متعجب او مستعيذ بالله من
جهل معرب . فهل رايت كذلك عالمًا او غرّ في الجهل او دلّ على قلة العقل فاذا
كان المتعلم معتدل الراي فيمن ياخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه
حتى لا يحمله الاعنات على اعتراض المبكّتين ولا يبعثه الغلو على تسليم
المقلدين وبرى المتعلم من المدنّسين وسلم العالم من المعنتين وليس كثرة السوال
فيما التبس اعناتًا ولا قبول ما صحّ في النفس تقليدًا . وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه
قال العلم خزاين ومفتاحه المسلة فاسلوا رحمكم الله فانما يوجر في العلم
ثلثة القايل والمستمع والاخذ . وقال هلّا سالوا اذ لم يعلموا فانما شفا العي
السوال فامر بالسوال وحث عليه ونهى اخرين عن السوال وزجر عنه فقال
صلى الله عليه انهاكم عن قيل وقال وكثرة السوال واضاعة المال وقال
اياكم وكثرة السوال فانما هلك من قبلكم بكثرة السوال وليس هذا مخالفًا
للاول انما امر بالسوال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه من قصد به اعنات
ما سمع . واذا كان السوال في موضعه ازال الشكوك ونفى الشبه
وقد قيل لابن عباس رضي الله عنه بم نلت هذا العلم فقال بلسان سوول
وقلب عقول . وروي نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه قال
حسن السوال نصف العلم . وانشد ابي المبرد عن ابي سليمن الغنوي

فسل الفقيه تكن فقيهًا مثله لا خير في علم بغير تدبر

واذا تعسرت الامور فارجها وعليك بالامر الذي لا يعسر

فلياخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب الصيت
وبعد الذكر باتباع اهل المنازل من العلما اذا كان النفع بغيرهم اعم الا ان
يستوي النفعان فيكون الاخذ عمن اشتهر ذكره وارتفع قدره اولى لان

الانتساب اليه اجمل والاخذ عنه اشهر وقد قال الشاعر

اذا انت لم يشهرك علمك لم تجد لعلمك انسانًا من الناس يقبله

فان صانك العلم الذي قد حملته اتاك له من يجتنيه ويحمله

واذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل عليك من وجه فلا تطلب ما
صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تخبره فان العدول عن القريب
الى البعيد عنا وترك الاسهل بالاصعب بلا والانتقال عن المخبور الى غيره خطر
وقد قال علي عليه السلام عقبى الاخرق مضرة والمتسعف لا تدوم له مسرة
وقال بعض الحكما القصد اسهل من التسعف والكف اودع من التكلف وربما
تبعث نفس الانسان الى من بعد عنه استهانة بمن قرب منه وطلب ما
صعب احتقارًا لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره مللًا لمن خبره فلا يدرك محبوبًا ولا
يظفر بطايل . وقد قالت العرب في امثالها ان العالم كالحمة ياتيها البعدا
ويزهد فيها القربا . وانشدني بعض شيوخنا المسيح ابن حاتم

لا ترى عالمًا يحل بقوم فيحلوه غير دار الهوان

قل ما توجد السلامة والصحة مجموعتين في انسان

فاذا حلتا مكانًا عجيبًا فهما في النفوس معشوقتان

هذه مكة المنيعة بيت الله يسعى لحجها الثقلان

وترى ازهد البرية في الحج لها اهلها لقرب المكان

فصل وانما ما يجب ان يكونوا عليه العلما من الاخلاق
التي هي بهم اليق ولهم الزم التواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف
والعجب منفر وهو بكل احد قبيح وبالعلما اقبح لان الناس بهم يقتدون .
وكثيرًا ما يداخلهم الاعجاب لتوحدهم بفضيلة العلم ولو انهم نظروا

حق النظر وعملوا بموجب الخبر لكان التواضع بهم اولى ومجانبة العجب بهم احرى
لان العجب نقص ينافي الفضل لا سيما مع قول النبي صلى الله عليه ان العجب
ليأكل الحسنات كما ياكل النار الحطب فلا يفي ما ادركوا من فضيلة العلم
بما لحقهم من نقص العجب ٥ وقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال قال
رسول الله صلى الله عليه قليل الفقه خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما اذا عبد الله
وكفى بالمرء جهلا اذا اعجب برايه وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه تعلموا العلم
وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون وليتواضع لكم من
تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلما فلا يفي علمكم بجهلكم ٥ وقال بعض السلف
من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله به ومن تواضع بعلمه رفعه الله سبحانه
به وعلة اعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم من الجهال وانصراف نظرهم عمن
فوقهم من العلما فانه ليس متناه في العلم الا وسيجد من هو اعلم منه بشي
اذ العلم اكثر من ان يحيط به بشر قال الله تعالى نرفع درجات من نشا وفوق
كل ذي علم عليم قال اهل التاويل فوق كل عالم من هو اعلم منه حتى ينتهي ذلك الى
الله تعالى ٥ وقيل لبعض الحكما من يعرف كل العلم فقال كل الناس ٥ وقال
الشعبي ما رايت مثلي وما اشا ان القى رجلا اعلم مني الا لقيته ولم يذكر الشعبي
هذا القول تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم
عن ان يحاط به فينبغي لمن علم ان ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب
ما ادرك منه ٥ وقد قيل في منثور الحكم اذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك
من الجهال ولكن انظر من فوقك من العلما وانشدت لابن العميد

من شا عيشا هنيا يستفيد به ... في دينه ثم في دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه ادبا ... ولينظرن الى من دونه مالا

وقل ما تجد بالعلم معجبا وبما ادرك منه مفتخرا الا من كان فيه مقلا ومقصرا
لانه يجهل قدره ويحسب انه نال بالدخول فيه اكثره فاما من كان فيه
متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن ادراك نهايته ما يصده
عن العجب به ٥ وقد قال الشعبي العلم ثلثة اشبار فمن نال منه شبرا
شمخ بانفه وظن انه ناله ومن نال الشبر الثاني صغرت اليه نفسه وعلم انه لم ينله
الشبر الثالث فهيهات لا يناله احد ابدا ٥ ومما انذرك به من حالي اني صنفت في البيوع
كتابا جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس واجهدت فيه نفسي وكددت
فيه خاطري حتى اذا تهذب واستكمل وكدت اعجب به وتصورت اني اشد
الناس اضطلاعا بعلمه حضرني وانا في مجلسي اعرابيان فسالاني عن بيع عقداه
في البادية على شروط تضمنت اربع مسايل لم اعرف لشي منها جوابا فاطرقت مفكرا
وبحالي وحالهما معتبرا فقالا اما عندك فيما سالناك جواب وانت زعيم هذه الجماعة
فقلت لا فقالا ايها لك وانصرفا فاتيا من قد يتقدمه في العلم كثير من اصحابي
فسالاه فاجابهما مسرعا بما اقنعهما فانصرفا راضيين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت
مرتبكا واني لعلى ما كنت عليه في تلك المسايل الى وقتي فكان ذلك زاجر
نصيحة ونذير عظة تذلل بهما قياد النفس وانخفض لهما جناح العجب توفيقا
منحته ورشدا اوتيته ٥ ويجب على من ترك العجب بما يحسن ان يدع التكلف بما لا
يحسن فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما ومن اوضح ذلك ما استعاذه
الجاحظ في كتاب البيان حيث يقول اللهم انا نعوذ بك من العجب بما نحسن
ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العي والحصر ونحن
نستعيذ بالله مثل استعاذته فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهي
اليها ولا حد يقف عنده ومن كان تكلفه غير محدود فاخلق به ان يضل او ان

فتنة العلم [illegible]

تضل وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال من سئل فافتى بغير علم فقد ضل واضل
وقال بعض الحكما من العلم ان لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك
جهلا من عقلك ان تنطق بما لا تفهم ولقد احسن زرارة بن زيد حيث يقول

اذا ما انتهى علمي تناهيت عنده ... اطال فاملى او تناهى فاقصرا
ويخبرني عن غائب المرء فعله ... كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

فاذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار ان تجهل بعضه واذا لم يكن
في جهل بعضه عار لم يقبح به ان يقول فيما ليس يعلم لا اعلم وقد روي ان
رجلا قال يا رسول الله اي البقاع خير واي البقاع شر فقال لا ادري حتى
اسال جبريل وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وابردها على القلب
اذا سئل احدكم عما لا يعلم ان يقول الله اعلم فان العالم من عرف ان ما يعلم
فيما لا يعلم قليل وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما اذا ترك العالم قول لا ادري
اصيبت مقاتله وقال بعض العلما هلك من ترك لا ادري وقال
بعض الحكما ليس لي من فضيلة العلم الا علمي باني لست اعلم وقال بعض
البلغا من قال لا ادري علم فدرى ومن انتحل ما لا يدري اهمل فهوى ولا ينبغي
للرجل وان كان في طبقة العلما الافاضل ان يستنكف من تعلم ما ليس عنده ليسلم
من التكلف وقد قال عيسى بن مريم عليه السلام يا صاحب العلم تعلم من العلم
ما جهلت وعلم الجهال ما علمت وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه خمس
خذوهن عني فلو ركبتم فيهن الفلك ما وجدتموهن الا عندي ألا لا يرجوا احد
الا ربه ولا يخافن الا ذنبه ولا يستنكف ان يتعلم ما ليس يعلم واذا سئل
عما لا يعلم فليقل لا اعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد
وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه لو كان احد مكتفيا من العلم لاكتفى منه

موسى عليه السلام لما قال هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا وقيل
للخليل بن احمد بما ادركت هذا العلم فقال كنت اذا لقيت عالما اخذت منه واعطيته
وقال بزرجمهر من العلم ان لا تحقر شيئا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم
وقال المنصور لشريك انى لك هذا العلم قال لم ارغب عن قليل استفيده ولم
ابخل بكثير افيده على ان العلم يقتضي ما بقي منه ويستدعي ما تاخر عنه
وليس للراغب فيه قناعة ببعضه وروي عون بن عبد الله عن ابن مسعود
قال منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا اما طالب العلم فانه يزداد
للرحمن رضا ثم قرا انما يخشى الله من عباده العلما واما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا
ثم تلا كلا ان الانسان ليطغى ان راه استغنى وليكن مستقلا للفضيلة منه
ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهي عنها ولا يقنع في العلم بما ادرك منه
لان القناعة فيه زهد والزهد فيه ترك والترك له جهل وقد قال بعض الحكما
عليك بالعلم والاكثار منه فان قليله اشبه شي بقليل الخير وكثيره اشبه شي
بكثير الخير ولن يعيب الخير الا القلة فاما كثرته فانها امنية وقال بعض
البلغا من فضل علمك استقلالك لعلمك ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك
ولا ينبغي ان يجهل من نفسه مبلغ علمها ولا ان يتجاوز بها قدر حقها ولان يكون بها
مقصرا بالانقياد اولى من ان يكون متجاوزا فيكف عن الازدياد لان من جهل حال نفسه
كان لغيرها اجهل وقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله متى يعرف الانسان
ربه فقال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن احمد احوال الناس فيما علموه او جهلوه
اربعة اقسام متقابلة لا يخلو حال الانسان منها فقال الرجال اربعة رجل يدري
ويدري انه يدري فذلك عالم فاسالوه ورجل يدري ولا يدري انه يدري فذلك ناسي
فذكروه ورجل لا يدري ويدري انه لا يدري فذلك مسترشد فعلموه ورجل

الرجال

لا يدري ولا يدري انه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه وانشد ابو القسم الامدي

اذا كنت لا تدري ولم تك بالذي تسايل من يدري فكيف اذن تدري

جهلت ولم تعلم بانك جاهل فمن لي بان تدري بانك لا تدري

اذا جيت في كل الامور بغمة فكن هكذا ارضا يطاك الذي يدري

ومن اعجب الايام انك لا تدري وانك لا تدري بانك لا تدري

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على ان ياتمر بما امر به ولا يكن
ممن قال الله تعالى فيه مثل الذين حملوا التورية ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا
فقد قال قتاده في قول الله تعالى وانه لذو علم لما علمناه اي انه عامل بما علم
وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال ويل لاقماع القول ويل للمصرين يريد
الذين يستمعون القول ولا يعملون به ن وروي عبد الله بن وهب عن سفيان
ان الخضر قال لموسى عليه السلام يا بن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلمه لتحدث
به فيكون عليك بوره ولغيرك نوره ن وقال علي ابن ابي طالب عليه السلام انما زهد
الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم وقال ابو الدردا اخوف
ما اخاف عليكم اذا وقفت بين يدي الله تعالى يقول قد علمت فماذا عملت اذ علمت
وكان يقال خير من القول فاعله وخير من الصواب قايله وخير من العلم حامله ن
وقيل في منثور الحكم لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به وقال بعض العلما
ثمرة العلم العمل به وثمرة العمل به ان يوجر عليه فقال بعض الصلحا العلم يهتف بالعمل
فان اجابه والا ارتحل وقد قال بعض الحكما خير العلم ما نفع وخير القول ما ردع ن
وقال بعض الادبا ثمرة العلوم العمل بالمعلوم وقال بعض البلغا من تمام العلم
استعماله ومن تمام العمل استقلاله فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل
عمله لم يقصر عن مراد وقال ابو تمام الطاي

ولم يحمدوا من عالم غير عامل خلافا ولا من عامل غير عالم

راوا طرقات المجد عوجا قطيعة واقطع عجز عندهم عجز حازم

ولانه لما كان علمه حجة على من اخذه عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل به والمصير
اليه كان عليه احج وله الزم لان مرتبة العمل قبل مرتبة القول كما ان مرتبة العلم قبل
مرتبة العمل وقد قال ابو العتاهية

اسمع الي الاحكام تحملها الرواة اليك عن حكما

واعلم هديت فانما حجج تكر اليك منكا

ثم ليجتنب ان يقول ما لا يفعل او يامر بما لا ياتمر او ان يسر بما لا يظهر ولا يجعل
قول الشاعر

اعمل بقولي وان قصرت عن عملي ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

عذرا له في تقصيره وان لم يضر عرضه فان اعذار النفس تغريها وتحسن لها مساويها
وان من قال ما لا يفعل فقد مكر ومن امر بما لا ياتمر فقد خدع ومن اسر غير ما
يظهر فقد نافق ن وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال المكر والخديعة
وصاحباهما في النار على ان امره بما لا ياتمر مطرح وانكاره فيما لا ينكره من نفسه
مستقبح وربما كان ذلك سببا لاغرا المامور بترك ما امر به عنادا وارتكاب ما
نهي عنه كيادا وحكي ان اعرابيا اتى ابن ابي ذيب فساله عن مسالة طلاق فافتاه
بطلاق امراته فقال انظر حسنا قال قد نظرت وقد بانت منك فولى الاعرابي وهو يقول

اتيت بن ذيب ابتغي العلم عنده فطلق حتى البت بتت انامله

اطلق في فتيا ابن ذيب حليلتي وعند ابن ذيب اهله وحلايله

فظن بجهله انه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فانه يقول يجب
اشتراك الامر والمامور فيه كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له كلا

وقد قال أحمد بن يوسف

وعاملٍ بالفجور يامر بالبر كهادي يخوض في الظلم
او كطبيب قد شفه سقم وهو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر اولا فلا تلم
عود لسانك قلة اللفظ واحفظ لسانك انما حفظ
اياك ان تعظ الرجال وقد اصبحت محتاجا الى الوعظ

ومنها الانقطاع عن العلم الى العمل والانقطاع عن العمل الى العلم اذا عمل بموجب العلم فقد حكي عن الزهري فيما بلغني عن ثقة عنه وهو انه قال العالم افضل من العمل به لمن جهل والعمل افضل من العلم لمن علم فاما فضل ما بين العلم والعبادة اذا لم يخل بواجب ولم يقصر في فرض فقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال يبعث العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم اثبت حتى تشفع للناس ومن اداب العلما ان لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون ولا يمتنعوا من افادة ما يعلمون فان البخل به لوم وظلم والمنع حسد واثم وكيف يسوغ لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل واوتوه عفوا من غير بذل ام كيف يجوز لهم الشح بما ان بذلوه زاد ونما وان كتموه تناقص ووهي ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم ولانقرض عنهم بانقراضهم ولصاروا على مرور الايام جهالا وبتقلب الاحوال وتناقصها ارذالا وقد قال الله تعالى واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال لا تمنعوا العلم اهله فان في ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم ثم قرا ان الذين ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال من كتم علما يحسنه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار وروي عن علي ابن ابي طالب

وقال آخر

العلم

يكتمون

كرم الله وجهه انه قال ما اخذ الله العهد على اهل الجهل حتى اخذ العهد على اهل العلم ان يعلموا وقال بعض الحكما اذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فاحرى ان يكون من قواعد الحكمة بذل ما يزيده البذل وقال بعض الحكما كما ان الاستفاده نافله للمتعلم كذلك الافاده فرض على المعلم وقيل في منثور الحكم من كتم علما فكانه جاهل وقال خالد ابن صفوان اني لافرح بافادتي المتعلم اكثر من فرحي باستفادتي من المعلم ثم له بالتعلم نفعان احدهما ما يرجوه من ثواب الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه تعليم العلم صدقة فقال صلى الله عليه تصدقوا على اخيكم بعلم يرشده وراي يسدده وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه انه قال تعلموا وعلموا فان اجر العالم والمتعلم سوا قيل وما اجرهما قال مايه مغفرة ومايه درجه في الجنة والنفع الثاني زيادة العلم واتقان الحفظ فقد قال الخليل بن احمد اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك وقال بن المعتز في منثور الحكم النار لا ينقصها ما اخذ منها ولكن يخمدها ان لا تجد حطبا وكذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولا فقد الحاملين له سبب عدمه واياك والبخل بما تعلمه وقال بعض العلما علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا انت قد علمت ما جهلت وحفظت ما علمت واعلم ان المتعلمين ضربان مستدعى وطالب فاما المستدعي الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعلم لما ظهر له من وجود ذكايه وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعا العالم شهوة المتعلم كانت نتيجتهما درك النجبا وظفر السعدا لان العالم باستدعايه متوفر والمتعلم بشهوته وذكايه مستكثر واما الطالب للعلم لداع يدعوه وباعث يحدوه فان كان الداعي دينيا وكان المتعلم فطنا ذكيا وجب على العالم ان يكون عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفرا لا يخفي عنه مكنونا ولا يطوي عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد

الفطنه فينبغي ان لا يمنع من اليسير فيحرم ولا يحمل عليه بالكثير فيظلم ولا يجعل
ملالته ذريعه لحرمانه فان الشهوه باعثه والصبر موثر وقد روي عن النبي صلى الله عليه
انه قال لا تمنعوا العلم اهله فتظلموا ولا تضعوه في غير اهله فتاثموا وقال
بعض الحكما لا تمنعن العلم احدا فان العلم امنع لجانبه فاما ان لم يكن الداعي
دينيا نظر فيه فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم النباهة وطلب الرياسة
فالقول فيه تقارب القول في تعليم من قبل لان العلم يعطفه الى الدين في ثاني الحال
وان لم يكن مبتديا به في اول حال وقد حكي عن سفين الثوري انه قال تعلمنا العلم لغير
الله فابى ان يكون الا لله وقال عبد الله بن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا وان
كان الداعي محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كامن ومكر باطن يريدان
يستعملها في شبه دينية وحيل فقهية لا يجد اهل السلامة منها مخلصا ولا عنها
مدفعا كما قال النبي صلى الله عليه اهلك امتي رجلان عالم فاجر وجاهل متعبد وقيل
يا رسول الله اي الناس شر قال العلما اذا فسدوا فينبغي للعالم اذا راى من هذه حاله ان
يمنعه من طلبته ويصرفه عن بغيته ولا يعينه على امضا مكره واعمال شره فقد روى
انس ان النبي صلى الله عليه قال واضع العلم في غير اهله كمقلد الخنازير اللولو والجواهر
والذهب وقد قال عيسى عليه السلام لا تقلدوا اللولو الخنازير فالعلم افضل من اللولو
ومن لا يستحقه شر من الخنازير وحكي ان تلميذا سال عالما عن بعض العلوم
فلم يفده فقيل له لم منعته فقال لكل تربة غرس ولكل بناء اس وقال بعض العلما
لكل ثوب لابس ولكل علم قابس وقال بعض الادبا ارث لروضة توسطها خنزير
وابك لعلم حواه شرير وينبغي ان يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف بها
مبلغ طاقته وقدر استحقاقه وقد روى ثابت عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه
ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه اذا انا لم اعلم

اروح للعالم وانجح للمتعلم

ما لم ار فلا علمت ما رايت وقال عبد الله بن الزبير لا عاش بخير من لم ير برايه ما لم
ير بعينه وقال ابن الرومي

المعي يرى باول راي اخر الامر من ورا المغيب
لوذعي له فواد ذكي ماله في ذكائه من نصيب
لا يروي ولا يقلب طرفا واكف الرجال في تقليب

واذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفه وكان بقدر استحقاقهم خبيرا
لم يضع له عنا ولم يخب على يديه صاحب وان لم يتوسمهم وخفيت عليه احوالهم ومبلغ
استحقاقهم كانوا واياه في عنا مكد وتعب غير مجد لانه لا يعدم ان يكون
فيهم ذكي يحتاج الى الزيادة وبليد يحتاج الى التقليل فيضجر الذكي ويعجز البليد ومن
تردد اصحابه بين ضجر وعجز ملوه وملهم وقد روى عبد الله بن وهب عن سفيان
قال قال الخضر لموسى عليه السلام يا طالب العلم ان القايل اقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك
اذا حدثتهم يا موسى واعلم ان قلبك وعا فانظر ماذا تحشو في وعائك وقال بعض
الحكما خير العلما من لا يقل ولا يمل وقال بعض العلما كل علم كثر على السمع ولم يطاوعه
الفهم ازداد به القلب عمى وانما ينفع السمع في الاذان اذا قوي فهم القلوب في الابدان
وربما كان لبعض السلاطين رغبة في العلم لفضيلة نفسه وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة
في الانبساط عليه والادلال عليه بل يعطيه ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان
للسلطان حق الطاعة والاعظام وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغي ان يبتديه
الا بعد الاستدعا ولا يزيده على قدر الاكتفا فربما احب بعض العلما اظهار علمه للسلطان
فاكثر فصار ذلك ذريعة الى ملله ومفضيا الى بعده لان السلطان منقسم الافكار
مستوعب الزمان فليس له في العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المتفردين به وقد حكي
عن الاصمعي قال قال لي الرشيد يا عبد الملك انت اعلم منا ونحن اعقل منك لا تعلمنا في

ملولا تسرع الى تذكيرنا تخلا وتركنا حتى تبتديك بالسوال فاذا بلغت من الجواب
حسب الاستحقاق فلا تزد الا ان يستدعي ذلك منك انظر الى ماهو الطف من التاديب
فاصفه في التعليم وبلغ باوجز لفظ غاية التقويم وليخرج تعليمه مخرج المذاكرة
والمحاورة لا مخرج التعليم والافادة لان لتاخير التعليم خجلة تقصير يحمل السلطان
عنها فان ظهر منهما خطا او زلل في قول او عمل لم يجاهره بالرد وعرض باستدراك زلله
واصلاح خلله حكي ان عبد الملك بن مروان قال للشعبي كم عطاوك قال الفين قال
لحنت. قال لما ترك امير المومنين الاعراب كرهت ان اعرب كلامي عليه ثم ليحذر اتباعه
فيما يجانب الدين وينافي الحق موافقة لرايه ومتابعة لهواه فربما زلت اقدام العلما
في ذلك رغبة او رهبة فضلوا واضلوا وقد روى الحسن البصري قال قال
رسول الله صلى الله عليه لا تزال هذه الامة تحت يد الله وكنفه ما لم تمال قراوها امراوها ولم يزك
صلحاوها فجارها وما لم يمال خيارها اشرارها فاذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم
يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وضربهم الفاقة والفقر
وملا قلوبهم رعبا ومن ادابهم نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة
بالميسور عن كد المطالب فان شبه المكسب اثم وكد الطلب ذل والاجر اجدر
به من الاثم والعز احق به من الذل انشدني بعض اهل الادب لعلي ابن عبد العزيز الجرجاني

يقولون لي فيك انقباض وانما راوا رجلا عن موقف الذل احجما
ارى الناس من داناهم هان عندهم ومن اكرمته عزة النفس اكرما
ولم اقض حق العلم ان كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من في الارض ارضاه منعما
اذا قيل هذا منهل قلت قد ارى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
انهنهها عن بعض ما لا يشينها مخافة اقوال العدى فيم او لما

ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي لاخدم من لاقيت لكن لاخدما
أأشقى به غرسا واجنيه ذلة اذا فاتباع الجهل قد كان احزما
ولو ان العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن اذلوه فهان ودنسوا محياه بالاطماع حتى تجهما

على ان العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم
يكن له همة فيما يجد بدا منه وقد قال بعض البلغا من تفرد بالعلم لم توحشه
خلوه ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوه ومن انسه قراة القران لم توحشه
مفارقة الاخوان وقال بعض الحكما لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم ومن ادابهم
ان يقصدوا وجه الله بتعليم من علموه ويطلبوا ثوابه بارشاد من ارشدوه من غير
ان يعتاضوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا فقد قال الله تعالى ولا تشتروا
باياتي ثمنا قليلا قال ابو العالية لا تاخذوا عليه اجرا وهو مكتوب عندهم في الكتاب
الاول يا ابن ادم علم مجانا كما علمت مجانا وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال اجر
المعلم كاجر الصايم القايم وحسب من هذا اجره ان يلتمس اجرا ومن ادابهم
نصح من علموا والرفق بهم وتسهيل السبيل عليهم وبذل المجهود في رفدهم
ومعونتهم فان ذلك اعظم لاجرهم واسنى لذكرهم وانشر لعلومهم وارسخ لمعلومهم
وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال لعلي بن ابي طالب عليه السلام يا علي لان
يهدي الله بك رجلا خير مما طلعت عليه الشمس ومن ادابهم ان لا يعنفوا متعلما
ولا يحتقروا ناشيا ولا يستصغروا مبتديا فان ذلك ادعى اليهم واعطف عليهم واحث
على الرغبة فيما لديهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال علموا ولا تعنفوا فان
المعلم خير من المعنف وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال وقروا من تتعلمون منه
ووقروا من تعلمونه ومن ادابهم ان لا يمنعوا طالبا ولا ينفروا راغبا ولا يوسيوا

متعلما لما في ذكر من قطع الرغبة فيهم والزهد فيما لديهم واستمرار ذلك مفض الى انقراض
العلم بانقراضهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال الا انبيكم بالفقيه كل الفقيه قالوا
بلى يا رسول الله قال من لم يقنطهم من رحمة الله ولم يومنهم من روح الله ولا يدع القران
رغبة الى ما سواه الا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم
ولا قراة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية والله ولي التوفيق

ادب الدين

ان الله سبحانه وتعالى انما كلف خلقه متعبداته والزمهم مفترضاته وابعث
اليهم رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولا من ضرورة قادته
الى تعبدهم وانما قصد نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عددا من
من نعمه بل النعمة فيما تعبدهم به اعظم لان نفع ما سوى المتعبدات مختص بالدنيا
العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والاخرة وما جمع نفع الدنيا والاخرة
فكان اعظم نعمة واكبر تفضلا وجعل ما تعبدهم به ماخوذا من عقل متبوع
وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع متبوع فيما لا يمنع
منه العقل لان الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل والعقل لا يتبع فيما منع منه الشرع
ولذلك توجه التكليف الى من كمل عقله فارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره
على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته والزمهم حجته وبين لهم شريعته
وتلى عليهم كتابه فيما احله وحرمه واباحه وحظره واستحبه وكرهه وامر به ونهى عنه
وما وعد به من الثواب لمن اطاعه واوعد به من العقاب لمن عصاه فكان وعده
ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة تبعث على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية
والتكليف يجمع امرا بطاعته ونهيا عن معصيته فلذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة
والرهبة وكان ما تخلل كتابه به من قصص الامم السالفة واخبار القرون الخالية

عظة واعتبارا تقوى معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة فكان ذلك من لطف الله بنا
وتفضله علينا فلله الحمد الذي نعمه لا تحصى وشكره لا يودى ثم جعل الى رسوله صلى الله عليه
بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون له مع
تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه قال الله تعالى وانزلنا
اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ثم جعل الى العلما بعد رسوله
استنباط ما نبه على معانيه واشار الى اصوله ليتوصلوا بالاجتهاد فيه الى علم المراد
فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا بثواب اجتهادهم قال الله تعالى يرفع الله
الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات وقال وما يعلم تاويله الا الله والراسخون
في العلم فصار الكتاب اصلا والسنة فرعا واستنباط العلما ايضاحا وكشفا
وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال القران اصل علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان
رسول الله صلى الله عليه والامة المجتمعة حجة على من شذ عنها وكان من رافته بخلقه وتفضله
على عباده ان قدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قد اعده
لهم ناهضين بفعل الطاعات ومجانبة المعاصي قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا
الا وسعها وقال وما جعل عليكم في الدين من حرج وجعل ما كلفهم ثلثة اقسام
قسما امرهم باعتقاده وقسما امرهم بفعله وقسما امرهم بالكف عنه ليكون اختلاف
جهات التكليف ابعث على قبوله واعون على فعله حكمة منه ولطفا وجعل ما
امرهم باعتقاده قسمين قسما اثباتا وقسما نفيا فاما الاثبات فاثبات توحيده
وصفاته وبعثه رسله وتصديق محمد صلى الله عليه فيما جا به واما النفي
نفي الصاحبة والولد والحاجة والقبائح اجمع وهذان القسمان هما اول ما
كلفه العاقل وجعل ما امرهم بفعله ثلثة اقسام قسم على ابدانهم كالصلوة والصيام
وقسما في اموالهم كالزكوات والكفارات وقسما على ابدانهم وفي اموالهم كالحج والجهاد

لتسهيل عليهم فعله وعفى عنهم اداوه ونظرًا منه لهم وتفضلًا منه عليهم وجعل
ما افترضه الكف عنه ثلثه اقسام قسمًا لاحيا نفوسهم وصلاح ابدانهم كنهيه عن القتل
واكل الخبايث والسموم وشرب الخمور الموديه الي فساد العقول وزوالها وقسمًا
لايتلافهم وصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغصب والغلبه والظلم والسرف المفضي الي
القطيعه والتباغض وقسمًا لحفظ انسابهم وتعظيم محارمهم كنهيه عن الزنا ونكاح
ذوات المحارم فكانت نعمته فيما حظر علينا كنعمته فيما اباحه لنا وتفضله فيما كف
عنا كتفضله فيما امرنا به فهل يجد العاقل في دينه مساغًا ان يقصر فيما امر به
وهو نعمه عليه او يري فسحة في ارتكاب ما نهي عنه وهو تفضل عليه وهل يكون
من انعم عليه بنعمة فاهملها مع شدة فاقته اليها الا مذمومًا في العقل مع ما جاء من
وعيد الشرع ثم من لطفه بخلقه وتفضله علي عباده ان جعل لهم من جنس كل فريضه
نفلًا وجعل لها من الثواب قسطًا وندبهم اليه ندبًا وجعل لهم بالحسنه عشرًا ليضاعف
ثواب فاعله ويضع العذاب (العقاب) عن تاركه ومن لطف حكمته ان جعل لكل عبادة حالتين
حالة الكمال وحالة جواز رفقًا منه بخلقه لما سبق في علمه ان فيهم العجل المبادر
والبطي المتثاقل ومن لا صبر له علي ادا الاكمل ليكون ما اخل به من هيات عبادته غير
قادح في فرض ولا مانع من اجر وكان ذلك من نعمه علينا وحسن نظره لنا وكان اول
ما فرض بعد تصديق نبيه عبادات الابدان وقدمها علي ما يتعلق بالاموال لان النفس
علي الاموال اشح وبما يتعلق بالابدان اسمح وذلك الصلوة والصيام فقدم الصلاة علي
الصيام لان الصلاة اسهل فعلًا وايسر عملًا وجعلها مشتمله علي خضوع وابتهال
اليه والخضوع له رهبة منه والابتهال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبي صلي الله عليه
اذا قام احدكم الي الصلاة فانما يناجي ربه فلينظر احدكم بما يناجيه وروي عن
علي بن ابي طالب كرم الله وجهه انه كان كلما دخل عليه وقت الصلاة اصفر مرة

واحمر اخرى فقيل له في ذلك فقال اتتني الامانه التي عرضت علي السماوات والارض والجبال
فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملتها انا ولا ادري اسي فيها ام احسن ثم جعل لها شروطا
لازمه من رفع حدث وازاله نجس ليستديم النظافه للقا ربه والاطهار لاداء فرضه
ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل ليتدبر ما فيه من اوامره ونواهيه ويعتبر اعجاز الفاظه
ومعانيه ثم علقها باوقات راتبه وازمان مترادفه ليكون ترادف ازمانها وتتابع اوقاتها
سببا لاستدامه الخضوع له والابتهال اليه ولا تنقطع الرغبه فيه ولا الرهبه منه واذا
لم تنقطع الرغبه والرهبه استدام الصلاح الخلق بحسب قوة الرغبه والرهبه يكون
استيفاوها علي الكمال والتقصير فيها عن حال الجواز وقد روي عن النبي صلي الله عليه انه قال
الصلوة مكيال فمن وفي وفي له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله تعالي في المطففين
وروي عن النبي صلي الله عليه انه قال من هانت عليه صلاته كانت علي الله اهون ولا نشدت
لبعض صلحا الشعراء

حافظ علي صلوات الخمس كم مصبح وعساه لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة تمحو ذنوب صحيفة الامس
فليفعلن بوجهك الغض البلي فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالي الصيام وقدمه علي زكوات الاموال لتعلق الصيام بالابدان فكان
في ايجابه حث علي رحمة الفقرا واطعامهم وسد جوعاتهم لما قد عاينوه من شدة المجاعه
في صومهم وقد قيل ليوسف عليه السلام لم تجوع وانت علي خزاين الارض فقال اخاف
ان اشبع فانسي الجايع ثم لما في الصوم من قهر النفس واذلالها وكسر الشهوة
المستوليه عليها واشعار النفس بما هي عليه من الحاجة الي يسير الطعام والشراب
والمحتاج الي الشي ذليل به وبهذا احتج الله تعالي علي من اتخذ عيسي وامه الهين من دون الله
جل وعلا فقال ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقه

كانا يأكلان الطعام فجعل حاجتهما الى الطعام نقصا فيهما عن ان يكونا الهين وقد
وصف الحسن البصري رحمه الله في قصصه نقص الانسان بالطعام وغيره فقال
مسكين ابن ادم مكتوم الاجل مكتوم الامل مستور العلل يتكلم بلحم وينظر
بشحم ويسمع بعظم اسير جوعه وصريع شبعه تؤذيه البقه وتنتنه العرقه وتقتله
الشرقه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فانظر الى لطفه بنا
فيما اوجبه من القيام علينا كيف ايقظ العقول له وقد كانت عنه غافله او متغافله
ونفع النفوس به ولم تكن لولاه منتفعه ولا نافعه ثم فرض زكوات الاموال
وقدمها على فرض الحج لان في الحج انفاق المال وسفرا شاقا فكانت النفس الى
الزكوة اسرع اجابة منها الى الحج فكان في ايجابها مواساة للفقرا ومعونة
لذوي الحاجات تكفهم عن البغضا وتمنعهم عن التقاطع وتبعثهم على التواصل لان
الامل وصول والراجي هايب واذا زال الامل وانقطع الرجا واشتدت الحاجات
وقعت البغضا واشتد الحسد فحدث التقاطع بين ارباب الاموال والفقراء
ووقعت العداوه بين ذوي الحاجات والاغنيا حتى يفضي الى التغالب على الاموال والتغرير
بالنفوس مع ما في اداء الزكوة من تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشح
المذموم لان السماحة تبعث على اداء الحقوق والشح يصد عنها وما بعث على اداء
الحقوق فاجدر بها حمدا وما صد عنها فاخلق به ذما وقد روى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال شر ما اعطي العبد شح هالع وجبن خالع فسبحان من دبرنا بلطف
حكمته واخفى عن فطننا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر باخفايها اعظم مما
استوجبه بابدايها ثم فرض الحج فكان اخر فروضه لانه يجمع عملا على بدن وحقا
في مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الابدان وفروض الاموال ليكون استيناسهم
بكل واحد من النوعين ذريعة الى ما جمع النوعين فكان في ايجابه تذكيره

ليوم الحشر في مفارقة المال والاهل وخضوع العزيز والذليل بين يديه واجتماع
المطيع والعاصي في الرهبة منه والرغبة اليه واقلاع اهل المعاصي عما اجترحوه
وندم المذنبين على ما اسلفوه فقل من حج الا واحدث توبة من ذنب واقلاعا
عن معصية ولذلك قال النبي صلى الله عليه من علامة الحجة المبرورة ان يكون صاحبها
بعدها خيرا منها قبلها وهذا صحيح لان الندم على الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة
عنها ملغية لما سلف منها فاذا كف عما كان تقدم عليه انبا عن صحة توبته وصحة التوبة
تقتضي قبول حجة ثم نبه بما يعاني فيه من مشاق السفر المودي اليه على موضع النعمة برفاهية
الاقامة وانس الاوطان ليحنوا على من سلبت عنه النعمة من ابناء السبيل ثم اعلم
بمشاهدة حرمه الذي انشا منه دينه وبعث فيه رسوله ثم بمشاهدة دار الهجرة التي اعز
الله بها اهل طاعته واذل بنصرة نبيه اهل معصيته حتى خضع له عظما المتجبرين وتذلل
به زعما المتكبرين انه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع ولا قوي بعد الضعف الى
حتى طبق الارض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز فاعتبر الهمك الله الشكر
ووفقك للتقوى انعامه عليك فيما كلفك واحسانه اليك فيما تعبدك فقد وكلتك
الى فطرتك ولعلك على بصيرتك وبعد ان كنت لك رايا صدوقا مما شفيقا هل
تجد نهوضا تشكر اذا فعلت بالاول وتقبلت ما طالبك كلا لانه لا يولي نعمة
توجب الشكر الا وصلها قبل شكر ما سلف بنعمة توجب الشكر في المستانف ولذلك
قال الحسن بن علي عليهما السلام نعم الله اكثر من ان تشكر الا ما اعان عليه وذنوب
ابن ادم اكثر من ان تغفر الا ما عفا عنه وانشدت لمنصور ابن اسماعيل الفقيه
المصري رحمة الله عليه

شكر الاله نعمة موجبة لشكره فكيف شكري بره وشكره من بره

واذا كنت عن شكر نعمه عاجزا فكيف بك اذا قصرت فيما اوكل او فرطت فيما كلفك

ونفعه اعود عليك لو فعلته هل تكون لسوابغ نعمه كفورا وبتدابير العقول الا مزجورا
وقد قال الله تعالى يعرفون نعم الله ثم ينكرونها بقولهم انهم ورثوا ذلك
عن ابائهم واكتسبوها بافعالهم وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال يقول الله تعالى يا ابن ادم
ما انصفتني اتحبب اليك بالنعم وتتمقت الي بالمعاصي خيري اليك نازل وشرك الي
صاعد كم من ملك كريم يصعد الي منك بعمل قبيح وقال بعض صلحاء السلف قد
اصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه فلا ندري ايهما نشكر اجميل ما ينشر
ام قبيح ما يستر فحق على من عرف موقع النعمة ان يتقبلها ممتثلا لما كلف منها
وقبولها يكون باداء حقها ثم يشكر الله على ما انعم به من اسبابها فان بنا من الحاجة الى نعمه
اكثر مما كلفنا من نعمه فان عري ادينا من النعم في التكليف تفضل بابتداء النعم من
غير جهة التكليف فلزمت النعمتان ومن لزمته النعمتان فقد اوتي حظ الدنيا
والاخرة وهذا هو السعيد بالاطلاق وان قصرنا في اداء ما كلفنا من نعمه فقصرنا عما لا تكليف
فيه من نعمه فترت النعمتان ومن فترت عنه النعمتان فقد نسي حظ الدنيا والاخرة
فلم يكن له في الحياة حظ ولا في الموت راحة وهذا هو الشقي بالاستحقاق ولن يختار
الشقوة على السعادة ذو لب صحيح ولا عقل سليم وقد قال الله تعالى ليس بامانيكم
ولا اماني اهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به وروى الاعمش عن مسلم قال قال ابو بكر
الصديق يا رسول الله ما اشد هذه الاية من يعمل سوءا يجز به فقال يا ابا بكر ان
المصيبة في الدنيا جزاء واختلف المفسرون في تاويل قوله تعالى سنعذبهم
مرتين فقال بعضهم احد العذابين الفضيحة في الدنيا والثاني عذاب القبر وقال
عبد الرحمن بن زيد احد العذابين مصائبهم في الدنيا في اموالهم واولادهم والثاني عذاب
الاخرة والنار وليس وان نال اهل المعاصي لذة من عيش او ادركوا امنية في دنيا كانت
عليهم نعمة بل قد يكون ذلك استدراجا ونقمة وروى ابن لهيعة عن عقبة ابن مسلم

عن عقبة ابن عامر ان رسول الله صلى الله عليه قال اذا رايت الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤون
على معاصيهم اياه فانما ذلك استدراج منه لهم ثم تلا فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم
ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فاما سائر
المحرمات التي يمنع الشرع منها واستقر التكليف عقلا وسمعا بالنهي عنها فتنقسم
قسمين منها ما يكون النفوس داعية اليها والشهوات باعثة عليها كالسرقة والزنا فزجر عنها
بنوعين من الزجر احدهما حد عاجل يرتدع به الجريء والثاني وعيد اجل يزدجر به
التقي ومنها ما تكون النفوس نافرة عنها والشهوات مصروفة عنها كاكل الخبائث
والمستقذرات وشرب السموم المتلفات فاقتصر الله سبحانه في الزجر عنها بالوعيد
وحده دون الحد لان النفوس مسعدة في الزجر عنها والشهوات مصروفة عن
ركوب الخطر منها ثم اكد الله زواجره بانكار المنكرين لها فاوجب الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر ليكون الامر بالمعروف تاكيدا لاوامره والنهي عن المنكر تاييدا لزواجره
لان النفوس الاشرة قد الهتها الصبوة عن اتباع الاوامر واذهلتها الشهوة عن تذكار
الزواجر فكان انكار المجانسين ازجر لها وتوبيخ المخالطين ابلغ فيها ولذلك
قال النبي صلى الله عليه ما اقر قوم المنكر بين اظهرهم الا عمهم الله بعذاب محتضر
واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال فاعل المنكر من احد امرين احدهما ان يكونوا
احادا متفرقين وافرادا متبددين لم يتحيزوا فيه ولم يتظاهروا عليه وهم
رعية مقهورون واشذاذ مستضعفون ولا اختلاف بين الناس ان امرهم
بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع المكنة وظهور القدرة واجب على من شاهد
ذلك من فاعليه او سمعه من قائليه وانما اختلفوا في وجوب ذلك على منكريه
هل وجب عليهم بالعقل او بالشرع فذهب بعض المتكلمين الى وجوب ذلك بالعقل
لانه لما وجب بالعقل ان يمنع من القبيح وجب ايضا بالعقل ان يمنع غيره لان ذلك

ادعى الى مجانبته وابلغ في مفارقته وقد روى عبد الله ابن المبارك قال قال
رسول الله صلى الله عليه ان قوما ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا فاخذ كل واحد منهم موضعا
فنقر رجل منهم موضعه بفاس فقالوا له ما تصنع قال هو مكاني اصنع به ما شيت فان
اخذوا على يده نجا ونجوا وان لم ياخذوا على يده هلك وهلكوا وذهب اخرون الى وجوب
انكاره بالشرع دون العقل لان العقل لو اوجب النهي عن المنكر ومنع غيره من القبيح لوجب
مثله على الله تعالى ولما جاز ورود الشرع باقرار اهل الذمة على الكفر وترك النكير عليهم
لان واجبات العقول لا يجوز ابطالها بالشرع وفي ورود الشرع بدليل ذلك عن ان
العقل غير موجب لانكاره فاما اذا كان في ترك انكاره مضرة من انكاره ولم يلحقه مضرة
من كفره واقراره لم يجب عليه الانكار لا بالعقل ولا بالشرع اما العقل فلانه يمنع من
اجتلاب المضار التي لا يوازيها نفع واما الشرع فقد روى ابو سعيد الخدري عن النبي
صلى الله عليه انه قال انكر المنكر فان لم تستطع فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك
وذلك اضعف الايمان فان اراد الاقدام على الانكار من لحوق المضرة به فان نظر
فان لم يكن اظهار النكير مما يتعلق باعزاز دين الله او اظهار كلمة الحق حسن منه
النكير مع خشية الاذى والتلف وان لم يجب عليه اذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير
وان استضر او قتل وعلى هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه ان افضل الاعمال كلمة حق عند
سلطان جاير فاما ان كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل ان يتعرض لانكاره
وكذلك لو كان الانكار يزيد المنهي اغراء بفعل المنكر ولجاجا في الاستكثار منه قبح في
العقل انكاره والحال الثانية ان يكون فعل المنكر من جماعة قد تضافرت
عليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه فقد اختلف الناس في وجوب انكاره
على مذاهب شتى فقالت طايفة من اصحاب الحديث واهل الاثار لا يجب انكاره والاولى
بالانسان ان يكون كلفا ممسكا وملازما لبيته وادعا عن منكر ولا مستنكر وقالت

[margin:] ... اظهار النكير مما يتعلق باعزاز دين الله او اظهار كلمة الحق ...

طايفة اخرى ممن يقول بظهور المنتظر لا يجب انكاره ولا التعرض لازالته الا ان يظهر
المنتظر فيتولى انكاره بنفسه ويكون حينيذ اعوانه وقالت طايفة اخرى منهم الاصم
لا يجوز للناس انكاره الا ان يجتمعوا على امام عدل فيجب عليهم الانكار معه وقال
جمهور المتكلمين انكار ذلك واجب عليهم والدفع عنه لازم على شروطه في وجود
اعوان يصلحون له فاما مع فقد الاعوان فعلى الانسان الكف لان الواحد
قد يقتل قبل بلوغ الغرض فيه وذلك قبيح في العقل ان يتعرض له فهذا حكم ما اكد
الله تعالى به اوامره وايد به زواجره من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف
من احوال الامرين به والناهين عنه ثم ليس يخلوا حال الناس فيما امروا به ونهوا
عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي من اربعة احوال فمنهم من يستجيب الى
صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين وروى محمد
ابن عبد الملك المليكي عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه الذنب لا ينسى والبر
لا يبلى والديان لا يموت فكن كما شيت فكما تدين تدان وقيل قديما كل عبد
ما يزدرع ويجزى بما يصنع بل قالوا ازرع يومك حصاد غدك ومنهم من يمتنع من
فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي وهي اخبث احوال المكلفين وشر
صفات المتعدين فهذا يستحق عقاب اللاهي عن فعل ما امر به من طاعاته
وعذاب المجترى على ما اقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن
يحتمي من الطيبات مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار فاخذ
ذلك بعض الشعراء فقال

جسمك قد افنيته بالحمى دهرا من البارد والحار
وكان اولى بك ان تحتمي من المعاصي خيفة النار

وقال ابن ضبارة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعة الله اهون من الصبر على عذاب الله

وقال آخر اصبروا عباد الله على عمل لا غنا بكم عن ثوابه واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه وقيل
للفضيل بن عياض رضي الله عنه فقال لابن ... يرضى عني ولم ارضه ه ومنهم من يسارع
الى فعل الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عذاب المجتري لانه تورط ه
تغلبه الشهوة على الاقدام على المعصيه وان سلم من التقصير في فعل الطاعة ه وقد روي
عن النبي صلى الله عليه انه قال اقلعوا عن المعاصي قبل ان ياخذكم الله فيدعكم هشا بشا الهشت
الكسر والبت القطع ه ولذلك قال بعض العلما افضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه
ولم تزل الشبهه يقينه ه وقال حماد ابن زيد عجبت لمن يحتمي من الاطعمه لمضرتها كيف
لا يجتنب الذنوب لمعرتها ه وقال بعض الصلحا اهل الذنوب مرضى القلوب ه وقيل
للفضيل بن عياض ما اعجب الاشيا فقال قلب عرف الله ثم عصاه وقال بعض الادبا يدل
بالطاعة لعاصي وينسى عظيم المعاصي ه وقال رجل لابن عباس ايما احب اليك رجل
قليل الذنوب قليل العمل او رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس لا اعدل بالسلامة
شيا وقيل لبعض الزهاد ما تقول في صلاة الليل قال خف الله بالنهار ونم بالليل
وسمع بعض الزهاد رجلا يقول لقوم اطاب الله لكم النوم فقال بل اطال الله لكم اليقظه وقيل لابي
هريره ما التقوى قال اخذت في ارض فيها شوك قال نعم فقال كيف كنت تصنع قال كنت اتوقى
قال فتوقى الخطايا وقال عبد الله بن المبارك

اتضمن لي فتى ترك المعاصي ... وارهنه الكفالة بالخلاص
اطاع الله قوم فاستراحوا ... ولم يتجرعوا غصص المعاصي

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عقاب اللاهي
عن دينه المنذر بقلة يقينه ه وروى ابو ادريس الخولاني عن ابي ذر الغفاري عن النبي صلى الله
عليه انه قال كانت صحف موسى كلها عبرا عجبت لمن ايقن بالنار ثم هو يضحك وعجبت لمن ايقن
بالموت ثم هو يفرح وعجبت لمن ايقن بالقدر كيف هو ينصب ه وعجبت لمن راى الدنيا وتقلبها

باهلها ثم يطمئن اليها وعجبت لمن ايقن بالحساب غدا ثم لا يعمل ه وروي عن النبي صلى الله عليه انه
قال اجتهدوا في العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي وهذا واضح المعنى لان
الكف عن المعاصي ترك وهو اسهل وعمل الطاعات فعل وهو اثقل ولذلك لم يبح الله
ارتكاب معصيه بعذر ولا بغير عذر ولانه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه واباح
ترك الاعمال بالاعذار ولان الاعمال قد يعجز المعذور عنه ه وقال بكر بن عبد الله رحمه الله
امرا كان قويا فاعمل بقوته في طاعة الله تعالى وان كان ضعيفا فكف عن معصيه الله وقال
عبد الاعلى ابن عبيد الشامي

العمر ينقص والذنوب تزيد ... وتقال عثرة الفتى فيعود
هل يستطيع جحود ذنب واحد ... رجل جوارحه عليه شهود
والمرء يسال عن سنيه فيشتهي ... تقليلها وعن الممات يحيد

واعلم ان الاعمال الطاعات ومجانبه المعاصي فتين احدهما تكسب الوزر والاخرى توجب
الاجر فاما المكسبه للوزر فالاعجاب بما سلف من عمله وقدم من طاعته لان الاعجاب
به يفضي الى حالتين مذمومتين احداهما ان المعجب بعمله ممتن به والممتن على الله تعالى جاحد
لنعمه وقال ابن عباس اوحى الله تعالى الى نبي من الانبيا اما زهدك في الدنيا فقد
استعجلت به الراحه واما انقطاعك الي فتعززت بي فهذا الذي لك وبقيت انا والثانيه
ان المعجب بعمله مدل به والمدل مجتري والمجتري على الله متعرض وقال مورق العجلي خير
من العجب بالطاعة ان لا ياتي بطاعة ه وقال بعض السلف ضاحك معترف بذنبه خير من
باك مدل على ربه ه وقال نادم على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه واما الموجبه
للاجر فالثقه بالسلف والركون الى ما قدم لان الثقه تؤول الى امرين احدهما
حدث انه الاعلى بما مضى وتقصير فيما يستقبل ومن قصر لم يرج اجرا ولم يود
شكرا والثاني ان الواثق آمن والامن من الله تعالى غير خايف ومن لم يخف الله تعالى

هانت عليه اوامره وسهلت عليه زواجره وقد قال الفضيل بن عياض رهبة المرء من الله
تعالى على قدر علمه بالله وقال مورق العجلي لان ابيت نايما واصبح نادما احب الي من ان ابيت
قايما واصبح ناعما وقالت الحكما ما بينك وبين ان لا يكون فيك خير الا ان ترى فيك خيره
وقيل للرابعه هل عملت عملا قط ترين انه تقبل منك قالت ان كان شي فخوفي من ان يرد علي عملي
وقال ابن السماك انا الله فيما مضى ما اعظم فيه الخطر وانا الله فيما بقي ما اقل منه الحذر وحكي ان
بعض الزهاد وقف على جمع فنادى باعلا صوته يا معشر الاغنيا لكم اقول استكثروا
من الحسنات فان ذنوبكم كثيره ويا معشر الفقرا لكم اقول اقلوا من الذنوب فان
حسناتكم قليله فينبغي احسن الله توفيقك ان لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك
بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك واجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل
فرصة فراغك فليس كل الزمان مستعد ولا ما فات مستدرك وللفراغ زيغ او ندم
وللخلوة ميل او اسف وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الراحة للرجال غفله
وللنسا غلمه وقال بزرجمهر ان يكن الشغل مجهده فان الفراغ مفسده وقد
قال بعض الحكما اياكم والخلوات فانها تفسد المعقول وتعقد المحلول وقال
بعض البلغا لا تمض يومك في غير منفعه ولا تضع مالك في غير صنيعه فالعمر اقصر
من ان ينفد في غير المنافع والمال اقل من ان يصرف في غير الصنايع والعاقل اجل
من ان يفني ايامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينفق امواله فيما لا يحصل له
ثوابه واجره وابلغ من ذلك قول عيسى ابن مريم عليه السلام البر ثلثة المنطق
والنظر والصمت فمن كان منطقه في غير الله فقد لغا ومن كان نظره في غير
اعتبار فقد سها ومن كان صمته في غير فكر فقد لها واعلم ان للانسان فيما كلف
من عباداته ثلثة احوال احدها ان يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زياده عليها
والثانيه ان يقصر فيها والثالثه يزيد عليها فاما الحال الاولى وهو ان ياتي بها على

الكمال من غير ان تقصير فيها ولا زياده تطوع على ذاتها فهي اوسط الاحوال واعدلها
لانه لم يكن فيه تقصير فيذم ولا تكثير فيعجز وقد روى سعيد ابن ابي سعيد
عن ابي هريره ان النبي صلى الله عليه قال سددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا
بالغدوة والروحة وشي من الدلجه وقال ـــــــ الشاعر

عليك باوساط الامور فانها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

واما الحال الثانيه وهو ان يقصر فيها فلا يخلو حال التقصير من اربعة احوال
احدها ان تقصيره لعذر اعجزه عنه او مرض اضعفه عن ادا ما كلف منه فهذا
يخرج عن حكم المقصرين ويلحق باحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما
دخل تحت العجز وقد جا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من عامل كان يعمل
عملا فقطعه عن ذلك العمل مرض الا وكل الله تعالى به من يكتب له ثواب عمله والحال
الثانيه ان يكون تقصيره اغترارا بالمسامحة فيه ورجا العفو عنه فهذا مخدوع له
العقل مغرور بالجهل قد جعل الظن ذخرا والرجا عده فهو كمن قطع سفرا بغير زاد
ظنا بانه سيجده في المفاوز الجدبه فيفضي به الظن الى الهلكه فهلا كان الحذر اغلب
عليه وقد ندب الله تعالى اليه حكي عن اسرايل ابن محمد القاضي قال لقيني مجنون
كان ياوي الخرابات فقال يا اسرايل خف الله خوفا يشغلك عن الرجا فان الرجا
يشغلك عن الخوف وفر الى الله تعالى ولا تفر منه وقيل لمحمد ابن واسع الا
تتكي فقال تلك جلسة الامنين وحكي ان ابا حازم الاعرج اخبر سليمن بن عبد قال
الملك بوعيد الله للمذنبين فقال سليمان فاين رحمة الله قريب من المحسنين
وقال عبد الله ابن عباس ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه بمثل
كتاب كتبه الي علي ابن ابي طالب عليه السلام اما بعد فان الانسان يسره درك ما لم
يكن ليفوته ويسوه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا

لا فان نهارًا وحا ولا تكن ممن يرجو الاخره بغير عمل ويوخر التوبه لطول الامل وكان
قد والسلام وقال محمد الوراق

اخاف على المحسن المتقي وارجو لذي الهفوات المسي
فذلك خوفي على محسن فكيف على الظالم المعتدي
بلى ان ذي الزيغ قد يستفيق ويستانف الزيغ قلب التقي

والحال الثالثه ان يكون تقصيره فيه ليستوفي ما اخل به من بعد فيبدا بالسيه في التقصير قبل الحسنه في الاستيفا اغترارا بالامل في امهال التلافي ما اتلف من تقصيره واخلاله فلا ينتهي به الامل الى غايه ولا يفضي به الى نهايه لان الامل في ثاني حال كهو في اول حال وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال من امل ان يعيش غدا فهو يامل ان يعيش ابدا ولعمري ان هذا صحيح لان لكل يوم غد فاذن يفضي به الامل الى الفوت من غير درك ويوديه الرجا الى الاهمال من غير تلاف فيصير الامل خيبه والرجا ياسا وقد روى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اول صلاح هذه الامه باليقين والزهد وفسادها بالبخل والامل وقال الحسن البصري ما اطال عبد الامل الا اسا العمل وقال رجل لبعض الزهاد بالبصره الك حاجه ببغداذ قال ما احب ان ابسط املي الى ان تذهب الى بغداذ وتجي وقال بعض الحكما الجاهل يعتمد على امله والعاقل يعتمد على عمله وقال بعض البلغا الامل كالسراب غر من راه وخاب من رجاه وقال محمد بن يزداد دخلت على المامون وكان يوميذ وزيره فرايته قايما وبيده رقعه فقال يا محمد قرات ما فيها فقلت هي في يد امير المومنين قال فرمى بها الي فاذا فيها مكتوب

انك في دار لها مده يقبل فيها عمل العامل
اما ترى الموت محيطا بها يقطع فيها امل الامل

تعجل الذنب لما تشتهي وتامل التوبه من قابل
والموت ياتي بعد ذا بغته ما ذا بفعل الحازم العاقل

فلما قراتها قال المامون هذا من احكم شعر قراته وقال ابو حازم الاعرج نحن لا نريد ان نموت حتى نتوب ولا نتوب حتى نموت وقال بعض البلغا الاهمال داية الاهمال
والحالة الرابعة ان يكون تقصيره استثقالا لا للاستيفا وزهدا في التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث فيما بقي فهذا على ثلثة اوجه احدها ان يكون ما اخل به وقصر فيه غير قادح في فرض ولا مانع من اجزا عباده كمن اقتصر من العبادة على فعل واجباتها ومفروضاتها واخل بمسنوناتها وهياتها فهذا فيما نزل الاسا من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عقابا لان ادا الواجب يسقط عنه العقاب واخلاله بالمسنون يمنع من كمال الثواب وقد قال بعض الحكما من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان وقال الشاعر

ويصون ثوبيه ويترك غير ذا لا يصونه
واحق ما صان الفتى ودعى امانته ودينه

والضرب الثاني ان يكون ما اخل به من مفروض عباداته لكن لا يقدح ترك ما بقي فيما مضى كمن اكمل عباده واخل بغيرها فهذا اسوا حالا مما تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العقاب والضرب الثالث ان يكون ما اخل به من مفروض عباداته وهو قادح فيما عمل منها كالعبادة التي يرتبط بعضها ببعض فيكون المقتصر في بعضها تاركا لجميعها فلا يحتسب له بما عمل للاخلال بما بقي وهذه اسوا احوال المقصر ولاحقه باحوال التاركين بل قد تكلف ما لا يسقط فرضا ولا يودي حقا فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في تكلف ما لا يفيد فصار من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا وفي الاخره ثم لعله لا يفطن

لشأنه ولا يفطن لخسرانه قد خسر الدنيا والآخرة ويفطن لليسير من ماله ان وهى واختل
وانشد في بعض اهل العلم

ابني ان من الرجال بهيمة في صورة الرجل السميع المبصر
فطنا بكل مصيبة في ماله فاذا اصيب بدينه لم يشعر

واما الحال الثالثة وهو ان يريد فيما تلف فهذا على ثلثة اقسام احدها ان تكون
الزيادة رؤيا للناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة
ويخدع به العقول الواهية فيتبهرج بالصلحا وليس منهم ويتدلس في الاخيار وهو
ضدهم وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم للمرائي بعمله مثلا فقال المتشبع بما لا يملك كلابس
ثوبي زور يريد بالمتشبع المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس ثوبي زور هو الذي
يلبس ثياب الصلحا ويفعل افعال الصلحا فهو برياية محروم الاجر مذموم الذكر
لانه لم يقصد به وجه الله تعالى فيوجر عليه ولا يخفى رياؤه عن الناس فيحمد به
وقد قال الله سبحانه وتعالى فمن كان يرجوا لقا ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك
بعبادة ربه احدا قال جميع اهل التاويل معنى قوله ولا يشرك بعبادة ربه
احدا اي لا يرائي بعمله احدا فجعل الرياء شركا لانه جعل ما يقصد به وجه
الله تعالى مقصودا به غير الله وقال الحسن البصري في قوله تعالى ولا تجهر
بصلاتك ولا تخافت بها قال ولا تجهر بها ريا ولا تخافت بها حيا وكان سفين
ابن عيينة يتاول قوله تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاى ذي القربى
وينهى عن الفحشا والمنكر والبغي ان العدل استوا السريرة والعلانية
في العمل لله تعالى والاحسان ان يكون سريرته احسن من علانيته والفحشاء
والمنكر ان يكون علانيته احسن من سريرته وكان غيره يقول العدل شهادة
ان لا اله الا الله والاحسان الصبر على امره ونهيه وطاعة الله في سره وجهره

وايتاى ذي القربى صلة الارحام وينهى عن الفحشا يعني الزنا والمنكر القبائح والبغي الكبر والظلم
وليس يخرج الرياء بالاعمال من هذا التاويل ايضا لانه من جملة القبائح وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال اشد الناس عذابا يوم القيامة من يري ان فيه خيرا ولا خير فيه
وقال علي ابن ابي طالب عليه السلام لا تعمل شيا من الخير ريا ولا تتركه حيا وقال بعض البلغا
كل حسنة لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء فقد يفضي
الرياء بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكي ان طاهر ابن الحسين قال لابي عبد الله المروزي منذ كم
صرت الى العراق يا ابا عبد الله فقال دخلت العراق منذ عشرين سنه وانا منذ ثلثين
سنه صايم فقال يا ابا عبد الله سالناك عن مسئلة فاجبتنا عن مسئلتين وحكى الاصمعي
ان اعرابيا صلى واطال والى جانبه قوم فقالوا ما احسن صلاتك فقال وانا مع ذلك صايم شعر

صلى فاعجبني فصام فرابني حث المطي عن المصلي الصيام

فانظر الى هذا الرايع فيما ماذا له حتى يخف عقله وربما ساعد الزمان لظهور رياية
على الاستهزا بنفسه كالذي حكي ان احمقا نظر الى رجل في وجهه سجادة كبيرة
واقفا على باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وانت ها هنا فقال انه ضرب على
غير السكة فهذا من اجوبة الخداع التي يدفع بها مهين الذم وقلما يتهم الناس من
الاشعث بن قيس قوله وقد خفف صلاته مرة فقال له بعض اهل المسجد خففت صلاتك
جدا فقال انه لم يخالطها ريا فخلص من تنقصهم وسلم من تعنيهم بنفي الرياء عن نفسه ورفع
التصنع من صلاته وقد كان الانكار لولا ذلك متوجها عليه واللوم لاحقا به ووقف ابو امام
بعض المساجد فاذا رجل يصلي وهو يبكي فقال انت انت لو كان هذا في بيتك فلم يراه ذلك منه
حسنا لانه اتهمه بالرياء ولعله كان بريا منه فكيف من صار الرياء اغلب صفاته واشهر سماته مع
انه اثم محبوب السعي باطل ولذلك قال عبد الله بن المبارك افضل الزهد اخفاء الزهد وربما
احترز ذو الفضل من نفسه ميلا الى الرياء فبعثه الفضل على هتك ما نازعته النفس

في المراياة به وكان ذلك ابلغ في فضله كالذي حكي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه
اذن يوما على المنبر ثم خرج منه فقال ايها الناس اني قد مثلت بين ان اخافكم في الله وبين ان يخاف
الله تعالى فيكم فكان ان اخاف الله فيكم احب الي الا واني قد فسوق وها انا ذا ارى لا عيد
الا بهم وكان ذلك منه زجرا لنفسه لتكف عن تتابعها الى مثله وقال عمر بن عبد العزيز
لمحمد بن كعب القرظي عظني فقال لا ارضى نفسي لك لاني اجلس بين الفقير والغني فاميل على
الفقير واوسع للغني وله ولان طاعة الله تعالى في العمل لوجهه لا لغيره وحكي ان قوما
ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب فقالوا قد ضللنا فكيف الطريق فقال
ها هنا واومى الى السماء والقسم الثاني ان يفعل الزيادة اقتداء بغيره وهذا قد
يثمره مجالسة الاخيار الافاضل ويحدثه مكاثرة الانقياء الاماثل ولذلك قال النبي صلى الله عليه
المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل فاذا كاثرهم المجالس وطاولهم المؤانس احب ان
يقتدي بهم في افعالهم ويتاسى بهم في اعمالهم ولا يرضى لنفسه ان ينقص عنهم ولا ان
يكون في الخير دونهم فتبعثه المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم
والمكاثرة لهم فيصيروا سببا لسعادته وباعثا على استزادته والعرب تقول لولا
الوئام هلك الانام اي لولا ان الناس يرى بعضهم بعضا فيقتدي بهم في الخير لهلكوا ولذلك قال
بعض البلغاء خير الاخيار صحبة الاخيار ومن شر الاخيار مودة الاشرار وهذا صحيح
لان المصاحبة تاثيرا في اكتساب الاخلاق فتصلح اخلاق المرء بمصاحبة اهل الصلاح وتفسد
بمصاحبة اهل الفساد وقال الشاعر

رأيت صلاح المرء يصلح اهله ويعديهم عند الفساد اذا فسد
يعظم في الدنيا بفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد

وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر الخوارزمي

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد الى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد

والقسم الثالث ان يفعل الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة في الزلفة
بها فهذا من نتائج النفس الزكية ودواعي الرغبة الوافية الدالين على خلوص الدين
وصحة اليقين وذلك افضل اعمال العاملين واعلى منازل العابدين وقد قيل الناس في
الخير اربعة منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا فهو
ردي ومن يتركه حرمانا فهو شقي ثم لما يفعله من الزيادة حالتان احداهما ان يكون مقتصدا
فيها وقادرا على الدوام عليها فهي افضل الحالتين واعلى المنزلتين عليها انقرض اخيار
السلف وتبعهم فيها فضلاء الخلف وقد روت عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه
قال ايها الناس اكلفوا من الاعمال ما تطيقون فان الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل
وخير الاعمال ما ديم عليه والعرب تقول القصد والدوام وانت السابق الجواد
ولان من كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالى لم يكن له مسرة الا في طاعة الله
وقال عبد الله بن المبارك قلت لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا اعصي الله
فيه فهو يوم عيد فانظر الى هذا القول وان لم يكن من مقاصد الطاعة ما ابلغه في
حب الطاعة واحثه على بذل الاستطاعة وخرج بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة
رثة فقيل له اتخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة والناس يتزينون فقال ما
يتزين لله تعالى بمثل طاعته والحالة الثانية ان يستكثر منها استكثار من لا ينهض
بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالمقصر اشبه لان الاستكثار من الزيادة
اما ان يمنع من اداء اللازم فلا يكون الا تقصيرا لانه تطوع بزيادة احدثت نقصا وتنفل
منع فرضا واما ان يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير
اخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهو اذن لقصر المدى قليل اللبث وقليل العمل في
طويل الزمان افضل عند الله من كثير العمل في قصير الزمان لان المستكثر من العمل في الزمان

الكثير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لاهيا او ساهيا والمقلل في الاوقات
الملوم مستيقظ الافكار مستديم التذكار وقد روى ابو صالح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال ان لهذا الامر شرة وللشرة فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن اشير
اليه بالاصابع فلا تعدوه فجعل للاسلام شرة وهو الاقبال في الاستكثار والشرة فترة
وهو الادبار عن الاستكثار فلم يجعل بما انشره من الاستكثار زهرة الزيادة تقصيرا او اخلالا لانه
لا ... في ... واعلم جعل الله العلم حاكما لك وعليك والحق قائدا لك والكلام وان
الدنيا اذا وصلت فتبعات موبقة واذا فارقت ففجعات محرقة وليس لوصلها دوام ولا من
فراقها بد فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تبعاتها وعلى فراقها لتامن من فجعاتها
فقد قيل المؤمن معوض من عمره المنقرض مع ان العمر وان طال قصير والفراغ وان تم يسير
وانشد لعلي بن محمد

اذا كملت للمرء ستون حجة فلم يحظ من ستين الا بسدسها
الم تر ان النصف للليل حاصل وتذهب اوقات المقيل بخمسها
وتاخذ من اوقات الهموم بحصة واوقات اوجاع تميت بمسها
فحاصل ما يبقى له سدس عمره اذا صدقته النفس عن علم حدسها

ورياضة نفسك كذلك تترتب على احوال ثلث وكل حال منها تتشعب ... لتسهيل
ما يليها سبب والحال الاولى ان تصرف حب الدنيا عن قلبك فانها تلهيك عن اخرتك ولا تجعل
سعيك لها فتمنعك حظك منها وتوقى الركون اليها ولا تكن امنا لها فقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التاط قلبه منها بشغل
لا يبلغ عناه وامل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يبلغ مداه وقال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا
لابليس مزرعة واهلها حراث وقال علي بن ابي طالب عليه السلام مثل الدنيا مثل الحية لين مسها
قاتل سمها فاعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما ايقنت من

فراقها وكن احذر ما تكون لها اسر ما تكون بها فان صاحبها كلما اطمان منها الى سرور
اشخصه عنها مكروه وان سكن منها الى ايناس ازاله عنها ايحاش وقال بعض البلغاء الدنيا
لا تصفو لشارب ولا تفي لصاحب ولا تخلو من فتنة ولا تخلي من محنة فاعرض عنها
قبل ان تعرض عنك واستبدل بها قبل ان تستبدل بك فان نعيمها يتنقل واحوالها تتبدل
ولذاتها تفنى وتبعاتها تبقى وقال بعض الحكماء انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق
ولا تنظر اليها نظر العاشق الوامق وقال بعض الشعراء

الا انما الدنيا كاحلام نائم وما خير عيش لا يكون بدائم
تامل اذا ما نلت بالامس لذة فافنيتها هل انت الا كحالم
فمن غافل عنه وليس بغافل ومن نائم عنه وليس بنائم

روى عن النبي صلى الله عليه انه قال لو هوان الدنيا على الله تعالى ان لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده
الا بتركها وروي ... ان الخضر قال لموسى عليهما السلام يا موسى اعرض عن الدنيا
وانبذها وراك فانها ليست لك بدار ولا لك فيها محل قرار وانما جعلت الدنيا للعباد
ليتزودوا منها للمعاد وقال عيسى بن مريم عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا
تعمروها وقال علي عليه السلام يصف الدنيا اولها عنا واخرها فنا حلالها حساب
وحرامها عقاب من صح فيها امن ومن مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن
افتقر فيها حزن من ساعاها فاتته ومن قعد عنها اتته ومن نظر اليها اعمته ومن
نظر بها ابصرته وقال بعض البلغا ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب
وتصل وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصير اقبالها
خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة الزمان
وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك لغدك وقال وهب
ابن منبه مثل الدنيا والاخرة مثل ضرتين ان ارضيت احداهما اسخطت الاخرى

وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل وقال بعض الحكما الدنيا اما نقمة نازلة او نعمة
زايله وقيل في منثور الحكم من الدنيا على الدنيا دليل وقال بعض الشعرا

تمتع من الايام اذ كنت حازما فانك منها بين ناه وآمر
اذا ابقت الدنيا على المرء دينه فما فات من شي فليس بضاير
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة ولا وزن زف من جناح لطاير
فما رضي الدنيا ثوابا للمومن ولا رضي الدنيا جزا لكافر

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الدنيا يومان يوم فرح ويوم هم وكلاهما زايل عنك فدعوا
ما يزول واتعبوا انفسكم في العمل لما لا يزول وقال عيسى بن مريم عليه السلام
لا تنازعوا اهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم اصبتم ولا على دينكم
ابقيتم وقال علي بن ابي طالب عليه السلام لا تكن ممن يقول في الدنيا بقول
الزاهدين ويعمل فيها عمل الراغبين ان اعطي منها لم يشبع وان منع منها لم يقنع
يعجز عن شكر ما اوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي ينهى ولا ينتهي ويامر بما لا ياتي يحب الصالحين
ولا يعمل بعملهم ويبغض الظالمين وهو منهم وقال الحسن البصري الدنيا كلها غم
فما كان منها من سرور فهو ربح وقال بعض البلغا ان الدنيا كثيرة التغيير
سريعة التنكير شديدة المكر دايمة الخديعة فاقطع اسباب الهوى عن قلبك واجعل
ابعد املك بقية يومك وكن كانك ترى ثواب عملك وقال بعض الحكما الدنيا اما مصيبة
موجعة او امنية مفجعة وقال بعض الشعرا

كل دنيا فانها تعقب الخير شرها
هي ام تعق من نسلها من يبرها
كل نفس فانها تبتغي ما يضرها
والمنايا تسوقها والاماني تغرها

واذا استحلت الجنا عقب الحلو مرها
ستوي في ضرعها عبد اربض وحرها

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اجتنبت منها ثلاث خلال احداهن
ان تلقى اشفاق المحب وحذر الواثق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة والثانية
ان يامن الاغترار بملاهيها فيسلم من عادية دواهيها فان اللاهي بها مغرور والمغرور
فيها مذموم والثالثة ان تستريح من تعب السعي لها ونصب الكد
فيها فان من راحت شيا طلبه ومن طلب شيا كد له والمكدود فيها شقي ان ظفر
ومحروم ان خاب وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكعب يا كعب الناس غاديان فغاد
نفسه فمعتقها وموثق نفسه فموبقها وقال عيسى عليه السلام تعملون للدنيا
وانتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للاخرة وانتم لا ترزقون فيها الا بعمل وقال
بعض البلغا من بكر الدنيا انها لا تبقى على حاله ولا تخلو من استحالة تصلح جانبا بافساد
جانب وتسر صاحبا بمساة صاحب فالكون فيها خطر والثقة بها غرر وقال بعض
الحكما الدنيا مجمعة الهم والدهر حسود لا ياتي على شي الا غيره ولمن عاش حاجة
لا تنقضي وقال لما بلغ من زهد الدنيا افضل ما سمت اليه همة نبذها وقال هذا سرور لولا
انه غرور ونعيم لولا انه عديم وملك لولا انه هلك وغنا لولا انه فنا وجسيم لولا انه ذميم
ومحمود لولا انه مفقود وغني لولا انه منى وارتفاع لولا انه اتضاع وعلا لولا انه بلا
وحسن لولا انه حزن وصو يوم لو وثق له بغد وقال بعض الحكما قد ملك الدنيا
غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا الزاهد فيها افلت وقال
ابو العتاهية

هي الدار دار الاذى والقذى ودار الفنا ودار الغير
فلو نلتها بحذافيرها لمت ولم تقض منها الوطر

ايا من يومل طول الحياة وطول الخلود عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب فلا خير في العيش بعد الكبر

روي عن النبي صلي الله عليه انه قال اللهم اني اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يومل احدكم الا غنا مطغيا وفقرا منسيا او مرضا مفسدا او هرما مفندا او الدجال فهو شر غايب ينتظر او الساعه والساعة ادهي وامر ه وحكي ان الله تعالي اوحي الي عيسي بن مريم عليه السلام ان هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينك الدموع وادعني فاني قريب ه وقال عيسي بن مريم عليه السلام اوحي الله تعالي الي الدنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه وقال بعض البلغا ذم من طول املك في قصر عملك فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام فمن عرفها ثم طلبها فقد اخطا الطريق وحرم التوفيق وقال بعض الحكما لا يونسنك اقبال الدنيا عليك من ادبارها عنك ولا دولة لك من ادالة منك وقال اخر ما مضي من الدنيا كان لم يكن وما بقي منها كما قد مضي ه وقيل لزاهد قد خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها فقال اني تيقنت اني اخرج منها كارها فرايت ان ادعها طايعا وقيل لحرقه بنت النعمان ما لك تبكين فقالت رايت لاهلي غضارة ولن تمتلي دار فرحا الا امتلات ترحا ه وقال ابن السماك من جرعته الدنيا حلاوتها بميله اليها جرعته الاخرة مرارتها لتجافيه عنها وقال صاحب كليله ودمنه طالب الدنيا كشارب ما البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا
وكان عمر ابن عبد العزيز يتمثل بهذه الابيات ه

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردي لك لازم
تسر بما يفني وتفرح بالمني كما سر باللذات في النوم حالم
وتشغل فيما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهايم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه لا اراك الله مكروها فقال كانك دعوت علي صاحبك بالموت ان صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد ان يري مكروها فقال ابو العتاهيه

ان الزمان وان الان لاهله لمخاشن ه تخطوا به المنيه كان ما تمن سواكن
ثم الحال الثانيه من احوال ربا منك لها ان تصدق نفسك فيما منحتك من رغايبها وان انالتك من غرايبها فتعلم ان العطيه فيها مرتجعه والمنحه فيها مسترده لعلك ان تبقي عليك ما اختبت من اوزارها وصولها اليك الييك وخسران خرجها عنك فقد روي عن النبي صلي الله عليه انه قال لا تزول قدم ابن ادم حتي يسال عن ثلث شبابه فيما ابلاه وعمره فيما افناه وماله من اين كسبه وفيما انفقه ه وروي عن عيسي بن مريم عليه السلام انه قال في المال ثلث خصال قالوا وما هن يا روح الله قال يكسبه من غير حله قالوا فان كسبه من حله قال الضيعه في غير حقه قالوا فان وضعه في حقه قال يشغله عن عبادة ربه ودخل ابو حازم علي بشر بن مروان فقال له يا ابا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال تنظر ما عندك فلا تضعه الا في حقه وما ليس عندك فلا تاخذه الا بحقه قال ومن يطيق هذا يا ابا حازم قال من اجل ذلك ملئت جهنم من الجنه والناس اجمعين وعيرت اليهود عيسي بن مريم عليه السلام بالفقر فقال من الغني اوتيتم ه ودخل قوم علي منزل عابد فلم يجدوا شيا يقعدون عليه فقال لهم لو كانت دار مقام لاتخذنا لها اثاثا وقيل لبعض الزهاد الا توصي فقال بما ذا اوصي والله ما لنا شي ولا لنا عند احد شي ولا لاحد عندنا شي انظر الي هذه الراحه كيف تعجلتها والي السلامة كيف صار اليها ولا كان الفقر ملك ليس فيه محاسبه وقيل لعيسي بن مريم عليه السلام الا تتزوج فقال انما يتزوج من يحب التكثر في دار البقا وقيل لو دعوت ان يرزقك الله حمارا فقال انا اكرم علي الله تعالي من ان يجعلني خادم حمار وقيل لابي حازم فما لك قال شيان الرضا عن الله والغني عن الناس ه وقيل له انك لمسكين فقال كيف لا اكون مسكينا ومولاي له ما في السماوات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثري ه وقال بعض الحكما رب مغبوط بمسرة هي داوه ومرحوم من سقم هي شفاوه وقال بعض الادبا الناس اشتات ولكل جمع شتات ه وقال بعض البلغا الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين بنور الدين فمن صح يقينه زهد في الثرا ومن قوي دينه ايقن بالجزا فلا تغرنك صحة

٥٠

نفسك وسلامة امسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة وقال بعض الشعرا

ذب مغرور يغاث به علامته كف مغترسه
وكذاك الدهر مأتمه اقرب الاشيا من عرسه

فاذا رضيت انفسكم من هذه الحال بما وصفت اعتقدت منها ثلاث خلال احداهن نفع
نفسك وقد استسلمت الى الفكر والنظر لها وقد اعتمد تحليلك فان عاش نفسه مغبون والمغرور
عنها ما فوت ه والثانية الزهد فيما ليس لك لتكفى بكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه والثالثة
انتهاز الفرصة فيما لك ان تضعه في حقه وان تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك
وزرا فقد روي عن النبي صلى الله عليه ان رجلا قال يا رسول الله اني اكره الموت قال الك مال قال نعم
قال قدم مالك فان قلب كل امري عند ماله ه وقالت عايشة رضي الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا
بها فقلت يا رسول الله ما بقي منها الا كتفها فقال كلها بقي الا كتفها وحكي ان عبد الله بن عتبة مطلب
الله بن عتبة بن مسعود باع دارا بثمنين الف درهم فقيل له لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا
فقال انا اجعل هذا المال ذخرا لي عند الله واجعل الله ذخرا لولدي وتصدق بها ه وعوتب
سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة فقال لو ان رجلا اراد ان ينتقل من دار الى دار ه
هل كان يبقي في الاولى شيا ه وقال سليمن بن عبد الملك لابي حازم ما بالنا نكره الموت فقال بقي
لانكم اخربتم اخرتكم وعمرتم دنياكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب ه وقيل
لعبد الله بن عمر توفي زيد بن حارثة وترك مائة الف درهم فقال لكنها لا تتركه ه وقال الحسن
البصري ما انعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان فان الله تعالى قال هذا
عطاونا فامنن او امسك بغير حساب ه وقال ابو حازم ان عوفينا من شر ما اعطينا لم
يضرنا فقد ما زوي عنا ه وقال بعض السلف قدموا كلا يكون لكم ولا تخلفوا كلا
يكون عليكم ه وقال ابرهيم النخعي القوم السوال يدقون ابوابكم يقولون توجهون
الى الاخرة شيا ه وقال سعيد بن المسيب من رضي بالله من شيم فانما الكت ان نهضت

اليه فقلت يا ابا العتاهية ادع لي فقال الله فيما يعني وزهدك فيما يفنا ووهب لك اليقين
الذي لا يسكن النفوس الا اليه ولا يعول في الدين الا عليه ه ولما ثقل عبد الملك بن مروان
راى غسالا يلوي بيده ثوبا فقال وددت اني كنت غسالا لا اعيش الا بما اكتسبه يوما فيوما
فبلغ ذلك ابا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عنده ما هم
فيه ه وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال يقول ابن ادم مالي مالي ما لك من مالك الا ما اكلت فافنيت
او لبست فابليت واعطيت فامضيت وقال خالد بن صفوان بت ليلتي اتمنى فكنت البحر
الاخضر بالذهب الاحمر فاذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران ه وقال مورق
العجلي يا ابن ادم في كل يوم تؤتى رزقك وانت تحزن وينقص عمرك وانت لا تحزن تطلب
ما يطغيك وعندك ما يكفيك ه وقال ابو حازم انما بيني وبين الملوك يوم واحد اما امس
فلا يجدون لذته وانا وهم من غد على وجل وانما هو اليوم فما عسى ان يكون وقال بعض
السلف تعز عن الشي اذا منعته لقلة ما يصحبك اذا اعطيته ه وقال بعض الحكما
من قل نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الاخرة ه وقال اخر ترك التلبس بالدنيا قبل
التشبث بها اهون من رفضها بعد ملابستها ه وقال اخر ليكن طلبك للدنيا اضطرارا
وفكرتك في الامور اعتبارا وسعيك لمعادك ابتدارا ه وقال اخر الزاهد لا يطلب المفقود
حتى يفقد الموجود وقال اخر من امن بالاخرة لم يحرص على الدنيا ومن ايقن بالمجازاة لم يؤثر
على الحسنى ه وقال اخر من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر
وقال ابو العتاهية

ارى الدنيا لمن هي في يديه عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شي فدعه وخذ ما انت محتاج اليه

وحكى الاصمعي قال دخلت على الرشيد يوما وهو ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خده

فلما امن قال ارايت ما كان بيني قلت نعم يا امير المومنين قال اما انه لو كان امر الدنيا ما رايت هذا ثم
رمى بالقرطاس فاذا فيه شعر ابي العتاهيه

هل انت معتبر بمن خربت غداة غد منا دساكره
ومن خلت منه اسرته وتعطلت منه منابره
اين الملوك وابن غيرهم صاروا مصيرا انت صايره
يا موثر الدنيا للذته والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك ان تنال فان الموت اخره

فقال الرشيد والله لكاني المخاطب بهذا الشعر فلم يلبث بعد ذلك الا يسيرا حتى مات ثم الحالة الثانية من احوال زاجرك لها ان تكشف لنفسك حال اجلك وتصرف فاعلي غرور املك حتى لا يطيل لك الامل اجلا قصيرا ولا ينسيك موتا ولا نشورا وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال في بعض خطبه ايها الناس ان الايام تطوي والاعمار تفنى والابدان في الثرى تبلى والليل والنهار يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما الهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات وقال الشاعر كم من مستقبل يوما وليس مستكمله ومنتظر غدا وليس من اجله ولو رايتم الاجل ومسيره لابغضتم الامل وغروره وقال رجل من الانصار للنبي صلى الله عليه من اكيس الناس قال اكثرهم للموت ذكرا واشدهم استعدادا له اوليك الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الاخرة وقال عيسى بن مريم عليه السلام كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون وقال علي بن ابي طالب عليه السلام ايها الناس اتقوا الله الذي ان قلتم سمع وان اضمرتم علم وبادروا الموت الذي ان هربتم ادرككم وان اقمتم اخذكم وقال العلا بن المسيب ليس قبل الموت شي الا والموت اشد منه وليس بعد الموت شي الا الموت ايسر منه وقال بعض الحكما ان للباقي بالفاني معتبرا

وللاخر بالاول مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع وقال بعض الحكما انقاد الى فنا وفاتك الى بقا فخذ من فنايك الذي لا يبقى لبقايك الذي لا يفنى وقال بعض الادبا اي عيش يطيب وليس للموت طبيب وقال بعض البلغا كل امرء يجري من عمره الى غاية ينتهي اليها مدة اجله وتنطوي عليه صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بامسك وكف عن سياتك وزد في حسناتك قبل ان تستوفي مدة الاجل وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل وقيل في منثور الحكم من لم يتعرض للنوايب تعرضت له وقال ابو العتاهيه

مالي المقابر لا تجيب اذا دعاهن الكييب
حفر مسققة عليهن الجنادل والكثيب
فيهن ولدان واطفال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن نفسي بفرقته تطيب
غادرته في بعضهن مجدلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وانما عهدي برويته قريب

وعظ النبي صلى الله عليه رجلا فقال له اقلل من الدنيا تعش حرا واقلل من الذنب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فانما العرق دساس وقال الرشيد لابن السماك عظني واوجز قال اعلم انك اول خليفة يموت وعزا اعرابي عن ابن له صغير فقال له الحمد لله الذي نجاه مما هاهنا من الكدر وخلصه مما بين يديه من الخطر وقال بعض السلف من عمل للاخرة احرزها والدنيا ومن اثر الدنيا حرمها والاخرة وقال بعض الصلحا استغنم تنفس الاجل وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك في اجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود وقال بعض الحكما الطبيب معذور اذا لم يدفع المحذور وقال بعض البلغا اعمل عمل

الى عمل فان حادي الموت يحدو كل يوم لمن يعيد وكل. وروي عن علي ابن ابي طالب عليه السلام انه قال بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم

غر جهولا امل يموت من جا اجله ... ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله

وما بقا اخر الا قد غاب عنه اوله ... والمرء لا يصحبه في القبر الا عمله

وقال ابو العتاهيه

لا تامن الموت في طرف ولا نفس ... ولو تمنعت بالحجاب والحرس

واعلم بان سهام الموت قاصدة ... لكل مدرع فينا ومترس

ترجو النجاه ولا تسلك مسالكها ... ان السفينه لا تجري على اليبس

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها بثلث خلال احداهن ان تكفي تسويف امل يرد بك وتسويل محال يوذيك فان تسويف الامل غرر وتسويل المحال اغراره والثانيه ان تستيقظ لعمل اخرتك وتغتنم بقية اجلك بخير عملك فان من قصر امله واستقبل اجله حسن عمله. والثالثه ان يهون عليك نزول ما ليس عنه محيص ويسهل عليك حلول ما ليس الى دفعه سبيل فان من تحقق امرا توطا لحلوله وهان عليه عند نزوله. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم لابي ذر نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله ربك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابي ذر عظني فقال ارض بالقوت وخف الفوت واجعل صومك الدنيا وفطرك الموت وقال عمر بن عبد العزيز ما رايت يقينا لا شك فيه اشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلين كنا مقرين انا لحمقى ولين كنا جاحدين انا لهلكى وقال الحسن البصري نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك ان احسنت اليه ارتحل بحمدك وان اسات اليه ارتحل بذمك وكذلك ليلتك. وقال الجاحظ في كتاب البيان وجد مكتوبا في حجر ابن ادم انك لو رايت يسير ما بقي من اجلك لزهدت في طويل ما ترجو من املك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت

من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت قدمك واسلمك اهلك وحشمك وتبرا منك القريب وانصرف عنك الحبيب. ولما حضر بشر بن منصور الموت فرح فقيل له اتفرح بالموت فقال اتجعلون قدومي على خالق كنت ارجوه كمقامي مع مخلوق اخافه. وقيل لابي بكر رضي الله عنه في مرضه الذي مات فيه لو ارسلت الى الطبيب قال قد راني قالوا فما قال لك قال اني فعال لما اريد. وقيل للربيع ابن خثيم وقد اعتل ندعو لك بالطبيب فقال قد اردت ذلك فذكرت عادا وثمودا واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وعلمت انه كان فيهم الادوا والمداوي فهلكوا جميعا. وقيل لانوشروان متى يكون عيش الدنيا الذ فقال اذا كان الذي ينبغي ان يعمله في حياته معمولا. وقال بعض الحكما من ذكر المنيه نسي الامنيه. وقال بعض الادبا عن الموت تسل فهو كريشة تسل. وقال بعض البلغا الامل حجاب الاجل. وانشد بعض الادب ما ذكر انه لعلي عليه السلام



فلو كنا اذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حي

ولكنا اذا متنا بعثنا ... ونسال كلنا عن كل شي

وقال بعض الشعرا

الا انما الدنيا مقيل لراكب ... قضى وطرا من منزل ثم هجرا

فراح ولا يدري على ما قدومه ... الا انما قدمت كان موقرا

روى سعيد بن مسعود ان ابا الدردا قال يا رسول الله اوصني فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكسب طيبا واعمل صالحا وسل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى. وكتب الربيع ابن خثيم الى اخ له قدم جهازك وافرغ من زادك وكن وصي نفسك والسلام. وقال بعض السلف اصاب المنيا من حظ دها واصابت الدنيا منهم. ومر محمد بن واسع بقوم فقيل له هولاي زهاد فقال وما قدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها. وقال

بعض الحكما السعيد من اعتبر بامسه واستظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره وبخل
على نفسه ٥ وقال بعض البلغا لا تبت عن غير وصيه وان كنت من جسمك في صحه ومن
عمرك في فسحة فان الدهر خاين وكل ما هو ات كاين وقال بعض الشعرا

من كان يعلم ان الموت مدركه والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وانه بين جنات ستبهجه يوم القيامة او نار ستنضجه
وكل شي سوي التقوي به سمج وما اقام عليه منه اسمجه
تري الذي اتخذ الدنيا له وطنا لم يدر ان المنايا سوف تزعجه

روي جابر عن ابو جعفر عن محمد بن علي عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه انه قال في
بعض خطبه ايها الناس ان لكم نهاية فانتهوا الي نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم
وان المومن بين مخافتين اجل قد مضي لا يدري ما الله صانع فيه واجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه
فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لاخرته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت
لكم وانكم خلقتم للاخرة فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا
دار الا الجنه او النار ٥ وقال الحسن البصري اليوم اجل والبوم عمل فاخذ ابو العتاهيه
هذا المعني فنظمه شعرا فقال

النفس

على النفوس بالقنوع والا طلبت منك فوق ما يكفيها
ليس فيما مضي ولا في الذي لم يات من لذة لمستحليها
انما انت طول عمرك ما عمرت في الساعة التي انت فيها

وقيل لزاهد ما بالك تمشي على عصا ولست بكبير ولا مريض قال لاعلم اني مسافر وانها دار
قلعة وان العصا من الة السفر فاخذه بعض الشعرا فقال

حملت العصا لا الضعف اوجب حملها علي ولا اني تحنيت من كبر
ولكنني الزمت نفسي حملها لاعلمها ان المقيم على سفر ٥

وقال بعض المتصوفه الدنيا ساعة فاجعلها طاعة ٥ وقال ذو القرنين وقعنا في الدنيا
جاهلين وعشنا فيها غافلين واخرجنا منها كارهين ٥ وقال عبد الحميد لامير المؤمنين عمر
وقيل في بعض المواعظ عجب لمن خاف العقاب كيف لا يكف وعجب لمن يرجو
الثواب كيف لا يعمل ٥ وقال بعض الحكما المتقي ميت وان كان في دار الحياة والمحسن
حي وان كان في دار الاموات وكل بالاثر في يومه او غده ٥ وقال بعض السلف ٥
الله المستعان على السنه تصف وقلوب تعرف واعمال تخالف وقال اخر ان الليل والنهار
يعملان فيك فاعمل فيهما ٥ وقال اخر اعملوا لاخرتكم في هذه الايام التي تسير كانها تطير
وقال اخر الموت قصر الغني من دنياك لاخراك ٥ وقال اخر عباد الله الحذر الحذر فوالله
لقد ستر حتي كانه قد غفر وامهل حتي كانه قد اهمل ٥ وقال اخر الايام صحايف اعمالكم
فخلدوها اجمل افعالكم ٥ وقيل في منثور الحكم اقبل نصح الشيب وان عجل ٥ وقيل
ما طلعت شمس الا وعظت بامس وقال محمد بن بشير

مضي امسك الادني شهيدا معدلا ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساة فثن باحسان وانت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الي غد لعل غدا ياتي وانت فقيد

روي ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه انه قال ما رايت مثل الجنه نام طالبها ولا مثل النار نام هاربها ٥

باطن

وقال عيسى بن مريم عليه السلام ان اوليا الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا
الي الدنيا حين نظر الناس الي ظاهرها والي اجل الدنيا حين نظر الناس الي عاجلها فاماتوا
منها ما خشوا ان يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا انه سيتركهم وقال عمر ابن الخطاب
رضي الله عنه الناس طالبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره فانه ربما ادرك منها الذي
يطلب منها فهلك بما اصاب منها وطالب يطلب الاخرة فاذا رايتم طالب الاخرة فنافسوه ودخل
ابو الدردا الشام فقال يا اهل الشام اسمعوا قول اخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال ما لي اراكم

يبنون ما لا يسكنون ويجمعون ما لا ياكلون ان الذين كانوا من قبلكم بنوا شديدا واملوا بعيدا
وجمعوا كثيرا فاصبح املهم غرورا وجمعهم بورا ومساكنهم قبورا ۝ وقال ابو حازم ان الدنيا
غرت اقواما فعملوا فيها بغير الحق ففاجاهم الموت فخلفوا اموالهم لمن لا يحمدهم وصاروا الى من
لا يعذرهم وقد خلفنا بعدهم فينبغي لنا ان ننظر الذي كرهناه منهم فنجتنبه والذي غبطناهم
به فنستعمله ۝ ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال باب حديد وموت عتيد ونزع شديد شرق
وسفر بعيد ۝ ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقال ما هذا مسكين منه
بطل جنبه ومر به اخر فاعطاه جبه فقال الحمد لله ان سعيكم لشتى ۝ وقال بعض الحكما
ما انصف من نفسه من ايقن بالحشر والحساب وزهد في الاجر والثواب ۝ وقال اخر
بطول الامل تقسو القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب ۝ وقال اخر اياك والمنى فانها
بضايع النوكى وتثبط عن الاخرة والاولى وقال اخر قصر املك فان العمر قصير واحسن سيرتك
فان البر يسير ۝ وقال عبد الله بن المعتز

نسير الى الاجال في كل ساعة — واياما تطوى وهن مراحل
ولم نر مثل الموت حقا كانه — اذا ما تخطته الاماني باطل
وما اقبح التفريط في زمن الصبى — فكيف به والشيب في الراس نازل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى — فعمرك ايام تعد قلايل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

فاعمل على مهل فانك ميت — واكدح لنفسك ايها الانسان
فكانما قد كان لم يك اذ مضى — وكانما هو كاين قد كانا

ونظر سليمن بن عبد الملك يوما في المراة فقال انا الملك الشاب فقالت له جاريه

انت نعم المتاع لو كنت تبقى — غير ان لا بقا للانسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب — كان في الناس غير انك فان

روى عبد العزيز ابن عبد الصمد عن ابان عن الحسن قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
على ناقته الجدعا فقال ايها الناس كان الموت فيها على غيرنا كتب وكان الحق فيها على غيرنا وجب
وكان الذين نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبويهم اجداثهم وناكل تراثهم
كانا مخلدون من بعدهم قد نسينا كل واعظة وامنا كل جايحة طوبى لمن شغله عيبه عن
عيب غيره وانفق من مال اكتسبه من غير معصيه ورحم اهل الذل والمسكنه وخالط اهل
الفقه والحكمة طوبى لمن ادب نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته ولم يعدها الى
الاحباد بدعه ۝ وروى عن النبي صلى الله عليه انه قال زوروا القبور تذكروا بها الاخرة وغسلوا الموتى
فان معالجة الاموات الخاوية موعظة بليغة ۝ وحفر الربيع ابن خثيم في داره قبرا
فكان اذا وجد من قلبه قسوة جا فاضطجع في القبر فمكث فيه ما شا الله ثم يقول رب
ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه فيقول قد ارجعتك فجد فيمكث
على ذلك ما شا الله ۝ وقال ابو محرز الطفاوي كفتك القبور مواعظ الامم السالفه وقيل
لبعض الزهاد ما ابلغ العظات قال النظر الى محلة الاموات فاخذه ابو العتاهيه فقال

وعظتك اجداث صمت — ونعتك ازمنة خفت
وتكلمت عن اوجه تبلى — وعن صور سبت
وارتك قبرك في الحياة — وانت حي لم تمت
يا شامتا بمصيبتي — ان المنية لم تفت
ولربما انقلب الشمات — فحل بالقوم الشمت

ووجد مكتوبا على قبر قبرنا من قبرنا فقبرنا للناظرين عبرة ۝ وعلى اخر من امل البقا وقد
راى مصارعنا فهو مغرور ۝ وقيل في منثور الحكم ما اكثر من يعرف الحق ولا يطيعه
وقال بعض الحكما من لم يمت لم يفته ۝ وقال بعض العلما الناس كل ميت عظمه بماله
ودينه باله وقال بعض العلما من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ بقول احد ۝ وقال بعض

البلغا ما انقضت ساعة من امسك الا ببضعة من نفسك فاخذه ابو العتاهيه فقال

ارجع الدهر فاعلم غدا فانظر بما ينقضي مجي غده

ما ارتد طرف امري بلذته الا وشي يموت من جسده

ولما مات الاسكندر قال بعض الحكما كان الملك امس انطق منه اليوم وهو اليوم اوعظ منه امس فاخذ هذا المعني ابو العتاهيه فقال

كفى حزنا بدفنك ثم اني نفضت تراب قبرك من يديا

وكانت في حياتك لي عظات فانت اليوم اوعظ منك حيا

وقال بعض الحكما لو ان للخطايا ريح لا افتضح الناس ولم يتجالسوا فاخذ هذا المعني ابو العتاهيه فقال

احسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح

فاذا المستور منا بين ثوبيه فضوح

وهذا كله ماخوذ من قول النبي صلي الله عليه وسلم لو تكاشفتم ما تدافنتم وكتب رجل الي ابو العتاهيه

يا ابا اسحق اني واثق منك بودك

فاعني يابي انت علي غي برشدك

فاجابه ابو العتاهيه

اطع الله بجهدك راغبا او دون جهدك

اعط مولاك الذي تطلب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكما من سره بنوه ساته نفسه فاخذ هذا المعني ابو العتاهيه فقال

ابن ذي الابن كلما زاد منه مسرع زاد في فنا ابيه

ما بقا الاب الملح عليه بدبيب البلي شباب بنيه

وفي معناه ما حكي عن زر بن حبيش انه عاش مايه وعشرين سنة فلما حضرته الوفاة انشا يقول

اذا الرجال ولدت اولادها واضطربت من كبر اجسادها

وجعلت اسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

وكتب رجل الي صالح بن عبد القدوس

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار

فاجابه صالح

الدار جنات عدن ان عملت بما يرضي الاله وان خالفت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك ماذا انت مختار

باب ادب الدنيا

ان الله تعالي بلطف قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبر وبديع ما قدر ان خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنا منفردا وبالقدرة مختصا حتي يشعرنا بقدرته انه خالق ويعلمنا بغناه انه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقر بنقصنا عجزا وحاجة ثم جعل الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان لان من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والانسان مطبوع علي الافتقار الي جنسه في الاستعانه صفة لازمة لطبعه وخلقة قايمة في جوهره ولذلك قال سبحانه وخلق الانسان ضعيفا يعني ضعيفا عن الصبر عما هو اليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الانسان اكثر حاجة من جميع الحيوان كان اظهر عجزا لان الحاجة الي الشي عجز وافتقار اليه والمفتقر الي الشي عاجز به وقد قال بعض الحكما المتقدمين استغناك عن الشي خير من استغنايك به وانما خص الله سبحانه الانسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفا به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعان من طغيان الغني وبغي القدرة لان الطغيان

مركوز في طبعه اذا استغنى والبغي مستول عليه اذا قدر وقد انبا الله تعالى بذلك عنه
فقال تعالى ان الانسان ليطغى ان راه استغنى ثم لم يكن اقوى الامور شاهدا على نقصه
وانقياده الى عجزه وانشد في بعض اهل الادب لابن الرومي

اعيرتني بالنقص والنقص شامل ... ومن ذا الذي يعطي الكمال فيكمل
واشهد اني بنقص غرائزي اذا انتسبني ... فربما كثيرا تقللوا
تفاضل هذا الخلق الحجى فيا اي هذين انت فتفضل ... بالعقل
وذلك شيء اتى الكمال لابن ادم لخالقه ... والله ما شا يفعل

ولما خلق الله الانسان مائل الحاجة ظاهر العجز لنيل حاجته ولدفع عجزه حيلة دله عليها بالعقل وارشده اليها بالفطنة قال الله تعالى والذي قدر فهدى قال مجاهد قدر احوال خلقه فهدى الى سبيل الخير والشر وقال ابن مسعود في قوله تعالى وهديناه النجدين يعني الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالا على اسبابه ما تدعو الحاجة اليه جعل الله تعالى الادراك والطلب موقوفا على ما قسم وقدر كي لا يعتمدوا في الارزاق على عقولهم وفي العجز على فطنتهم ليدوم له الرغبة والرهبة ويظهر منه الغنى والقدرة وربما عزب هذا المعنى عمن ساء ظنه بخالقه حتى صار سببا لضلاله كما قال بعض الشعراء

سبحان من انزل الايام منزلها ... وصير الناس مرفوضا ومرموقا
فعاقل فطن اعيت مذاهبه ... وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
ذاك الذي ترك الالباب حائرة ... وصير العاقل النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل حتى صح نظره لعلم من علل المصالح ما صار بها صديقا لا زنديقا لان من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها ما هو مغيب حكمة استاثر الله بها ولذلك قال النبي صلى الله عليه حسن الظن بالله من عبادة الله ثم ان الله

تعالى جعل اسباب حاجاته وحيل عجزه في الدنيا التي جعلها دار تكليف وعمل وجعل الاخرة دار قرار وجزاء فلزم لذلك ان يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لانه لا غنى به عن التزود منها لاخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته وليس في هذا القول نقض لما ذكرنا قبل من ترك فضولها وزجر النفس عن الرغبة فيها بل فيها الملوم ما التبعض وطلبها مذموم والرغبة انما تختص بما زاد على قدر الحاجة والفضول انما يتطرق الى ما زاد على قدر الكفاية وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب قال اهل التاويل يعني فاذا فرغت من امر دنياك فانصب في عبادة ربك وليس في ذلك القول منه ترغيبا للنبي صلى الله عليه فيها ولكنه ندبه الى اخذ البلغة ودل على هذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه ليس خيركم الذي ترك الدنيا للاخرة ولا الاخرة للدنيا ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الاخرة وذم رجل الدنيا عند علي بن ابي طالب عليه السلام فقال علي عليه السلام الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها وحكي مقاتل ان ابرهيم الخليل عليه السلام قال يا رب حتى متى اتردد في طلب الدنيا فقيل له امسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا وقال سفين الثوري مكتوب في التوراة اذا كان في البيت بر فتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن ادم حرك يدك نسبب لك رزقك وقال بعض الحكما ليس من الرغبة في الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها وقال بعض الادبا ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن وقال محمود الوراق

لا تتبع الدنيا وايامها ... ذما وان دارت بك الدائرة
من شرف الدنيا ومن فضلها ... ان بها تستدرك الاخرة

واذ قد لزم بما بيناه النظر في امور الدنيا فواجب سبر احوالها والكشف عن جهة انتظامها واختلالها ليعلم اسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها لتنتفي عن اهلها

خشية الحيرة وتنجلي لهم أسباب الخيرة فيقصدوا الأمور من أبوابها ويعتمدوا إصلاح قواعدها
وأسبابها فصل اعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين أولهما ما ينتظم به أمور جملتها والثاني ما يصلح
به حال كل واحد من أهلها فهما شيئان لا صلاح لأحدهما إلا بصاحبه لأن من صلحت حاله مع
فساد الدنيا واختلال أمورها فلن يعدم أن يتعدى إليه فسادها ويقدح فيه اختلالها
لأنه منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا وانتظام أمورها لم يجد
لصلاحها لذة ولا لاستقامتها أثرا لأن الإنسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح إلا إذا
صلحت له ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه لأن نفسه أخص وحاله أمس فصار
نظره إلى ما يخصه مصروفا وفكره على ما يمسه موقوفا واعلم أن الدنيا لم تكن قط لجميع
أهلها مسعدة ولا عن كافة ذويها معرضة لأن إعراضها عن جميعهم عطب وإسعادها
لكافتهم فساد لائتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون
فإذا تساوى جميعهم لم يجد أحدهم إلى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم من الحاجة والعجز
ما وصفنا فيذهبوا حينئذ ضيعة ويهلكوا عجزا وإذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين
بالمعونة متواصلين بالحاجة لأن ذا الحاجة وصول والمحتاج إليه موصول وقد
قال الله تعالى ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم يعني للاختلاف
بالغنى والفقر وقال الله تعالى والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فإن الدنيا
إذا صلحت كان إسعادها موفورا وإعراضها ميسورا لأنها إذا منحت هنت
وأودعت وإذا استردت رفقت وأبقت وإذا فسدت الدنيا كان
إسعادها مكرا وإعراضها غدرا لأنها إذا منحت كدرت وأتعبت وإذا استردت
استأصلت وأجحفت ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لسرائر أهلها لوفور أماناتهم
وظهور دياناتهم وفسادها مفسد لسرائر أهلها لقلة أماناتهم وضعف دياناتهم
وقد وجد ذلك في مشاهد الحال تجربة وعرفا كما يقتضيه دليل الحال تعليلا وكشفا

فلا شيء أنفع من صلاحها كما أنه لا شيء أضر من فسادها لأن ما به يقوى ديانات الناس
ويتوفر أماناتهم فلا شيء أحق به نفعا كما أن ما به تضعف دياناتهم ويذهب أماناتهم
فلا شيء أجدر به ضررا وأنشدت لأبي بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم قد الحذا على مثاله
ورجال دهرك مثل دهرك في تقلبه وحاله
وكذا إذا فسد الزمان جرى الفساد على رجاله

وإذ قد بلغنا القول إلى ذلك فسنبدأ بذكر ما تصلح به الدنيا ثم نتلوه بوصف ما
يصلح به حال الإنسان فيها اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة
وأمورها ملتئمة ستة أشياء هي قواعدها وإن تفرعت وهي دين متبع وسلطان
قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دار وأمل فسيح فأما القاعدة الأولى
فهي الدين المتبع فلأنه يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن إرادتها حتى يصير
قاهرا للسرائر ورقيبا على النفوس في خلواتها نصوحا لها في ملماتها وهذه أمور لا تصل
بغير الدين إليها ولا يصلح الناس إلا عليها فكان الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها
وأجدى الأمور نفعا في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه منذ فطرهم
عقلاء من تكليف شرعي واعتقاد ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآراء
ويستسلمون لأمره فلا تتفرق بهم الأهواء وإنما اختلف العلماء في العقل هل
جاء مجيئا واحدا أو سبق العقل ثم تعقبه الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع
معا مجيئا واحدا لم يسبق أحدهما صاحبه وقالت طائفة أخرى بل سبق العقل ثم
تعقبه الشرع لأن بكمال العقل يستدل على صحة الشرع وقد قال الله تعالى
أيحسب الإنسان أن يترك سدى وذلك لا يوجد منه إلا عند كمال عقله فثبت
أن الدين من أقوى القواعد في صلاح الدنيا وهو الفرد الأوحد في صلاح الآخرة

وما كان فيه صلاح الاخرة فحقيق بالعاقل ان يكون به متمسكا وعليه محافظا وقد قال بعض الادبا الادب ادبان ادب شريعة وادب سياسة فادب الشرع ما ادي الفرض وادب السياسة ما عمر الارض فكلاهما يرجع الي العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره وقال سعيد بن حميد

ما صحة ابدانا نافعة حتي يصح الدين والخلق

واما القاعدة الثانية فهي سلطان قاهر تتالف برهبته الاهوا المختلفه وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقه وتنكف بسطوته الايدي المتغالبه وتنقمع من خوفه النفوس المتعانده لان في طباع الناس من حب المغالبه علي ما اثروه والقهر لمن عانده ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوي ورادع ملي وقد افصح المتنبي بذلك حيث يقول

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذي حتي يراق علي جوانبه الدم

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من احد اربعة اشيا اما عقل زاجر او دين حاجز او سلطان رادع او عجز صاد واذا تاملتها لم تجد لها خامسا يقترن بها ورهبة السلطان ابلغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين او بدواعي الهوي مغلوبين فتكون رهبة السلطان اشد زجرا واقوي ردعا وقد روي عن النبي صلي الله عليه انه قال ان السلطان ظل الله في ارضه ياوي اليه كل مظلوم وروي عن النبي صلي الله عليه انه قال ان الله ليزع بالسلطان اكثر ما يزع بالقران وروي عن النبي صلي الله عليه انه قال ان لله حراسا في السما وحراسا في الارض فحراسه في السما الملائكة وحراسه في الارض الذين يقبضون ارزاقهم يذبون عن الناس

وروي عن النبي صلي الله عليه انه قال الامام الجاير خير من الفتنه وكل لا خير فيه وفي بعض الشر خيار وقال عبد الله بن مسعود السلطان يفسد وما يصلح الله تعالي به اكثر فان عدل فعليكم الشكر وله الاجر وان جار فعليه الوزر وعليكم الصبر وروي ابو هريره قال سبت العجم بين يدي رسول الله صلي الله عليه فنهي عن ذلك وقال لا تسبوها فانها عمرت بلاد الله تعالي فعاش فيها عباد الله وقال بعض الحكما السلطان في نفسه امام متبوع وفي سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل احد في حكم وان عدل لم يجسر احد علي ظلم وقال بعض الادبا ان اقرب الدعوات من الاجابة دعوة الصالح وادني الحسنات بالاجر والثواب امره ونهيه في وجوه المصالح فهذه اثار السلطان في احوال الدنيا وما ينتظم به امور رعاياه ثم لما في السلطان من حراسة الدين والذب عنه ودفع الاهوا منه وحراسة التبديل فيه وزجر من شذ عنه بارتداد او بغي فيه بعناد او سعي فيه بفساد وهذه امور ان لم تنحسم عن الدين بسلطان قوي ورعاية وافية اسرع فيه تبديل ذوي الاهوا وتحريف ذوي الارا فليس دين زال سلطانه الا بدلت احكامه وطمست اعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فيه وهاية اثر كما ان السلطان ان لم يكن علي دين تجتمع به القلوب حتي يري اهل الطاعة فيه فرضا والتناصر عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لايامه صفو وكان سلطان قهر ومفسد دهر ومن هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامه ليكون الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا علي سنن الدين واحكامه وقد قال عبد الله ابن المعتز الملك بالدين يبقي والدين بالملك يقوي واختلف الناس هل وجب ذلك بالعقل او بالشرع فقالت طايفه وجب بالعقل لان معلوما من حال العقلا علي اختلافهم في الفزع الي زعيم مندوب للنظر في مصالحهم وذهب اخرون الي وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القيام بامور شرعية كاقامة

[illegible] المفقود وقد كان يجوز الاستغنا عنها اذ لابد التعبد بها فان يجوز
الاستغنا بالانبياء الاولى اولى وعلى هذا اختلفوا في وجوب بعثة الانبيا فمن قال بوجوب
ذلك [illegible] بوجوب بعثة الانبيا ومن قال ان العقل بالشرع منع من وجوب بعثة الانبيا
لان المصالح المقصود ببعثة [illegible] المصالح [illegible] وان يجوز من المكلفين ان لا يكون
هذه الامور معلومة لهم لم يجب بعثة الانبيا فاما اقامة امامين وثلثة في عصر واحد
وبلد واحد فلا يجوز اجماعا فاما في بلدان وامصار متباعدة فقد ذهب طايفة شاذة
الى جواز ذلك لان الامام مندوب للمصالح واذا كان اثنين في بلدين او ناحيتين كان كل
واحد منهما اقوم بما في يديه واضبط لما يليه ولانه لما جاز بعثة نبيين في عصر واحد
ولم يود ذلك الى ابطال النبوة كانت الامامة اولى ولا يودي ذلك الى ابطال الامامة وذهب
الجمهور الى ان اقامة امامين في عصر واحد لا يجوز شرعا لما روي عن النبي صلى الله عليه انه
قال اذا بويع الاميران فاقتلوا احدهما وروي عنه صلى الله عليه انه قال ان وليتم ابا بكر
تجدوه قويا في دين الله ضعيفا في بدنه وان وليتم عمر تجدوه قويا في دين الله قويا في
بدنه وان وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا فبين بظاهر هذا الكلام ان اقامة جميعهم
في وقت واحد لا يصح ولو صح لاشار اليه ونبه عليه والذي يلزم سلطان الامة من
امورها سبعة اشيا احدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث على العمل به من غير اهمال
له والثاني حراسة البيضة والذب عن الامة من عدو في دين او باغي نفس او مال والثالث
عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها والرابع تقدير ما يتولاه من
الاموال بسنن الدين من غير تحريف في اخذها وعطايها والخامس معاناة المظالم والاحكام
بالتسوية بين اهلها واعتماد النصفة في فصلها والسادس اقامة الحدود على مستحقها
من غير تجاوز فيها ولا تقصير عنها والسابع اختيار خلفايه في الامور ان يكونوا من
اهل الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من افضى اليه سلطان الامة ما ذكرنا من هذه

الاشيا السبعة كان موديا لحق الله تعالى فيهم مستوجبا لطاعتهم ومناصحتهم مستحقا
لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها ماخوذا او على
فاتم ثم هو من الرعية على استبطان معصيته ومقته يتربصون الفرص لاظهارها
ويتوقعون الدواير لاعلانها وقد قال الله تعالى قل هو القادر على ان يبعث عليكم
عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا وفي قوله عذابا من فوقكم او من
تحت ارجلكم العذاب الذي من فوقهم امرا السو والذي من تحتهم عبيد السو وهذا
قول ابن عباس والثاني العذاب الذي من فوقهم الرجم والذي من تحت ارجلهم
الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفي قوله او يلبسكم شيعا تاويلان
احدهما انه الاهوا المختلفة وهذا قول ابن عباس والثاني انه الفتنة والاختلاط
وهذا قول مجاهد وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال ما من امير على عشرة الا
وهو يجي يوم القيامة مغلولة يداه الى عنقه حتى يكون عمله هو الذي يطلقه
او يوبقه وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال خير ايمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم
وشرار ايمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم وهذا صحيح لانه
اذا كان ذا خير احبهم واحبوه واذا كان ذا شر ابغضهم وابغضوه وقد
كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى سعد بن ابي وقاص ان الله تعالى اذا احب
عبدا حببه الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس واعلم ان
ما لك عند الله مثل ما لله عندك وكان هذا موضحا للمعنى بما ذكرنا واصل هذا خشية
الله تعالى تبعث على طاعته في خلقه وطاعته في خلقه تبعثهم على محبته فلذلك كانت
محبتهم دليلا على خيره وخشيته وبغضهم دليلا على شره وقلة مراقبته وقد
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض خلفايه اوصيك ان تخشى الله تعالى في الناس
ولا تخشى الناس في الله وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسايه اني اخاف الله

... فوا نقابه . فقال البنت اخاف عليك ان تخاف وانما اخاف عليك ان لا تخاف
واضح لا انها آية من الله تعالى مامون الحيف كالذي روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
انه قال لابي مريم السلولي وكان الذي قتل اخاه زيد بن الخطاب اني لا احبك حتى تحب الارض
الدم قال فيمنعني ذلك حقا قال لا قال فلا ضير انما ياسى على الحب النسا . وروي عن عبد الرحمن
بن محمد قال اصدق طلحة بن عبيد الله ام كلثوم بنت ابي بكر الصديق ماية الف درهم
وهو اول من اصدق هذا القدر فمر بالمال على عمر بن الخطاب فقال ما هذا فقالوا
صداق ام كلثوم بنت ابي بكر الصديق قال ادخلوه بيت المال قال فاخبر طلحة
فقيل له كلمه فقال ما انا بفاعل ان كان عمر يرى له فيه حقا لا يرده بكلامي ولين كان
لا يرى فيه حقا لا يردنه قال فلما اصبح عمر امر بالمال فدفع الى ام كلثوم . وحكي
ان الرشيد حبس ابا العتاهيه فكتب على حايط الحبس

اما والله ان الظلم لوم وما زال المسي هو الظلوم

الى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

ستعلم في المعاد اذا التقينا غدا عند الاله من الظلوم

فاخبر الرشيد بذلك فبكى بكا شديدا ودعا ابا العتاهيه فاستحله ووهب
له الف دينار واطلقه . واما القاعدة الثالثه فهي عدل شامل يدعو الى الالفة
ويبعث على الطاعة وتعمر به الارض وتنمي به الاموال ويكثر معه النسل ويامن به
السلطان . وقد قال الهرمزان لعمر حين راه وقد نام متبذلا عدلت فامنت فنمت
وليس شي اسرع في خراب الارض ولا افسد لضماير الخلق من الجور لانه ليس يقف على حد
ولا ينتهي الى غاية ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل . وقد روي عن
النبي صلى الله عليه انه قال بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد . وقال النبي صلى الله عليه
ثلث منجيات وثلث مهلكات فاما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا وخشية

الله في السر والعلانيه والقصد في الغنى والفقر . واما المهلكات فشح مطاع وهوى
متبع واعجاب المرء بنفسه . وحكي ان الاسكندر قال لحكما الهند وقد راى
قلة الشرايع بها لم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لاعطائنا الحق من انفسنا ولعدل
ملوكنا فينا فقال لهم ايما افضل العدل ام الشجاعة قالوا اذا استعمل العدل استغني عن
الشجاعة . وقال بعض الحكما بالعدل والانصاف تكون مدة الايتلاف . وقال بعض
البلغا ان العدل ميزان الله تعالى الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه
ولا تعارضه في سلطانه واستعن على العدل بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع . واذا كان
العدل من احدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه وجب ان
يبدا بعدل الانسان في نفسه ثم بعدله في غيره . فاما عدله في نفسه فيكون بحملها على المصالح
وكفها عن القبايح ثم بالوقوف في احوالها على اعدل الامرين من تجاوز او تقصير فان
التجاوز بها جور والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره اظلم ومن جار عليها فهو على
غيره اجور . وقد قال بعض الحكما من توانا في نفسه ضاع . واما عدله مع غيره
فقد تنقسم حال الانسان مع غيره ثلثة اقسام فالقسم الاول عدل الانسان فيمن دونه
كالسلطان مع رعيته والرئيس مع صحابته فعدله فيهم يكون باربعة اشيا باتباع
الميسور وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغا الحق في السيرة فان
اتباع الميسور ادوم وحذف المعسور اسلم وترك التسلط اعطف على المحبه وابتغاء
الحق ابعث على النصرة وهذه امور ان لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره اكثر والاختلال
بتدبيره اظهر . وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال اشد الناس عذابا يوم القيامة من
اشركه الله تعالى في سلطانه فجار في حكمه . وقال بعض الادبا الملك يبقى على الكفر ولا يبقى
على الظلم . وقال بعض الادبا ليس للجاير جار ولا تعمر له دار . وقال بعض البلغا اقرب
الاشيا صرعة الظلوم وانفذ السهام دعوة المظلوم . وقال بعض الملوك العجب ممن

ملك استفسد رعيته وهو يعلم ان عزه بطاعتهم ، وقال اردشير بن بابك اذا رغب
الملك عن العدل رغبت الرعيه عن الطاعة ، وعوتب انوشروان على ترك عقاب
المذنبين فقال هم المرضى ونحن الاطبا فاذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم ، والقسم
الثاني عدل الانسان مع من فوقه كالرعيه مع سلطانها والصحابه مع رئيسها
فقد يكون بثلثه اشيا باخلاص الطاعة وبذل النصره وصدق الولا فان اخلاص
الطاعة اجمع للشمل وبذل النصره ادفع للوهن وصدق الولا انفى لسو الظن وهذه
امور ان لم تجتمع في المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه واضطر الى اتقا من كان يتقيه
عنه كما قال ــــــــ البحتري

متى احوجت ذا حلم تخطا ... اليك ببعض افعال السفيه

وفي استمرار هذا انتظام جامع وفساد شامل ، وقد قال ابرويز اطع من فوقك
يطعك من دونك ، وقد قال بعض الحكما الظلم مسلبة النعم والبغي مجلبة النقم ، وقال
بعض البلغاء ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا بادية حقه وحقه شكر النعمه
ونصح الامة وحسن الصنيعة ولزوم الشريعه ، والقسم الثالث عدل
الانسان مع اكفايه وقد يكون بثلثة اشيا بترك الاستطاله ومجانبة الادلال
وكف الاذى لان ترك الاستطاله الف ومجانبه الادلال اعطف وكف الاذى انصف
وهذه امور ان لم تخلص في الاكفا اسرع فيهم تقاطع الاعداء ففسدوا وافسدوا ، وقد
روي عن عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه الا انبيكم بشرار
الناس قالوا بلى يا رسول الله قال من نزل وحده ومنع رفده وجلد عبده قال افلا
انبيكم بشر من ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال من لا يرجا خيره ولا يومن شره قال افلا انبيكم
بشر من ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال من يبغض الناس ويبغضونه ، ان عيسى ابن مريم
عليه السلام قام خطيبا في بني اسرايل فقال يا بني اسرايل لا تكلموا بالحكمة عند

الجهال فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم ولا تكافوا ظالما فيبطل فضلكم يا بني
اسرايل الامور ثلثه امر بين رشده فاتبعوه وامر بين غيه فاجتنبوه وامر اختلف
فيه فردوه الى الله ، وهذا الحديث جامع لاداب العدل في الاحوال كلها ، وقد قال
بعض الحكما من لم يعقل لا يدري الكل فليس بعاقل تام ، وقال ــــــــ بعض الشعراء

ما دمت حيا فدار الناس كلهم ... فانما انت في دار المداراه

وقد يتعلق بهذه الطبقات امور خاصه تكون عدلها فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسرف
لان العدل ماخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل ، وقد قالت الحكما الفضايل
هيات متوسطه بين حالتين ناقصتين وافعال الخير متوسطه بين رذيلتين فالحكمه واسطه
بين الشر والجهالة والشجاعة واسطه بين التهور والجبن والعفه واسطه بين الشره
وضعف الشهوه والسكينه واسطه بين السخط وضعف الغضب والغيره واسطه بين
الحسد وسو العادة والظرف واسطه بين الخلاعة والفدامه والتواضع واسطه بين
الكبر ودناة النفس والسخا واسطه بين التقتير والتبذير والحلم واسطه بين افراط
الغضب وعدمه والمودة واسطه بين الخلابه وسو الخلق والحيا واسطه بين التخنث
والحصر والوقار واسطه بين الهزو والسخافه واذا كان ما خرج عن الاعتدال الى الميل باعتدال
خروجا عن العدل الى الميل بعدل ، وقد قال بعض البلغاء السلطان السو يخيف البري
ويصطنع الدني والبلد السو يجمع السفل ويورث العلل والولد السو يشين السلف
ويهدم الشرف والجار السو يفشي السر ويهتك الستر فجعل هذه الاشيا عن وجها عن الادب
الى الميل بالجور وجا عن العدل الى الميل بعدل من حالتي الزيادة والنقصان فاذن لا
شي انفع له من العقل كما انه لا شي اضر من الميل بعدله ، واما القاعدة الرابعة فهو امن عام
تطمين اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن اليه البري ويانس به الضعيف
فليس لخايف راحه ولا لحاذر طمانينه ، وقد قال بعض الحكماء الامن اهنا عيش والعدل

اقوى جيشه ولان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم ويكفهم عن اسباب
المواد التي بها قوام اودهم وانتظام جملتهم وليكن الامن من نتائج العدل والجور من نتائج
ما ليس بعدل فقد يكون الخوف تارة بمقاصد الادميين الخارجة عن العدل وتارة يكون باسباب
حادثة بغير مقاصد الادميين ولا تكون خارجة عن حال العدل فمن اخذ ذلك لم يكن ما
يجوه من حال الا انقطاعا عن ان يكون الامن احد قواعد الدنيا فاعلن العدل فاذا كان ذلك كذلك
كان الامن المطلق ما عم والخوف يتنوع تارة ويعم فتنوعه ان يكون تارة على النفس وتارة على
الاهل وتارة على المال وعمومه ان يستوعب جميع الاحوال ولكل واحد من انواعه حظ
من الوهن ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف اسبابه ويتفاضل بتباين جهاته
ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن اجل ذلك لم يجز ان يصف حال كل واحد
من انواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لا سيما والخائف على الشي مختص الهم
به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن ان لا خوف الا اياه ويغفل عن قدر النعمة بالامن فيما سواه
فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل وعما سواه غافل ولعل ما صرف عنه اعظم مما بلي به
وانما يتوكل بالادنى وان جل ما يمضي ه وحكي ان رجلا قال واعرابي حاضر ما اشد وجع
الضرس فقال الاعرابي كل داء اشد داء وكذلك من عمه الامن كمن استولت عليه
العافيه فهو لا يعرف قدر النعمة بامنه حتى يخاف كما لا يعرف المعافى قدر العافيه حتى
يصاب ه وقال بعض الحكما انما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها فاخذ ذلك ابو
التمام الطاي فقال شعر

والحادثات وان اصابك بؤسها فهو الذي انباك كيف نعيمها

والاولى بالعاقل ان يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من عافيته وامنه
وما انصرف عنه مما هو اشد من محنته ليستبدل بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون
مسرورا فرحا ه وحكي ان يعقوب قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه اي شي كان

خبرك بعدي فقال لا تسالني عما فعله بي اخوتي وسلني عما صنعه بي ربي ه وقال الشاعر

لا تنس في الصحة ايام السقم فان عقبى تارك الحزم الندم

واما القاعدة الخامسه فهي خصب دار تتسع به الاحوال ويشترك فيه ذوو الاكثار
والاقلال فيقل في الناس الحسد وينتفي عنهم تباغض العدم وتتسع النفوس ويكثر المواساة
والتواصل وذلك من اقوى الدواعي في صلاح الدنيا وانتظام احوالها ولان الخصب يؤول الى الغنى
والغنى يحدث الامانة والسخاء وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى الاشعري
لا تستقضين الا ذا حسب ودين فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا المال لا يرغب
في مال غيره وقال بعض السلف اني وجدت خير الدنيا والاخرة في خصلتين وشر الدنيا والاخرة
في خصلتين فخير الدنيا والاخرة في التقى والغنى وشر الدنيا والاخرة في الفجور والفقر ه
وقال بعض الشعراء

ولم ار بعد الدين خيرا من الغنى ولم ار بعد الكفر شرا من الفقر

وبحسب الغنى تكون اقلال البخل وعطاوه واكثار الجواد وسخاوه كما قال دعبل

لئن كنت لا اولي يدا دون امره فلست بمول نائلا اخر الدهر
واي اناء لم يفض عند ملئه واي بخيل لم يفض ساعة الوفر

واذا كان الخصب يحدث من اسباب الصلاح ما وصفت وكان الجدب يحدث من اسباب
الفساد ما ضادها وكما ان صلاح الخصب عام كذلك فساد الجدب عام وما عم منه
الاستقامة والخصب يكون من وجهين خصب في المكاسب وخصب في المواد فاما خصب
المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتائج الامن المقترن به واما خصب
المواد فقد يتفرع عن اسباب الالهية وهو من نتائج العدل المقترن بها واما القاعدة
السادسة فهو امل فسيح يبعث على اقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه ويبعث على
اقتناء ما ليس يؤمل في دركه بحياة اربابه ولولا ان الثاني يرتفق بما انشاه الاول

حتى يصير به مستغنيا لافتقر كل عصر الى انشاء ما يحتاجون اليه من منازل السكنى
وارض الحرث في ذلك من الاعوان وتعذر الامكان ما لا خفا به وكذلك ما ارفق
الله تعالى خلقه باتساع الآمال حتى عمر به الدنيا فتم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها الى قرن
بعد قرن فيتم الثاني ما ابقاه الاول من عمارتها ويرم الثالث ما احدثه الثاني من شعثها
لتكون احوالها في الاعصار ملتئمة وامورها على مرور الدهور منتظمة ولو قصرت الآمال
ما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده
خرابا لا يجد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعده باسوا من ذلك حالا
حتى لا ينمى لها نبت ولا يمكن فيها لبث وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
الامل رحمة من الله لامتي ولولاه ما غرس غارس شجرا ولا ارضعت ام ولدا
وقال الشاعر

والنفوس وان كانت على وجل من المنية آمال تقويها
فالمرء يبسطها والدهر يقبضها والنفس تنشرها والموت يطويها

فاما حال الامل في امر الآخرة فهو من اقوى الاسباب في الغفلة عنها وقلة الاستعداد
لها وقد افصح لبيد بن ربيعة مع اعرابيته بما تبين به حال الامل في الآخرة فقال

واكذب النفس اذا حدثتها ان صدق النفس يزري بالامل
غير ان لا تكذبنها في التقى واخزها بالبر لله الاجل

وفرق ما بين الآمال والاماني ان الآمال ما تقيدت باسباب والاماني ما تجردت
عنها فهذه القواعد الستة التي بها تصلح احوال الدنيا وتنتظم امور جملتها وان
كملت فيها كمل صلاحها وبعيد ان يكون امر الدنيا تاما كاملا وان يكون صلاحها عاما شاملا
لانها موضوعة للتغير والفنا منشاة على التصرم والانقضاء سمع بعض الحكما رجلا
يقول قلب الله الدنيا قال اذن تستوي لانها مقلوبة وقال بعض الشعراء

ومن عادة الايام ان خطوبها اذا سر منها جانب ساء جانب
وما اعرف الايام الا ذميمة وما الدهر الا وهو للثار طالب

فصل

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها
فاما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلثة اشيا هي قاعدة امره ونظام حاله وهي نفس
مطيعة الى رشدها منتهية عن غيها والفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه
بها ومادة كافية تسكن نفس الانسان بها ويستقيم اوده بها فاما القاعدة الاولى
التي هي نفس مطيعة فلانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك
نفسه فهو بان لا يملك غيرها احرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها اولى وقد
قال بعض الحكما لا ينبغي للعاقل ان يطلب طاعة غيره وطاعة نفسه ممتنعة عليه وقال

اتطمع ان يطيعك قلب سعدى وتزعم ان قلبك قد عصاكا
فذا قبح ونقصة وعار تخين النفس ترفعها سواكا
اذا كان الفواد عصاك ترجوا فواد سواك ان ياتي رضاكا
فدع عنك المطامع فهي ذل ولا تركب على جهل عماكا

وطاعة نفسه يكون من وجهين احدهما نصح والثاني انقياد فاما النصح فهو ان ينظر
الى الامور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى الغي غيا ويستقبحه وهذا
يكون من صدق النفس اذا سلمت من دواعي الهوى واذ كف من تفكر ابصر فاما الانقياد فهو
ان تسرع الى الرشد اذا امرها وتنتهي عن الغي اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس
اذا كفت منازعة الشهوات قال الله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا
ميلا عظيما وللنفس آداب هي من تمام طاعتها وكمال مصلحتها قد افردنا لها من هذا الكتاب
بابا واقتصرنا في هذا الموضع على ما اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب واما القاعدة
الثانية التي هي الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم

يكن التمام الوفا اختطفته ايدي حاسديه وتحكمت فيه اهوا اعاديه فلم تسلم له نعمه ولم تصف
له مودة وان كان التمام الوفا انتصر بالالفه على اعاديه وامتنع بهم من حساده فسلمت نعمته منهم
وصفت مودته عنهم وان كان صفو الزمان عسرا وسلمه خطرا وقد روي من حديث
عن جابر عن النبي صلى الله عليه انه قال المومن آلف مالوف ولا خير فيمن لا يالف ولا يولف
وخير الناس انفعهم للناس وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال ان الله يرضى لكم ثلثا ويكره
لكم ثلثا يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيا وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وان
تناصحوا من ولاه الله امركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السوال واضاعة المال وكل هذا
حث منه على الالفه والعرب تقول من قل ذل وقال قيس بن عاصم

ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش ايد
عزت فلم تكسر وان هي بددت فالوهن والتكسير للمتبدد

فاذا كانت الالفه كما ذكرت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر اسبابها واسباب
الالفه خمسة وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر فاما الدين وهو الاول
من اسباب الالفه فلانه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر وبمثل ذلك
وصى رسول الله صلى الله عليه اصحابه فروى سفيان عن الزهري عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه
لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا لا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلث
وهذا وان كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر تراث الجاهلية
واحن الضلالة فقد بعث رسول الله صلى الله عليه والعرب اشد الناس تقاطعا وتعاديا واكثرهم
اختلافا وتباديا حتى ان بني الاب الواحد يتفرقون احزابا مختلفه فيتشبوا بينهم بالتحزب
والافتراق احقاد الاعداء واحن البعداء وكانت الانصار اشدهم تقاطعا وتعاديا وكان
بين الاوس والخزرج من الاختلاف والتباين اكثر من غيرهم الى ان اسلموا فذهبت احنهم
وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين وبالفة الدين اعوانا متناصرين

قال الله تعالى وكنتم اعدا فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا يعني اعدا في
الجاهلية فالف بين قلوبكم بالاسلام وقال الله تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات
سيجعل لهم الرحمن ودا يعني حبا وعلى حسب التالف في الدين يكون العداوة
فيه اذا اختلف باهله فان الانسان قد يقطع في الدين من كان به برا وعليه مشفقا
هذا ابو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل والاثر المشهور في
الاسلام قتل اباه يوم بدر واتى براسه الى رسول الله صلى الله عليه طاعة لله تعالى ولرسوله حين بغى
على ضلاله وانهمك في طغيانه فلم يعطف عليه رحم ولا لفه عنه اشفاق وهو من ابر الابناء
تغليبا للدين على النسب ولطاعة الله على طاعة الاب وفيه انزل الله تعالى لا تجد قوما
يومنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا اباهم او ابناهم او اخوانهم
او عشيرتهم وقد يختلف اهل الدين على مذاهب شتى واما مختلفه فيحدث بين
المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الاديان وعلة ذلك ان
الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان من اقوى اسباب الالفه كان الاختلاف
فيه من اقوى اسباب الفرقه واذا كان في اهل الاديان المختلفه والمذاهب المتباينه
ولم يكن احد الفريقين اعلى يدا واكثر عددا كانت العداوة بينهم اقوى والاحن فيهم
اعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسد الاكفاء وتنافس النظراء واما
الثاني من اسباب الالفه فلان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر
والالفه ويمنعان من التخاذل والفرقه انفه من استعلا الاباعد على الاقارب
وتوقيا من تسلط الغربا الاجانب وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال ان الرحم
اذا تماست تعاطفت ولذلك حفظت العرب انسابها لما امتنعت عن سلطان
يقهرها ويكف الاذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها متناصرة على من
شاقها وعاداها حتى بلغت بالفة الانساب تناصرها على القوي الايد وتحكمت

ليحكم المتسلط المستطيل وقد اعذر نبي الله لوط نفسه حين عدم عشيرة تنصره
فقال لو ان لي بكم قوة او اوي الى ركن شديد يعني الى عشيرة مانعة
فروى ابو سلمة عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه قال رحم الله لوطا لقد كان
ياوي الى ركن شديد يعني الله تعالى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بعث بعده نبي الا في
ثروة من قومه وقال بعضهم لما وجدت الرسل على لوط قالوا ان ركنك لشديد
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يترك المفرج مفرجا حتى يضمه الى قبيلة يكون منها قال
الهذلي المفرج الذي لا ينتمي الى قبيلة يكون فيها ولذلك حث منه على الالفة وكف
الفرقة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثر سواد قوم فهو منهم واذا كان النسب بهذه
المنزلة من الالفة فقد يبطل الانتساب بما يعرض لها من الاسباب من عوارض تمنع
منها وتبعث على الفرقة النافية لها وجملة الانسان انها قد تنقسم ثلثة اقسام قسم
والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل صنف منهم منزلة في البر والصلة
وعارض يظهر ان يبعث على العقوق والقطيعة فاما الوالدون فهم الابا والامهات
والاجداد والجدات وهم موسومون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم
بالطبع والثاني حادث باكتساب فاما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر والاشفاق
وذلك لا ينتقل عن الولد بحال وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال الولد مبخلة
مجهلة مجبنة محزنة فاجرى الحذر عليه يكسب هذه الاوصاف ويحدث هذه
الاخلاق وقد كره قوم طلب الولد كراهية لهذه الحال التي لا يقدر على دفعها للزومها
طبعا وحدوثها حتما قيل ليحيى بن زكريا ما لك تكره الولد فقال ما لي وللولد ان
عاش كدني وان مات هدني وقيل لعيسى بن مريم الا تتزوج فقال انما
يحب التكثر في دار البقا واما ما كان حادثا باكتساب فهي المحبة التي تنمي مع الاوقات
وتتغير مع تغير الحالات وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال الولد انوط يعني ان

حبه يلصق بنياط القلب فان انصرف الوالد عن حب ولده فليس الا لبغضه منه ولكن
لاساوه حدثت من عقوق او تقصير مع بقا الحذر والاشفاق فان الذي لازم لا يعزب عنه ولا ينتقل
منه وقد قال محمد بن علي ان الله تعالى رضي الابا للابنا فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم
ولم يرض الابنا للاباء فاوصاهم بهم وان شر الابنا من دعاه التقصير الى العقوق وشر
الابا من دعاه البر الى الافراط والام اكثر من الاب لما تحملت من الحمل والوضع
وعانيه من التربيه وانهن ارق قلوبا الى الرحمة ...
من الابا عليهن وفرحا لفعلهن وكما لحقهن ولو كان الله تعالى قد اشرك بينهما
في البر وجمع بينهما في الوصيه فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وقد
روي ان رجلا اتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان لي اما انا مطيتها اقعدها على ظهري ولا
اصرف عنها وجهي واردد اليها كسبي فهل جزيتها قال لا ولا بزفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت
تخدمك وهي تحب حياتك وانت تخدمها وانت تحب موتها وقال الحسن البصري حق الوالد اعظم
وبر الوالدة الزم وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال انهاكم عن عقوق الامهات ووأد البنات
ومنع وهات وروى خالد بن معدان عن المقدام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى
يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بابائكم ثم يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب واما المولودون
فهم الاولاد واولاد الاولاد والعرب تسمي ولد الولد الصنو وهم مختصون مع سلامة
احوالهم بخلقين احدهما لازم والاخر منتقل فاما اللازم فهو الانفة للاباء من تهضم او خمول
والانفة في الابناء في مقابلة الاشفاق في الاباء وقد لحظ ابو تمام الطائي هذا المعنى
في شعره فقال

فاصبحت يلقاني الزمان من اجله باعظام مولود واشفاق والد

واما المنتقل فهو في الادلال وهو اول حال الولد والادلال في الابناء في مقابلة المحبة في
الابا لان المحبة في الاباء اخص والادلال بالابناء امس وقد روي عن عمر رضي الله عنه

انه قال قلت يا رسول الله ما بالنا نرق على اولادنا ولا يرقون علينا فقال لانا ولدناهم
ولم يلدونا ثم ان الادلال بخص الابا قد ينتقل مع الكبر الى احد امرين اما الى البر والاعظام
واما الى الجفاء والعقوق فان كان الولد رشيدا وكان الاب برا عطوفا صار الادلال
برا واعظاما وقد روى الزهري عن عامر بن شراحيل ان النبي صلى الله عليه قال لجرير
بن عبد الله ان حق الوالد على الولد ان يخشع له عند الغضب ويوثره على نفسه عند
التغالب والذنب فان المكافي ليس بالواصل ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه
وصلها وان كان الولد غاويا وكان الوالد جافيا صار الادلال قطيعة وعقوقا
ولذلك قال النبي صلى الله عليه رحم الله امرا اعان ولده على بره وبشر عمر بن الخطاب رضي الله عنه
بمولود فقال ريحانة اشمها ثم هي عن قريب ولد بار او عدو ضار وقد قيل في منثور
الحكم العقوق ثكل من لم يثكل وقال بعض الحكما ابنك ريحانك سبعا وخادمك سبعا
ووزيرك سبعا ثم هو صديق او عدو واما المناسبون فهم من عدا الابا والابنا ممن يرجع
بتعصيب او رحم والذي يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهي ادنى رتبة من
الانفة لان الانفة تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع من التهضم وليس لها في
كراهية الخمول نصيب الا ان تقترن بها ما يبعث على الانفة وحمية المناسبين انما
تدعوا الى النصرة على البعداء الاجانب فهي معرضة لحسد الاداني والاقارب موكلة الى
منافسة الصاحب فالصاحب وان حرست بالتواصل والتلاطف تاكدت اسبابها
واقترن بحمية النسب مصافاة المودة وذلك اوكد اسباب الانفة وقد
قيل لبعض قريش ايما احب اليك اخوك او صديقك فقال اخي اذا كان صديقا وقال
مسلمة بن عبد الملك العيش في ثلث سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الاهل
وقال بعض الحكما البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته وان اهملت الحال
بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها مقت الحسد

او منازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة باعداء وقال الكندي في بعض
رسايله الاب رب والولد كمد والاخ فخ والعم غم والخال وبال والاقارب عقارب
وقال ـــــ عبد الله بن المعتز

لحومهم لحمي وهم ياكلونها وما داهيات المرء الا اقاربه

ومن اجل ذلك امر الله بصلة الارحام واثنى على واصلها فقال تعالى والذين يصلون ما امر الله به
ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب فقال المفسرون هي الرحم التي
امر الله بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها
وقد روى عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله صلى الله عليه قال يقول الله تعالى انا الرحمن وهي
الرحم اشتققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته وروي عنه
صلى الله عليه قال صلة الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة في الاهل منساة في الاجل
وقال بعض الحكما بلوا ارحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق وقال بعض البلغا
صلوا ارحامكم فانه لا تبلى عليها اصولكم ولا تهتضم عليها فروعكم وقال بعض الادبا
من لم يصلح لاهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك وقال بعض الفصحا من وصل
رحمه وصله الله ومن اجار جاره اعانه الله واجاره وقال محمد بن عبد الله الازدي

وحسبك من ذل وسوء صنيعه مناواة ذي القربى وان قيل قاطع
ولكن اواسيه وانسى ذنوبه لترجعه يوما الي الرواجع

وقال ـــــ عبد الزبير

ولا يستوي في الحكم عبدان واصل وعبد لارحام القرابة قاطع

واما المصاهرة وهي الثالث من اسباب الالفة فلانها استحداث مواصلة وتمازج مناسبة
صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا عن خيرة وايثار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد
المصاهرة قال الله تعالى ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل

بينكم مودة ورحمة يعني بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من اوكد
اسباب الالفة وفيها تاويل اخر قال الحسن البصري المودة النكاح والرحمة الولد
وقال تعالى والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة فاختلف
المفسرون في الحفدة فقال عبد الله بن مسعود هم اختان الرجل على بناته وقال عبد الله بن
عباس هم ولد الرجل وولد ولده وحكي عنه انهم بنو امراة الرجل من غيره وسموا حفدة
لتحققهم بالخدمة ومنه قولهم في القنوت واليك نسعى ونحفد
اي نسرع في العمل بطاعتك ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتالف الاعداء
بالمصاهرة حتى يرجع النافر مؤانسا ويصير العدو موالیا وقد يصير للصهر بين الاثنين الفة بين
القبيلتين وموالاة بين العشيرتين حكي عن خالد بن يزيد بن معاوية قال كان ابغض
خلق الله الي ال الزبير حتى تزوجت فيهم رملة فصاروا احب خلق الله الي وفيهم يقول

احب بني العوام طرا لاجلها ومن اجلها احببت اخوالها كلبا
فان تسلمي نسلم وان تتنصري يخط رجال بين اعينهم صلبا
تجول خلاخيل النساء ولا ارى لرملة خلخالا يجول ولا قلبا

ولذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة ويجتذبه الحب
لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة طريقا واذا كانت
المصاهرة بالنكاح بهذه المنزلة من الالفة فقد ينبغي ان يعقد بها احدى خمسة اوجه
وهي المال والجمال والدين والالفة والتعفف وقد روى سعيد ابن ابي سعيد عن ابيه عن
ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه قال تنكح المراة لاربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها
فعليك بذات الدين تربت يداك فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان اقوى الدواعي
اليه فالمال اذن هو المنكوح فان اقترن بذلك احد الاسباب الباعثة على الائتلاف
جاز ان يثبت العقد وتدوم الالفة وان تجرد عن غيره من الاسباب الباعثة على

الائتلاف وعري عما سواه من المواد فاخلق بالعقد ان ينحل وبالالفة ان تزول
لا سيما اذا غلب الطمع وقل الوفا لان المال ان وصل اليه فقد انقضى سبب الالفة
به وقد قيل من ود لشيء تولى مع انقضائه وان اعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة
عليه اعقب ذلك استهانة الايس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الخائب
بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفة عداوة وقد قيل من ود لشيء تولى
مع انقضائه وقيل من ودك طمعا فيك ابغضك اذا ايس منك وقال عبد الحميد من اعظمك لاستعمالك
استقلك عند اقلالك وان كان العقد رغبة في الجمال فذلك ادوم للالفة من المال لان الجمال صفة
لازمة والمال صفة زايلة ولذلك قيل حسن الصورة اول السعادتين وقد روي عن النبي صلى الله عليه
انه قال اعظم النساء بركة احسنهن وجها واقلهن مهرا فان سلمت الحال من ادلال المفضي الى
الملال استدامت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال البارع اما لما
يحدث عنه من شدة الادلال وقد قيل من بسطه الادلال قبضه الاذلال واما لما يخاف
عليه من محن الرغبة وبلوى المنازعة وقد حكي ان رجلا شاور حكيما في التزوج فقال له
افعل واياك والجمال البارع فانه مرعى انيق فالرجل وكيف فال كما قال الاول

ولن تصادف مرعى ممرعا ابدا الا وجدت به اثار ماكول

واما لما يخافه اللبيب من شدة الصبوة ويتوقاه الحازم من عواقب الفتنة فقد قال بعض
الحكما اياكم ومخالطة النسا فان لحظ المراة سهم ولفظها سم ورأى بعض الحكما صيادا
يكلم امراة فقال يا صياد احذر ان تصاد وقال سليمن بن داود عليهما السلام
لابنه امش وراء الاسد ولا تمش ورا المراة وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه امراة تقول

ان النسا رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شم الرياحين

فقال عمر رضي الله عنه

ان النسا شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة في الدين فهو اوثق العقود حالا وادومها الفة واحمدها بدءا وعاقبة
لان طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد له فاستقامت حاله وامن زلله ولذلك قال
النبي صلي الله عليه فاظفر بذات الدين تربت يداك وفيه تاويلان احدهما تربت يداك ان
لم تظفر بذات الدين والثاني انها كلمة تذكر للمبالغه لا يراد بها الشر كقولهم ما اشجعه قاتله
الله. وان كان العقد رغبة في الالفه فهذا قد يكون علي احدي وجهين اما ان يقصد المكاثره
باجتماع الفريقين والمظاهره بتناصر القبيلين. واما ان يقصد به تالف الاعداء واستعطاف
استعطافا للعادين وتسكينا لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان في الاماثل
واهل المنازل وداعي الوجه الاول هو الرغبه وداعي الوجه الثاني هو الرهبه وهما سببان
في غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الالفه وان زال السبب بزوال الرغبة
والرهبه خيف زوال الالفه ان لم ينضم اليها احد اسباب الباعثه عليها والمقويه لها.
وان كان العقد رغبة في التعفف فهو الوجه الحقيقي المبتغي بعقد النكاح وما سواه فاسباب
متعلقة عليه او مضافة اليه. روي انه لما نزل قوله تعالي يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من
نفس واحدة وخلق منها زوجها قال النبي صلي الله عليه خلق الرجل من التراب فهمه في التراب وخلقت
المراة من الرجل فهمها في الرجل. وروي عطيه ابن بشير عن عكاف بن وداعة الهلالي ان
النبي صلي الله عليه قال يا عكاف الك زوجة قال لا قال فانت اذن من اخوان الشياطين ان كنت
من رهبان النصاري فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا القول
منه حثا علي التعفف عن الفساد وباعثا علي طلب المكاثره بالاولاد ولهذا المعني كان يقول النبي
صلي الله عليه للقفال من غزوه اذا قضيتم الي نسايكم فالكيس الكيس يعني في طلب الولد
فلزم حينيذ في عقد التعفف تحكيم الاختيار فيه والتماس الادوم من دواعيه وهي
نوعان نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف اسبابه وتغاير شروطه فاما
الشروط المحصوره فيه فثلثة شروط احدها الدين المفضي الي الستر والعفاف المودي

الي القناعه والكفاف قال ابو جعفر بن [illegible] لا يغرك من مرية بيت ان كرم منصبها فقد تعلقت [illegible]
وخطب رجل من عبد الله بن عباس يتيمة كانت عنده فقال لا ارضاها لك قال ولم وفي حجرك
نشاته قال انها تتشرف قال لا ابالي قال الان لا ارضاها لك وفي بعض ما اثر عن بعض الحكما من
رضي بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من فيه خير. والشرط الثاني العقل الباعث
علي حسن التدبير والامر بالصواب فقد روي عن النبي صلي الله عليه انه قال [illegible] كان الف
مالوف. وروي عن النبي صلي الله عليه انه قال عليكم بالودود الولود واياكم والحمقا فان صحبتها
[illegible] وولدها ضياع. والشرط الثالث الاكفا الذين ينتفي بهم العار ويحصل بهم الاستكثار
فقد روي عن النبي صلي الله عليه انه قال تخيروا لنطفكم ولا تضعوها الا في الاكفاء وقال
اكثم بن صيفي لولده يا بني لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح الكريمه مدرجه
للشرف. وقال ابو الاسود الدؤلي لبنيه قد احسنت اليكم صغارا وكبارا وقبل ان تولدوا
قالوا وكيف احسنت الينا قبل ان نولد قال اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها وانشد الرياشي

فاول احساني اليكم تخيري لماجدة الاعراق باد عفافها

وقد ينضم الي هذه الشروط من صفات الذوات واحوال النفس ما يلزم التحرز منه لبعد الخير
عنه وقلة الرشد فيه فان كثيرا من الاخلاق باديه في الصور والاشكال كالذي روي عن
النبي صلي الله عليه انه قال لزيد بن حارثه اتزوجت يا زيد قال لا قال تزوج تستعفف مع
عفتك ولا تزوج من النسا خمسا قال وما هن يا رسول الله قال لا تتزوج شهبرة ولا
لهبرة ولا نهبرة ولا هيذرة ولا لفوتا قال يا رسول الله ما اعرف مما قلت شيا قال فاما
الشهبرة فالزرقا البذيه واما اللهبرة فالطويلة المهزوله واما النهبرة فالعجوز المدبره
واما الهيذره فالقصيره الذميمه واما اللفوت فذات الولد من غيرك. وقال شيخ
من بني سليم يا بني اياك والرقوب الغضوب القطوب الرقوب التي تراقب ان يموت
فتاخذ ماله. وقال اوصي بعض الاعراب ابنا له في التزويج فقال اياك والحنانه والمنانه

والانانه فالحنانه التي تحن الى زوج كان لها والمنانه التي تمن على زوجها بمالها والانانه التي تئن كسلا وتمارضا. وقال اوفى ابن دلهم النسا اربع فمنهن معمع لها شيئها اجمع ومنهن تبع تضر ولا تنفع ومنهن صدع تفرق ولا تجمع ومنهن غيث وقع ببلد فامرع قال الشاعر

الا يا صاحب النسوان عيب انما سوا وبون بينهن بعيد
فمنهن جنات تفي ظلالها ومنهن نيران لهن وقود

وانشد ابو العتاهيه عن ابن دريد

ان النسا كاشجار نبتن معا منهن مر وبعض المر ماكول
ان النسا ولو صورن من ذهب فيهن من هفوات الجهل تخييل
ان النسا متى ينهين عن خلق فانه واجب لا بد مفعول
فما وعدنك من شر وفين به وما وعدنك من خير فممطول

واما النوع الاخر فهو ما لا يمكن حصر شروطه لانه قد يختلف باختلاف الاحوال ويتنقل بتنقل الانسان والازمان فانه لا يستغنى فيه عن موافقه النفس ومتابعة الشهوه ليكون ادوم للحال الالفه وامد لاسباب الوصله فان الراي المعلول لا يبقى على حالة والميل المدخول لا يدوم على دخله ولانه ينتقل المرء بحالتين اما الى الزيادة والكمال واما الى النقصان والزوال حكي ان رجلا قال لعلي بن ابي طالب عليه السلام اني احب معويه فقال له علي عليه السلام اما الان فانت اعور فاما ان تبرا واما ان تعمى واذا كان ذلك كذلك فلا بد من كشف السبب الباعث على هذا النوع فانه لا يخلو من ثلثه احوال احدها ان يكون لطلب الولد فلا بد فيه التماس الحداثه والبكارة لانهن اخص بالولادة وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال عليكم بالابكار فانهن اعذب افواها وانتق ارحاما وارضى باليسير ومعنى قوله انتق ارحاما اي اكثر اولادا وقال معاذ بن جبل عليكم بالابكار فانهن اكثر حبا واقل خبا وهذه الحال هي اولى الاحوال الثلثه لان النكاح موضوع لها والشرع وارد

بها وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال سودا ولود خير من حسنا عاقر والعرب تقول من لم يلد فلا يوالده ومن لم يلد ولد لا يولد له ومن مثل هذه الاحوال انكاح البعدا الاجانب ويرون ذلك انجب للولد وابهى للخلقه ويجتنبون نكاح الاقارب والاهل ويرونه مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال اغتربوا ولا تضووا وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال يا بني السايب قد اضويتم فانكحوا في الغرايب قال الشاعر

تجاوزت بنت العم وهي حبيبه مخافه ان يضوى علي سليلي

وكان حكما المتقدمين يرون ان انجب الاولاد خلقا وخلقا من كانت سن امه ما بين العشرين والثلثين وسن ابيه ما بين الثلثين والخمسين والعرب تقول ان ولد العجزى لا ينجب وان انجب النسا الفروك لان الرجل يغلبها على الشبه لزهدها في الرجال وقالوا ان الرجل اذا اكره المراة وهي مذعورة ثم اذكرت انجبت والحال الثانيه ان يكون المقصود به القيام بما تولاه النسا من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النسا فليست الذم حالتي الزوجات لانه قد يجوز ان يعانيه غيرهن من النسا ولذلك قيل المراة ريحانه وليست بقهرمانه وليس في هذا القصد تاثير في دين ولا قدح في مروة والاجمل في هذا التماس ذوي الاسنان والحنكه ممن قد خبر تدبير المنازل وعرف عادات الرجال فانهن اقوم بهذه الحال والحال الثالثه ان يكون المقصود الاستمتاع وهي اذم الاحوال الثلثه واوهنها للمروه لانقياد فيه لاخلاق البهيميه ومتابع لشهوات الذميمه وقد قال الحارث ابن النضر الاسدي شر النكاح نكاح الغلمه لان يفعل ذلك لكثره الشهوه ورغبتها بالامعان لها عند الغلبه او تسكين النفس عند المنازعه حتى لا يطلع له عن ريبه ولا تنازعه نفس الى فجور فلا يلحقه في ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالجد اجدر وبالنسا احق ولو تنزه في مثل هذه الحال عن استبدال الحراير الى الاما كان اكمل لمروته وابلغ في صيانته وهذه حال تقف على شهوات النفس لا يمكن ان يرجح فيها اولى الامور ثم هي اخطر الاحوال المنكوحه لان للشهوات غايات

متناهية ينزوي بزوالها اذ كان متعلقا بها فقصير الشهوة في الابتداء كراهية في الانتهاء ولذلك
كرهت العرب البنات وادخرتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من ان يبتذلهن اللئام بمثل هذه الحال
وكان من يحبب من قبل البنات لرقة او محبة كان موتهن احب اليه واثر عنده وخطب الى عقيل
بن علفة ابنته الجربا فقال

اني وان سيق الي المهر
الف وعبدان وخور عشر
احب اصهاري الي القبر

وقال عبد الله بن طاهر

لكل ابي بنت يراعي شؤونها ثلثة اصهار اذا حمد الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكنها وقبر يواريها وخيرهم القبر

فصل

واما المواخاة بالمودة وهي الرابع من اسباب الالفة فلانها
تكسب بصادق الميل اخلاصا ومصافاة ويحدث بخلوص المصافاة وفا ومحاماة وهذا اعلا
مراتب الالفة ولذلك اخا رسول الله صلى الله عليه بين اصحابه لتزيد الفتهم ويقوي تضافرهم
وتناصرهم وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال عليكم باخوان الصدق فانهم زينة في الرخا
وعصمة في البلاء وروى ابو الزبير عن سهل بن سعد ان النبي صلى الله عليه قال المرء كثير
باخيه ولا خير لك في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له وقال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه لقا الاخوان جلا الاحزان وقال خالد بن صفوان ان اعجز الناس من قصر في طلب
الاخوان واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم وقال علي لابنه الحسن عليهما السلام يا بني
الغريب من ليس له حبيب وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له اعوانا وقال
بعض الادبا افضل الذخاير اخ وفي وقال بعض البلغاء صديق مساعد عضد وساعد
وقال بعض الشعراء

هموم رجال في امور كثيرة وهمي من الدنيا صديق مساعد
يكون كروح بين جسمين جسماهما جسمان والروح واحد

وقيل انما سمي الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك وقال ثعلب انما سمي
الخليل خليلا لان محبته تخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملاته وانشد قول بشار

قد تخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلا

والمواخاة في الناس قد تكون من وجهين احدهما مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى
الاضطرار والثاني مكتسبة بالقصد والاختيار فاما المكتسبة بالاتفاق فهي اوكد
حالا لانها تنعقد عن اسباب تقود اليها والمكتسبة بالقصد تنعقد لها اسباب تقاد
اليها وما كان جاريا بالطبع فهو الزم مما هو حادث بالقصد ونحن نبدا بالوجه الاول
المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد فاما المكتسب بالاتفاق
فله اسباب يبتدي منها ثم ينتقل في غاية احواله المحمودة الى مراتب سبعة ربما
استكملهن وربما وقف على بعضهن ولكل رتبة في ذلك حكم خاص وسبب موجب
كما قال الشاعر

ما الهوى الا له سبب يبتدي منه ويتشعب

فاول اسباب الاخا التجانس في حال يجتمعان فيها ويأتلفان بها فان قوي التجانس
قوي الايتلاف به وانما كان كذلك لان الايتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس
فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ومع انتفا التشاكل يعدم الايتلاف
فثبت ان التجانس وان تنوع اصل للاخا وقاعدة للايتلاف وقد روى يحيى بن
سعيد عن عمرة عن النبي صلى الله عليه انه قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها
ايتلف وما تناكر منها اختلف وهذا واضح لان بالتجانس تتعارف وبفقده
تتناكر وقد قيل في منثور الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق وقال
بعض الحكما بحسن تشاكل الاخوان يثبت التواصل وقال بعض الشعراء

فلا تحتقر نفسي وانت خليلها فكل امرئ يصبو الى من يجانس

وقال [illegible] آخر

[illegible] قرابة فقلت لهم إن الشكول اقارب

نسيبي في راي وعزمي وهمتي وان فرقتنا في الاصول المناسب

ثم يحدث عن التجانس المواصلة بين المتجانسين وهي الرتبة الثانية من رتب الاخا وسبب المواصلة وجود الاتفاق منهما فصارت المواصلة نتيجة التجانس والسبب فيه وجود الاتفاق لان عدم الاتفاق منفر وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتهم عذبوا اولا فان جناهم مر

كم من رياض لا انيس بها تركت لان طريقها وعر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وهي المؤانسة وسببها الانبساط ثم يحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهي المصافاة وسببها خلوص النية ثم يحدث عن المصافاة رتبة خامسة وهي المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة هي ادنى الكمال في احوال الاخا وما قبلها اسباب تقود اليها فان اقترن بها المعاضدة فهي الصداقة ثم يحدث عن المودة رتبة سادسة وهي المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضايل النفس حدث فيه رتبة سابعة وهي الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدث منه رتبة ثامنة وهي العشق وسببه الطمع وقد قال المامون

اول العشق مزاح وولع ثم يزداد اذا زاد الطمع

كل من يهوى وان غالت به رتبة الملك لمن يهوى تبع

وهذه الرتبة هي اخر الرتب المحدودة وليس لما جاوزها رتبة تتقدر والحال محدود لانها قد تؤول الى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضي الى مخالطة الارواح وان تفارقت اجسادها وهذه حال لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف عند

نهايتها وقد قال الكندي الصديق انسان هو انت وانت هو الا انه غيرك ومثل هذا القول كثير يحكى عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه في عمر حين اقطع طلحة بن عبيد الله ارضا وكتب له بها كتابا واشهد فيه ناسا منهم عمر فاتى طلحة بكتابه الى عمر رضي الله عنه ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى ابي بكر وقال والله ما ادري انت الخليفة ام عمر فقال بل عمر لكنه اناه وانما المكتسبة بالمقصد فلابد لها من داع يدعوا اليها وباعث يبعث عليها وذلك من جهتين رغبة وفاقة فاما الرغبة فهو ان يظهر من الانسان فضايل تبعث على اخايه وتوسم جميل يدعوا الى اصطفايه وهذه الحال اقوى من التي بعدها لظهور الصفات المطلوبة من غير تكلف لطلبها وانما يخاف عليها من الاغترار بالتصنع لها فليس كل من اظهر الخير كان من اهله ولا كل من تخلق بالحسنى كان في طبعه والمتكلف للشي منافر له الا ان يدوم عليه مستحسنا له في العقد ومتدينا به في الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قد تقدم من قول الحكما ليس في الطبع ما ليس في الطبع ثم اقول ان في المتعذر ان يكون اخلاق الفاضل كاملة بالطبع وانما الاغلب ان يكون بعض فضايله بالطبع وبعضها بالتطبع الجاري بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به في العادة اغلب عليه مما كان مطبوعا عليه اذا خالف العادة ولذلك قيل العادة طبع ثان

وقال ابن الرومي

واعلم بان الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب

لولا علاج الناس اخلاقهم اذا لفاح الحما اللازب

ثلث واما الفاقة فهو ان يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفا من يانس بمواخاته ويثق بنصرته وموالاته وقد قالت الحكما من لم يرغب في ثلثة بلي بستة من لم يرغب في الاخوان بلي بالعداوة والخذلان ومن لم يرغب في السلامة

تلي بالبشاشة بسط الانبساط ومن لم يرغب في المعروف تلي بالندامة والخسران
والعرب تقول احذر العدو من انفس الاخطار وافضل العدد الاخوان انهم سهام النفوس واوليا
الحوادث وقيل [illegible] الحكما [illegible] صديق او [illegible] من شقيق وقيل لمعويه اي
الناس احب اليك [illegible] الى [illegible] قال الشاعر

لمودة [illegible] تجلب نخلة خير من الرحم القريب الكاشح

وقال [illegible] اخر

تخونك ذو القربى مرارا وربما وفي لك عند العهد من لا تناسبه

فاذا عزم على اصطفا الاخوان سبر احوالهم قبل اخائهم وكشف عن اخلاقهم قبل اصطفائهم لما تقدم من قول الحكما اسبر تخبره ولا تبعثه الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع فان الملق مصايد العقول والنفاق تدليس الفطن وهما تجيه المتصنع وليس فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا اصلاح يومل ولاجل ذلك قالت الحكما اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه لا من لسانه وقال خالد بن صفوان انما نفقت على اخواني لاني لم استعمل معهم النفاق واقتصرت بهم عن الاستحقاق وقال حماد عجرد

كم من اخ لك لست تنكره ما دمت في دنياك في يسر
متصنع لك في مودته يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو غير دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودة من يقلي المقل ويعشق المثري
وعليك من حالاه واحدة في العسر اما كنت واليسر

على ان الانسان موسوم بسيما من قارب ومنسوب اليه افعال من صاحب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب وقال علي بن ابي طالب عليه السلام الصاحب مناسب وقال ابن مسعود ما شي ادل على شي ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب وقال بعض الحكما اعرف [illegible] بالمرء ما ظن بقرينه وقال [illegible] عدي بن زيد

عن المرء لا تسل وابصر قرينه فان القرين بالمقارن يقتدي

فلزم من هذا الوجه ايضا ان يختبر من دخلا السوء وتجانب صحبة اهل الريب ليكون موفور العرض سليم العيب فيما يلام بلائمة غيره وهذا قبل التثبت والارتياد ومداومة الاختبار والابتلاء متعذر بل معوز وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال

الم تر ان الماء يخبث طعمه وان كان لون الماء ابيض صافيا

ونظر بعض الحكما الى رجل حسن الوجه فقال اما البيت فحسن واما الساكن فردي فاخذ بحفظه هذا المعني فقال وعقل

ورب ما ابين البنا فيه منزل عامر وقلب خراب

ثم قد تقدم من قول الحكما من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الانس اثمرت مودته ندما وانشدني بعض اهل العلم

لا تركنن الى ذي منظر حسن فرب رائعة قد ساء مخبرها
ما كل اصفر دينار لصفرته صفر العقارب اذاها وانكرها

وقال بعض البلغا مصارمة قبل اختبار افضل من مواخاة على اغترار وقال بعض لا تثق بالصديق قبل الخبرة ولا توقع بالعدو قبل القدرة وقال بعض الشعرا

لا تحمدن امرا من غير تجربة ولا تذمنه من غير تجريب

فحمدك للمرء ما لم تبله خطأ * وذمك للمرء بعد الحمد تكذيب

واذ قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبل اخايهم وخبرة اخلاقهم قبل اصطفايهم فالخصال المعتبرة في اخايهم بعد المجانسة التي هي اصل الاتفاق اربع خصال فالخصلة الاولى عقل موفور يهدي الى مراشد الامور فان الحمق لا تثبت معه مودة ولا يدوم لصاحبه استقامة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال البله لوم وصحبة الاحمق شوم وقال بعض الحكما عداوة العاقل اقل ضررا من مودة الاحمق لان الاحمق ربما ضر وهو يقدر ان ينفعه والعاقل لا يتجاوز الحد في مضرته فمضرته لها حد يقف عليه العقل ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود اقل ضررا مما هو غير المحدود وقال المنصور للمسيب بن زهير ما مادة العقل قال مجالسة العقلاء وقال بعض البلغاء الجهل صحبة ذوي الجهل ومن المحال مجادلة ذوي المحال وقال بعض الادبا من اشار عليك باصطناع جاهل او عاجز لم يخل ان يكون صديقا جاهلا او عدوا عاقلا لانه يشير بما يقصر بك ويحتال فيما يضع منك وقال بعض الشعراء

اذا ما كنت متخذا خليلا * فلا تثقن بكل اخ اخاء

فان خيرت بينهم فالصق * باهل العقل منهم والحياء

فان العقل ليس له اذا ما * تفاضلت الفضايل من كفاء

والخصلة الثانية الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين عدو لنفسه فكيف يرجى منه مودة غيره وقد قال بعض الحكما اصطف من الاخوان ذا الدين والحسب والراي والادب فانه ردء لك عند حاجتك ويد عند نايبتك وانس عند وحشتك وزين عند عافيتك وقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه

اخلا الرخا هم كثير ولكن * في البلا هم قليل

فلا تغررك خلة من تواخي * فما لك عند نايبة خليل

فكل اخ يقول انا وفي * ولكن ليس يفعل ما يقول

سوى خل له ادب ودين * فذاك لما يقول هو الفعول

وقال آخر

من لم تكن في الله خلته * فخليله منه على خطر

والخصلة الثالثة ان يكون محمود الاخلاق مرضي الافعال موثرا للخير امرا به كارها للشر ناهيا عنه فان مودة الشرير تكسب الاعدا وتفسد الاخلاق ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة فان المتبوع تابع صاحبه وقد قال عبد الله بن المعتز اخوان السو كشجر النار يحرق بعضه بعضا وقال بعض الحكما مخالطة الاشرار والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم ببدنه من التلف لم يسلم قلبه من الحذر منه وقال بعض الادبا صحبة الاشرار تورث سو الظن بالاخيار وقال بعض البلغا ان من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار

وقال بعض الشعراء

مجالسة السفيه سفاه راي * ومن عقل مجالسة الحليم

فانك والقرين معا سوا * كما قد الاديم من الاديم

والخصلة الرابعة ان يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة في مواخاته فان ذلك اوكد لحال المواخاة وامد لاسباب المصافاة اذ ليس كل مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه ورغب الى زاهد فيه كان فيه معنى خايبا كما قال البحتري

وطلبت منك مودة لم اعطها * ان المعنى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الاحنف

فان كان لا يدنيك الا شفاعة * فلا خير في ود يكون بشافع

فاقسم ما تركي عتابك عن قلى * ولكن لعلمي انه غير نافع

وإن إذا لم أنل الصبر طائعاً فلا بد منه مكرهاً غير طائع

فإذا استكملت هذه الخصال في إنسان وجب إخاؤه وتعين اصطفاؤه، وبحسب وفورها فيه يجب الميل إليه والثقة به، وبحسب ما يرى من غلبة إحداها عليه يجعله مستعملاً في الخلق الغالب عليه، فإن الإخوان على طبقات مختلفة وأحوال متشعبة، ولكل واحد منهم حال يختص بها في المشاركة، وثلمة يسدها في الموازرة والمضافرة، وليس تتفق أحوال جميعهم على حد واحد لأن التباين في الناس غالب واختلافهم في الشيم ظاهر. وقد قال بعض الحكماء: الرجال كالشجر شرابه واحد وثمره مختلف. فأخذ هذا المعنى منصور بن إسمعيل الفقيه فقال:

بنو آدم كالنبت ونبت الأرض ألوان

فمنه شجر الصندل والكافور والبان

ومنه شجر أفضل ما يحمل قطران

ومن رام إخواناً تتفق أحوال جميعهم رام أمراً متعذراً، بل لو اتفقوا لكان ذلك وهناً ربما وقع به خلل في نظامه، إذ ليس الواحد من الإخوان يمكن الاستعانة به في كل حال، ولا المجبولون على الخلق الواحد يمكن أن يتصرفوا في جميع الأحوال، وإنما بالاختلاف يكون الائتلاف. الاعمال

وقد قال بعض الحكماء: ليس بلبيب من لم يعاشر من لم يجد من معاشرته بداً. وقال المأمون: الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحياناً، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه أبداً. ولعمري إن الناس على ما وصفهم من الإخوان، وليس من كان منهم كالداء من الإخوان المعدودين، بل هم من الأعداء المحذورين، وإنما يراءون بالمودة استكفافاً لشرهم وتحرزاً من مكاشفتهم، فدخلوا في أعداد الإخوان بالمظاهرة والمساترة، وفي الأعداء عند المكاشفة والمجاهرة. وقد قال بعض الحكماء: مثل العدو الضاحك إليك كالحنظلة الخضرة أوراقها القاتل مذاقها. وقيل

في حكم القرين: لا تغترن بمقاربة العدو فإنه كالماء، إن أطيل إسخانه بالنار لم يمنع من إطفائها. وقال يزيد بن الحكم الثقفي:

تكاشرني كرهاً كأنك ناصح وعينك تبدي أن صدرك لي دوي

لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخيرك ملتوي

فليت كفافاً كان خيرك كله وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوي

فليت

فإذا خرج من كان كالداء من عداد الإخوان، فالإخوان هم الصنفان الآخران ممن كان منهم كالغذاء أو كالدواء، لأن الغذاء قوام النفس وحياتها، والدواء علاجها وصلاحها، وأفضلهما من كان كالغذاء لأن الحاجة إليه أعم. وإذا تميز الإخوان وجب أن ينزل كل واحد منهما حيث نزلت به أحواله واستقرت عليه خلاله، فمن قويت أسبابه قويت الثقة به، وبحسب الثقة به يكون الركون إليه والتعويل عليه. قال الشاعر:

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما نجح الأمور بقوة الأسباب

فاليوم حاجتنا إليك وإنما يدعى الطبيب لكثرة الأوصاب

وقد اختلفت مذاهب الناس في اتخاذ الإخوان، فمنهم من يرى أن الاستكثار منهم أولى ليكونوا أقوى منعة ويداً وأوفر تحنناً وتودداً وأكثر تعاوناً وتفقداً. وقيل لبعض الحكماء: ما العيش؟ فقال: إقبال الزمان، وعز السلطان، وكثرة الإخوان. وقيل: حلية المرء كثرة إخوانه. ومنهم من يرى الإقلال منهم أولى لأنهم أخف أثقالاً وكلفاً وأقل تنازعاً وخلافاً. وقال الإسكندر: المستكثر من الإخوان من غير اختبار كالمستوفر من الحجارة، والمقل من الإخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر. وقال عمرو بن العاص: من كثر إخوانه كثر غرماؤه. وقال إبراهيم بن العباس: مثل الإخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار. ولقد أحسن ابن الرومي في هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب

فإن الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

فدع عنك الكثير فكم كثير ... يعاف وكم قليل مستطاب

فما اللجج الملاح بمرويات ... وتلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغاء [illegible] الإخوان والأخلاء واصطناع النصحاء تكثير العدد لا بتكثير العدد وتحصيل النفع لا بتحصيل الجمع فواحد يحصل المراد خير من ألف تكثر الأعداد. وإذا كان التجانس والتشاكل قواعد الأخوة وأسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضي من حال صاحبه قلة إخوانه لأنه يروم مثله ويطلب شكله وأمثاله من ذوي العقل والفضل أقل من أضداده من ذوي الحمق والنقص لأن الخيار في كل جنس هو الأقل ولذلك قل وفور العقل والفضل وقد قال الله تعالى إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون فقل لهذا التعليل إخوان أهل الفضل لقلتهم وكثر إخوان ذوي النقص والجهل لكثرتهم وقد قال الشاعر

لكل امرئ شكل من الناس مثله ... وأكثرهم شكلا أقلهم عقلا

وكل أناس يألفون لشكلهم ... فأكثرهم عقلا أقلهم شكلا

لأن كثير العقل ليس بواجد ... له في طريق حين يسلكه مثلا

وكل سفيه طائش إن فقدته ... وجدت له في كل ناحية عدلا

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فقد تنقسم أحوال من دخل في عداد الإخوان أربعة أقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين فأما المعين المستعين فهو معاوض منصف يؤدي ما عليه ويستوفي ما له فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء فهو مشكور في معونته معذور في استعانته وهذا

أعدل أحوال الإخوان. وأما من لا يعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شره فلا هو صديق يرجى ولا عدو يخشى [illegible] التارك للإخوان متروك ومن جاد [illegible] وكذلك هو كالصورة الممثلة [illegible] نفعها فلا هو مشكور لمنع خيره ولا هو ملوم لقمع شره [illegible] وقال الشاعر

وأسوأ أيام الفتى يوم [illegible]

غير أن فساد الوقت وتغير أهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا وإن كان خيره ممنوعا كما قال المتنبي

إنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

وأما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومهين مستذل قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن وحسبك مهانة برجل يستثقل عند إقلاله ويستقل عند استقلاله فليس لمثله في الإخاء حظ ولا في الوداد نصيب وهو ممن جعله المأمون من داء الإخوان لا من دوائهم ومن سمهم لا من غذائهم وقد قال بعض الحكماء شر ما في الكريم أن يكف عنك خيره وخير ما في اللئيم أن يكف عنك شره وقال ابن الرومي

عذرنا النخل في إبداء شوك ... يرد به الأنامل عن جناه

فما للعوسج الملعون أبدى ... لنا شوكا بلا ثمر نراه

وأما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع قد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء فلا يرى ثقيلا في نائبة ولا يقعد عن نهضة في معونة فهذا أشرف الإخوان نفسا وأكرمهم طبعا فينبغي لمن أوجده الزمان مثله وقل أن يكون له مثل لأنه البر الكريم والدر اليتيم أن يثني عليه خنصره ويعض عليه بناجذه ويكون به أشد ضنا منه بنفائس أمواله وسني ذخائره لأن نفع الإخوان عام ونفع المال

خاصّ وما كان أعمّ نفعاً فهو بالادّخار أحقّ وقد قال الفرزدق

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفاً ... والمال بعد ذهاب المال يكتسب

وقال آخر

لكل شيء عدمته عوض ... وما لفقد الصديق من عوض

ثم لا ينبغي أن يزهد فيه لخلق أو خلقين ينكرهما منه إذا رضي سائر أخلاقه وحمد أكثر
شيمه فإن اليسير مغفور والكمال معوز وقد قال الكندي كيف تريد من صديقك خلقاً
واحداً وهو ذو طبائع أربع مع أن نفس الإنسان التي هي أخص النفوس به ومدبَّرة
باختياره وإرادته لا تعطيه قيادها في كل ما يريد ولا تجيبه إلى طاعته في كل ما
يحب فكيف بنفس غيره وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره وقد قال أبو الدرداء
معاتبة الأخ خير من فقده ومن لك بأخيك كله فأخذ الشاعر هذا المعنى فقال أبو العتاهية

أأخي من لك من بني الدنيا بكل أخيك كلك
فاستبق بعضك لا يملّك كلّ من أعطيت كلك

وقال أبو تمام الطائي

ما غبن المغبون مثل عقله ... من لك يوماً بأخيك كله

وقال بعض الحكماء طلب الإنصاف من قلة الإنصاف وقال بعض البلغاء لا يزهدنك
في رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله وبطنت عقله عيب
خفي تحيط به كثرة فضائله أو ذنب صغير تستغفر له قوة وسائله فإنك لن تجد
ما بقيت مهذباً لا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب فاعتبر بنفسك بعد أن لا تراها بعين الرضا
ولا تجري فيها على حكم الهوى فإن في اعتبارك بها واختبارك لها ما يؤيسك مما تطلب
ويعطفك على من يذنب وقال الشاعر

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

تعيّر

وقال النابغة الذبياني

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه ... على شعث أيّ الرجال المهذب

وليس ينقض هذا القول ما وصفناه من اختياره واختبار الخصال الأربع فيه لأن ما أعوز
فيه معفو عنه وهكذا لا ينبغي أن يوحشه فترة يجدها منه ولا أن ينبو به الظن
في نبوة تكون منه ما لم يتحقق تغيره ولم يتيقن تنكره وليصرفه إلى فترات النفوس
واستراحات الخواطر فإن الإنسان قد يتغير عن مراعاة نفسه التي هي أخص النفوس
به ولا يكون ذلك لعداوة بها ولا ملل منها وقد قيل في منثور الحكم لا يفسدنك الظن
على صديق قد أصلحك اليقين له وقال جعفر بن محمد لابنه يا بني من غضب من إخوانك
ثلاث مرات فلم يقل فيك سوءاً فاتخذه لنفسك خلاً وقال الحسن بن وهب من حقوق
المودة أخذ عفو الإخوان والإغضاء عن تقصير إن كان وقد روي عن علي عليه السلام
في قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال الرضا بغير عتاب وقال ابن الرومي

هم الناس والدنيا فلا بد من قذى ... يلم بعين أو يكدر مشربا
ومن قلة الإنصاف أنك تبتغي ... المهذب في الدنيا ولست المهذبا

وقال بعض الشعراء

تواصلنا على الأيام باق ... ولكن هجرنا مطر الربيع
يروعك صوبه لكن تراه ... على علاته داني النزوع
معاذ الله أن تلفى غضاباً ... سوى دلّ المطاع على المطيع

وأنشد الأزدي

لا يؤيسنك من صديق نبوة ... ينبو الفتى وهو الجواد الخضرم
فإذا نبا فاستبقه وتأنّه ... حتى يفيء به الطباع الأكرم

وأما الملول فهو سريع التغير وشيك التنكر فوداده على خطر ولخاؤه غرر لأنه لا يفي

على حالة ولا يخلو من استمالة وقد قال ابن الرومي

اذا انا عاتبت الملول فانما نخط على جار من الماء احرفا
وهبه ارعوى عند العتاب الم تكن مودته طبعا فصارت تكلفا

وهم نوعان منهم من ان يكون ملله استراحة ثم يعود الى الصحبة ومن اخائه فهو اسلم الملولين واقرب الخليلين بان يجري في استراحته وحين فترته ليرجع الى الحسنى ويؤوب الى الاحسان وان تقدم الملل اظهر به الشاعر حيث يقول

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت الى ان يرجع الماء عايدا وتعشب شطاه تموت ضفادعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا يسقط حرمته بالظنون وقد قال الشاعر

اذا ما حال عهد اخيك يوما وجار عن الصراط المستقيم
فلا تعجل بلومك واستزده فان اخا الحفاظ المستديم
فان يك له منه والا فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون ملله تركا واطراحا لا يراجع اخا ولا ودا ولا يذكر حفاظا ولا عهدا كما قال اشجع بن عمرو السلمي

اني رايت لها مواصلة كالسم نفر عنه على الشهد
فاذا اخذت بعهد ذمتها لعب الصدود بذلك العهد

وهذا اذم الخليلين حالا لان مودته رياء من الخطرات وعوارض الشهوات وليس الاستدراك لحاله معه بالاقلاع قبل الخلطة او حسن المتاركة بعد الورطة كما قال العباس بن الاحنف

تذكرت نفسي وغربتها وتغضبها قبل ابانها
وما طابت النفس عن سلوة ولكن حملت عليها لها

وما مثل من هذه حالة الا كما قال ابرهيم بن هرمة

فانك واطراحك وصل سلمى لاخرى في مودتها نكوب
كنافقة لحلي مستعار باذنيها فشانهما الثقوب
فادت حلي جارتها اليها وقد بقيت باذنيها ندوب

فاذا صفت عنده اخلاق من سبره وتهذبت له احوال من خبره واثره على اصطفائه اخا وعلى اتخاذه خدنا لزمته حينئذ حقوقه ووجبت عليه حرماته وقد قال عمر بن مسعدة العبودية عبودية الاخاء لا عبودية الرق وقال بعض الحكماء من جاد لك بمودته فقد جعلك عديل نفسه فاول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانبساط اليه في غير محرم ثم نصحه في السر والعلانية ثم تخفيف الاثقال عنه ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة او ناله من نكبة فان مراقبته في الظاهر نفاق وتركه في الشدة لوم وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال خير اصحابك المعين لك على دهرك وشرهم من سعى لك بشوق يومه وقيل يا رسول الله اي الاصحاب خير قال الذي اذا ذكرت اعانك واذا انسيت ذكرك وقال علي بن ابي طالب عليه السلام خير اخوانك من واساك وخير منه من كفاك وقال ابو هريرة اللهم اني اعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتي الا بموافقة شهوتي وممن يساعدني على سرور ساعتي ولا يفكر في حوادث غدي وقال بعض الحكماء عقود الغادر محلولة وعهوده مدخولة وقال بعض البلغاء ما ودك من اهمل ودك ولا احبك من ابغض حبك وقال بعض الشعراء

وكل اخ عند الهوينا ملاطف ولكنما الاخوان عند الشدائد

وقال صالح بن عبد القدوس

شر الاخلاء من كانت مودته مع الزمان اذا ما خاف او رغبا

اذا وترت امرا فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدى مسالمة اذا راى منك يوما فرصة وثبا

وينبغي ان يتوقى الافراط في محبته فان الافراط داع الى التقصير ولان تكون الحال بينهما نامية اولى من ان تكون متناهية وقد روى محمد بن سيرين عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه قال احبب حبيبك هونا ما عسى ان يكون بغيضك يوما ما وابغض بغيضك هونا ما عسى ان يكون حبيبك يوما ما وقال عمر بن الخطاب رحمه الله لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقال ابو الاسود الدؤلي

وكن معدنا للخير واصفح عن الاذى فانك راء ما عملت وسامع
واحبب اذا احببت حبا مقاربا فانك لا تدري متى انت نازع
وابغض اذا ابغضت غير مباين فانك لا تدري متى انت راجع

وقال عدي بن زيد

لا تامنن من مبغض قرب داره ولا من محب ان يمل فيبعدا

وانما يلزم من حق الاخا بذل المجهود في النصح والتناهي في رعاية ما بينهما من الحق فليس في ذلك افراط وان تناهى ولا مجاوزة حد وان كثر واوفى ويستوي حالاهما في المغيب والمشهد ولان يكون مغيبهما افضل من مشهدهما اولى فان فضل المشهد على المغيب لوم وفضل المغيب على المشهد كرم واستواوهما حفاظ وقد قال بعض الشعراء

علي لاخواني دين من الصفا يبيد الليالي وهو ليس يبيد
يذكرنيهم في مغيب ومشهد فسيان منهم غايب وشهيد
واني لاستحيي اخي ان ابره قريبا وان اجفوه وهو بعيد

وهكذي يقصد التوسط في زيارته وغشيانه غير مقل ولا مكثر فان تقليل

الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يا ابا هريرة زر غبا تزدد حبا وقال لبيد

لعفف عن زيارة كل يوم اذا اكثرت مل من يزور

وقال الاخر

اقلل زيارتك الصديق ولا تطل اتيانه فتلج في هجرانه
ان الصديق يلج في غشيانه لصديقه فيمل من غشيانه
حتى تراه بعد طول سروره بمكانه متثاقلا بمكانه
واذا توانى عن صيانة نفسه رجل تنقص واستخف بشانه

ويجتنب ذلك وليكن في عتابه فان كثرة العتاب سبب القطيعة واطراحه جميعه دليل على قلة الاكتراث بامر الصديق وقد قيل علة المعاداة قلة المبالاة بل يتوسط حالتي تركه وعتابه فيسامح بالمتاركه ويستصلح بالمعاتبه فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وجد وقد قال بعض الحكماء لا تكثرن معاتبه اخوانك فيهون عليهم سخطك وقال منصور النمري

اقلل عتاب من استربت بوده ليست تنال مودة بعتاب

وقال بشار بن برد

اذا كنت في كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
وان انت لم تشرب مرارا على القذى ظميت واي الناس تصفو مشاربه
فعش واحدا او صل اخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه

ثم من حق الاخا ان تغفر هفوته وتستر زلته لان من رام بريا من الهفوات سليما من الزلات رام امرا معوزا واقترح وصفا معجزا وقد قال بعض

الحكما اي عالم لا يهفوا وصارم لا ينبوا وجواد لا يكبوا وقالوا من حاول صديقا يامن
زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذي يزداد لنفسه اتعابا الا ازداد
من غايته بعدا وقيل لخالد بن صفوان اي اخوانك احب اليك فقال من غفر
زللي وقطع عللي وبلغني املي وقال بعض الشعراء

[illegible] عيق. اغضي عن اخي تقيه الا نذر من عواقب الفحص

وانشد عن الربيع للشافعي رحمه الله

احب من الاخوان كل مواتي وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل امر اريده ويحفظني حيا وبعد وفاتي
فمن لي بهذا ليتني اذ اصبته فقاسمته مالي من الحسنات
تصفحت اخواني فكان اقلهم على كثرة الاخوان اهل ثقاتي

وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد بكفيك في ادباره متعلقا
اذا انت لم تترك اخاك وزلة اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

وحكي الاصمعي عن بعض الاعراب انه قال تناس مساوي الاخوان يدم لك
ودهم ووصي بعض الادبا اخاه فقال كن للود حافظا وان لم تجد محافظا وللخل
واصلا وان لم تجد مواصلا وقال رجل من اياد ليزيد بن المهلب

اذا لم تجاوز عن اخ عند زلة فلست غدا عن عثرتي متجاوزا
وكيف يرجي البعيد لنفعه اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا
ظلمت امرا كلفته فوق وسعه وهل كانت الاخلاق الا غرايزا

وقال ابو مسعود كاتب الرضا كنا في مجلس الرضا فشكا رجل اخاه فانشا الرضا يقول

اعذر اخاك على ذنوبه واستر وغط على عيوبه

واصبر على بهت السفيه وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا وكل الظلوم الى حسيبه
واعلم بان الحلم عند الغي احسن من ركوبه

وحكي عن بنت عبد الله بن مطيع انها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف
الزهري وكان اجود قريش في زمانه ما رايت قوما الام من اخوانك قال لها
مه ولم قلت ذلك قالت اراهم اذا ايسرت لزموك واذا اعسرت تركوك
قال هذا والله من كرمهم ياتوننا في حال القوة ويتركوننا في حال الضعف بانعامهم انظر
كيف تاول بكرمه هذا التاويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر غدرهم وفا
وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوي الفضل ان يتاولوا هفوات
اخوانهم وقد قال بعض الشعراء

اذا ما بدت من صاحب لك زلة فكن انت محتالا لزلته عذرا
احب الفتى ينفي الفواحش سمعه كان به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطا اذى ولا مانعا خيرا ولا قائلا هجرا

والداعي الى هذا التاويل شيئان التغافل الحادث عن الفطنة والتالف الصادر عن
الوفا وقد قال اكثم بن صيفي من تشدد نفر ومن تراخى تالف والشرف في
التغافل وقال شبيب بن شيبة الاديب العاقل هو الفطن المتغافل
وقال بعض الحكما وجدنا اخر امور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل وقال الطائي

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

وقال ابو العتاهية

ان في صحة الاخاء من الناس وفي خلة الوفا لقله
فالبس الناس ما استطعت على النقص والا لم تستقم لك خله

عش واحداً إن كنت لا تقبل العذر وإن كنت لا تتجاوز زلة
مرابٍ واحدٍ وأم خلقنا غرانك في المال أو الاد علة

ومما يتبع هذا الفصل تألف الأعداء بما يثنيهم عن البغضة ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون بضروب من البر وتختلف بحسب اختلاف الأحوال فإن ذلك من سمات الفضل وشروط التودد فإنه ما أحد يعدم عدواً ولا يفقد حاسداً وبحسب وفور النعمة تكثر الأعداء والحسدة كما قال البحتري

ولن تستبين الدهر موقع نعمة إذا أنت لم تدلل عليها بحاسد

فإن أغفل تألف الأعداء مع وفور النعمة وظهور الحسد توالى عليه من مكرهم وبادرة سفههم ما يصير به النعمة غراماً والدعة ملالاً. وروى ابن المسيب عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى التودد إلى الناس. وقال سليمان بن داود لابنه لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق والألف قليل ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد والواحد كثير فنظم ابن الرومي هذا المعنى فقال

تكثر من الإخوان ما استطعت إنهم بطون إذا استنجدتهم وظهور
فليس كثيراً ألف خل وصاحب وإن عدواً واحداً لكثير

وقال بعض الحكماء من علامة الإقبال اصطناع الرجال. وقيل لعبد الله بن مروان ما الذي أفدت من ملكك هذا قال مودات الرجال. وقال بعض البلغاء من استصلح عدوه زاد في عدده ومن استفسد صديقه نقص من عدده. وقال بعض الأدباء العجب ممن يطرح عاقلاً كافياً لما يبصره من عداوته ويصطنع عاجزاً جاهلاً لما يظهره من محبته وهو يقدر على استصلاح من يعاديه بحسن صنائعه وأياديه. وقد قال عبد الله بن الزبير أبياتاً جامعة لكل ما قالته العرب وهي للأفوه

بلوت الناس قرناً بعد قرن فلم أر غير ختال وقال
وذقت مرارة الأشياء جمعاً فما طعم أمر من السؤال
ولم أر في الخطوب أشد هولاً وأصعب من معاداة الرجال

وقال القاضي التنوخي

الق العدو بوجه لا قطوب به يكاد يقطر من ماء البشاشات
فأحزم الناس من يلقى أعاديه في جسم حقد وثوب من مودات
الرفق يمن وخير القول أصدقه وكثرة المزح مفتاح العداوات

وأنشدت عن الربيع للشافعي رحمه الله عليه

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات
إني أحيي عدوي عند رؤيته كأنما قد حشا قلبي محبات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه لأدفع الشر عني بالتحيات
الناس داء دواء الناس قربهم وفي اعتزالهم قطع المودات

وليس وإن كان تألف الأعداء مأموراً أو إلى مقاربتهم مندوباً ما ينبغي أن يكون لهم راكناً وبهم واثقاً بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز فإن العداوة إذا استحكمت في الطبائع صارت طبعاً لا تستحيل وجبلة لا تزول وإنما يستكف بالتألف إظهارها ويستدفع به إضرارها كالنار يستدفع بالماء إحراقها ويستفاد به إنضاجها وإن كانت محرقة بطبع لا يزول وجوهر لا يتغير وقد قال الشاعر

وإذا عجزت عن العدو فداره وامزج له إن المزاج وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الإحراق

فصل

وأما البر وهو الخامس من أسباب الألفة فإنه يوصل إلى القلوب ألطافاً ويثنيها محبة وانعطافاً ولذلك ندب الله تعالى إلى التعاون

وقرنه بالتقوى لان في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع بين رضا الله وبين
رضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته روى الاعمش عن خيثمة عن ابن مسعود
قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب على حب من احسن اليها وجبلت
القلوب على بغض من اسا اليها وذكر ان الله تعالى اوحى الى داود ذكر عبادي احساني
اليهم فان عبادي لا يحبون الا من احسن اليهم وانشدني ابو الحسن بن ابي الحارث
الهاشمي

الناس كلهم عيال الله تحت ظلاله
فاحبهم طرا اليه ابرهم لعياله

والبر نوعان صلة ومعروف فاما الصلة فهي التبرع ببذل المال في جهات محموده
لغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليها سماحة النفس وسخاوها ويمنع منها شحها واباوها
قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وروى محمد بن ابراهيم
التيمي عن عروة بن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال السخي قريب من الله قريب
من الجنة قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة
بعيد من الناس قريب من النار وقال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم دفع الله عن
ابيك العذاب الشديد لسخاء نفسه وبلغه عن الزبير امساك فجذب عمامته
اليه وقال يا زبير انا رسول الله اليك والى غيرك يقول الله انفق انفق عليك ولا توك فاوكي
عليك وروى ابو الدردا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم غربت فيه
شمسه الا وملكان يناديان اللهم اعط منفقا خلفا وممسكا تلفا وانزل
ذلك في القران فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من
بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وقال ابن عباس
يعني من اعطى فيما امر واتقى فيما حظر وصدق بالحسنى يعني بالخلف من عطاياه وفقدها

قال ابن عباس سادة الناس في الدنيا الاسخيا وفي الاخرة الاتقيا وقيل في
منثور الحكم الجود عن موجود وقيل في المثل سودد بلا جود كملك بلا جنود
وقال بعض الحكما الجود حارس الاعراض وقال بعض الادبا من جاد ساد ومن
اضعف ازداد وقال بعض البلغا جود الرجل يحببه الى اضداده وبخل الرجل
يبغضه الى اولاده وقال بعض الفصحا خير الاموال ما استرق حرا وخير الاعمال ما
استحق شكرا وقال صالح بن عبد القدوس

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ويستره عنهم جميعا سخاوه
تغط باثواب السخا فانني ارى كل عيب فالسخا غطاوه

وحد السخا بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة وتدبير
ذلك مستصعب له ولعل بعضهم يحب ان ينسب الى الكرم بغير حد السخاء
ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل وان الجود بذل الموجود وهذا تكلف
يفضي الى الجهل بحدود الفضايل ولو كان حد الجود بذل الموجود لما كان للسرف
موضعا ولا للتبذير موقعا وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنه
بالنهي عنهما واذا كان السخا محدودا فمن وقف على حده سمي كريما وكان للحمد مستحقا
ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا قال الله سبحانه وتعالى ولا يحسبن الذين
يبخلون بما اتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم
القيامة وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقسم الله بعزته لا يجاوره بخيل
وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال طعام الجواد دوا وطعام البخيل دا وسمع
صلى الله عليه رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال لعن الله الشحيح ولعن
الظالم وقال بعض الحكما البخيل جلباب المسكنة وقال بعض الادبا البخيل ليس له خليل
وقال بعض البلغا البخيل حارس نعمته وخازن ورثته وقال بعض الشعراء

إذا كنت جماعاً للمال ممسكاً ... فأنت عليه خازن وأمين
تؤديه مذموماً إلى غير حامد ... فيأكله عفواً وأنت دفين

وتظاهر بعض ذوي النباهة بحب الثناء مع امساك فيه فقال فيه بعض الشعراء

أراك تؤمل حسن الثناء ... ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود أخو بطنة ... يمن كثيراً ويعطي قليلا

وقد ينشأ في حب الثناء المال لان حب الثناء باعث على البذل وحب المال يبعث منه فان كان ظهر كان حب الثناء كاذباً وقال بعض الشعراء

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما ... تيه الملوك وأخلاق المماليك
أردت شكراً بلا بر ولا صلة ... لقد سلكت طريقاً غير مسلوك
ظننت عرضك لم يقرع بقارعة ... وما أراك على حال بمتروك
لئن سبقت إلى مال حظيت به ... لما سبقت إلى شيء سوى النوك

وقد يحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة وإن كان ذريعة إلى كل مذمة أربعة أخلاق ناهيك بها ذماً وهي الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق فأما الحرص فهو شدة الكدح والإسراف في الطلب وأما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره وقد روى عن العلاء بن جرير عن أبيه عن سالم بن مسرور قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يغنيه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يكفيه وقال بعض الحكماء الشره من غرائز اللؤم وأما سوء الظن فهو عدم الثقة بمن هو أهل لها فإن كانت بالخالق كانت شكاً يؤول إلى الضلال وإن كانت بالمخلوق كانت استخانة يصير بها مخوناً وخواناً لأن ظن الإنسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فإن وجد فيها خيراً ظنه في غيره وإن رأى منها سوءاً اعتقده في الناس وقد قيل في المثل كل إناء ينضح بما فيه فإن قيل قد تقدم قول الحكماء إن من الحزم سوء الظن فقد قيل

تأويله قلة الاسترسال إليهم لا اعتقاد السوء فيهم وأما منع الحقوق فإن نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد إلى ترك مطلوبها فلا تذعن لحق ولا تجيب إلى إنصاف وإذا آل البخيل إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير مرجو ولا صلاح مأمول وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للأنصار من سيدكم قالوا الجد بن قيس على بخل فيه فقال صلى الله عليه وسلم وأي داء أدوأ من البخل قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال إن قوماً نزلوا بساحل البحر فكرهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم فقالوا ليبعد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف ببعد النساء وتعتذر الرجال ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء وأما السرف والتبذير فإن من زاد على حد السخاء فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير قال الله تعالى ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما عال من اقتصد وقال المأمون لا خير في السرف ولا سرف في الخير وقال بعض الحكماء صديق الأبله فضله وسرفه عدوه وقال بعض البلغاء لا كثير مع إسراف ولا قليل مع احتراف واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير أعظم لأن المسرف مخطئ في الزيادة والمبذر مخطئ في الجميع ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها بماله وأخطأها فهو كمن جهلها بفعاله فتعداها وكأنه بتبذيره يضع الشيء في غير موضعه فهو كالذي قد يعدل عن موضعه لأن المال أقل من أن يوضع في كل موضع من حق وغير حق وقد قال معاوية كل سرف فبإزائه حق مضيع وقال بعض الحكماء الخطأ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد وقال سفيان الثوري الحلال لا يحتمل السرف وليس يتم السخاء ببذل ما في يد حتى تسمو النفس عما في يد غيره فلا تميل إلى الطلب ولا تنكف عن بذله وقد حكي أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل عليه السلام أتدري لم اتخذتك خليلاً قال لا يا رب قال لأني

وانك تحب ان تعطي ولا تحب ان تاخذه وروى سهل بن سعد الساعدي قال اتى
رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اخبرني بعمل يحبني الله عليه ويحبني الناس فقال
ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في ايدي الناس يحبك الناس وقال ايوب السختياني لا ينبل
الرجل حتى يكون فيه خصلتان العفة عن اموال الناس والتجاوز عنهم وقيل لسفيان ما
الزهد في الدنيا قال الزهد في الناس وكتب كسرى الى ابنه هرمز يا بني استقلل
الكثير مما تعطيه واستكثر القليل مما تاخذ فان قرة عين الكرام في الاعطاء وسرور
اللئام في الاخذ ولا تعد الشحيح امينا ولا الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح
ولا مروة مع الكذب وقال بعض الحكما السخا سخاءان فاشرفهما سخاؤك
عما بيد غيرك وقال بعض البلغا السخا ان تكون بمالك متبرعا وعن مال
غيرك متورعا وقال بعض الفصحا الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود وقال
بعض الشعرا

اذا لم تكن نفس الشريف شريفة ... وان كان ذا قدر فليس له قدر

والبذل على وجهين احدهما ما ابتدا به الانسان من غير سوال والثاني ما كان من طلب
وسوال فاما المبتدي به فهو اطيبهما سخا واشرفهما عطا وسيل علي عليه
السلام عن السخا فقال ما كان منه ابتدا فاما ما كان عن مسلة فحيا وتكرم
وقال بعض الحكما اجل النوال ما وصل قبل السوال وقال بعض الشعرا

وفتى خلا من ماله ... ومن المروة غير خال
اعطاك قبل سواله ... وكفاك مكروه السوال

وهذا النوع من البذل قد يكون لاحد تسعة اسباب فالسبب الاول ان يرى خلة يقدر
على سدها وفاقة يتمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم والتدين الا ان يكون زعيم صلاحها

ويكفل بنجاحها وعنه في الاجر ان تدين وفي الشكران تكرم وقال ابو العتاهيه

ما الناس الا له مع عمله ... في الخير والشر جميعا فعله

والسبب الثاني ان يترك ماله فضلا عن حاجته وزيادة عن كفايته فيرى انتهاز
الفرصة لها فيضعها حتى تكون له ذخرا او على ... قال الحسن البصري ما
انصفك من كلفك اجلاله ومنعك ماله وقيل ... الحسن ...
قالت من كانت لي اليه حاجة ...

وما ضاع مال ورث الحمد اهله ... ولكن اموال البخيل تضيع

والسبب الثالث ان يكون لتعريض يفطن به عليه لفطنته واشارة يستدل عليها بكرمه
ولا يدعه الكرم ان يتغافل ولا الحيا ان يتخلف كالذي حكي ان رجلا سار بعض الولاة فقال يا اهل
برذونك فقال يده مع ايدينا فوصله د فاكتفى بهذا التعريض الذي بلغ ما لا يبلغه صريح السوال
ولذلك قال الحكما من صفي السخا حسن الفطنة واللوم سو التغافل وحكي ان عبيد الله بن
سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

ابى دهرنا اسعافنا في نفوسنا ... واسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم اتمها ... ودع امرنا ان المهم المقدم

فقال عبيد الله ما احسن ما ذكر امره بين اضعاف مدحه وقضى حاجته ولذلك قال بعض الشعراء

ومن لا يرى من نفسه منكرا لها ... راى طلب المستنجز بين ثقيلا

والسبب الرابع ان يكون ذلك لمعاينة يد او جزاء على صنيعة فيرى تادية الحق عليه طوعا اما انفة
او شكرا ليكون من اسر الامتنان طليقا ومن رق الاحسان عتيقا فقال بعض الحكما الاحسان
رق والمكافاة عتق وقال ابو العتاهيه

وليست ايادي الناس عندي غنيمة ... ورب يد عندي اشد من الاسر

والسبب الخامس ان يوثر الاذعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه لتوطيد الرياسة وهو لها محب وكلف

طلبها مكتب وقد قال الشاعر

حب الرياسه دا الادوا له وقل ما تجد الراضين بالقسم

تستصعب عليها اجابة النفوس له طوعًا الا بالاستعطاف واذعانها الا بالرغبه والاسعاف فقد قال بعض الادبا بالاحسان يرتبط الامتنان وقال بعض البلغا من بذل ماله ادرك امالهُ وقال بعض الشعراء

اترجو ان تسود ولا تعني وكيف يسود ذو الدعة البخيل

والسبب السادس ان يستدفع به سطوة اعدايه ويتكف به بغي الخصما اليسير والله بعد الخصومة اعوانا وبعد العداوة اخوانا اما الصيانه عرض واما الحراسة مجد وقد قال ابو تمام الطائي

فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا الجود في كف امري والدراهم

ولم ار كالمعروف تدعى حقوقه مغارم في الاقوام وهي مغانم

وقال بعض الادبا من عظمت مرافقته اعظمه مرافقته والسبب السابع ان يرب به سالف صنيعه او الاها ويراعي به قديم نعمة اسداها كيلا ينسي ما اولاه او يضاع ما ابتداه فان مقطوع البر ضايع ومهمل الاحسان ضال وقد قال الشاعر

وسمت امرا بالعرف ثم اطرحته ومن افضل الاشيا رب الصنايع

وقال محمود بن داود الاصفهاني

بدات بنعمي اوجبت لك حرمة عليك فعد بالفضل والعود احمد

والسبب الثامن المحبة التي يوثرها المحبوب على ماله فلا يظن عليه بمرغوب ولا ينفس عليه بمطلوب اللهم التي هي عنده احظى والى نفسه اشهي لان النفس الى محبوبها اشوق والى ما يليه اسبق وقال الشاعر

وما ادخركم عمدا ولكن ذا الهوى الى حيث يهوى القلب يهوى به الرجل

وهذا وان دخل في اقسام العطا فخارج عن حد السخا وهكذي الخامس والسادس من هذه

الاسباب وانما ذكرناهما لدخولها تحت اقسام العطاء والسبب التاسع وليس ان يفعل ذلك لغير ما سبب وانما هي بجبلته قد فطر عليها وشيمة قد طبع لها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين محمود ومذموم كما قال بشار

ليس يعطيك للرجا ولا الخوف ولكن يلذ طعم السخا

وقد اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخا فيحمد ام هو خارج منه فيذم فقال قوم هذا هو السخي طبعا والجود كرما وهو احق به من كان محمودا قالوا التمييز نصف البخل والبذل بسبب الجا وضروره وقال ابو تمام

من غير ما سبب تدني كفي سببا اللحر ان يجتدي حرا بلا سبب

وقال الحسن ابن سهل اذا لم اعط الا مستحقا فكاني اعطيت غريما وقال الشرف في السرف فقيل له لا خير في السرف فقال ولا سرف في الخير وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه وقال بشار

وما الناس الا ما جال فمنهم سخي ومغلول اليدين من البخل

فسامح بما ملكت فانما نقل وتثري والعواذل في شغل

وقال الاخرون هذا خارج من السخا المحمود الى السرف والتبذير المذموم لان العطا اذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب لان المال يقل عند الحقوق ويفقد عند الواجبات فاذا اعطي غير مستحق وحسبك ذما بمن كان افضاله يصدر عن غير تمييز ويوجد لغير طلبة وقد قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا فنهي عن بسطها سرفا كما نهي عن قبضها بخلا فدل على ان ستو الامرين ذما وانتفاهما لوما قال الشاعر

وكان المال ياتينا فكنا نبذره وليس لنا عقول

فلما ان تولى المال عنا عقلنا حيث ليس لنا فضول

قالوا لان العطا والمنع اذا كانا لغير علة افضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر العطا اما الممنوع فانه قد

فضل عليه من ساواه واما المعطا فلانه وجده لكل انفاقا وربما امل بالانفاق امتنانا فصار ذلك منفيا الى اجتلاب الذم واجابة الشكر وليس فيما افضى الى واحد منهما خير يرتجى وهو جدير ان يكون شرا يتقى ولمثل ذلك من الجميع اعطا الجميع وعطا بلوز المنع ابهر منه خسران بنيك واما اذا كان البذا والسايل جزا او طلبه فشروطه معتبرة في وجهين احدهما في السايل والثاني في المسؤول فاما ما كان معتبرا في السايل فثلاثة شروط فالشرط الاول ان يكون السوال لسبب والطلب لموجب فانه اذا كان عن ضرورة انتفى عنه الحرج وسقط عنه اللوم وقد قال بعض الحكما الضرورة تريح الصدر وقال بعض الشعراء

الا قبح الله الضرورة انها تكلف اعلى الخلق ادنى الخلايق

ولله در الاتباع فانه يبين فضل السبق من غير سابق

وقال الكميت

اذا لم يكن الا الاسنة مركب فلا راي للمضطر الا ركوبها

فان دفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو اولى الامرين ان يكون وان جاز ان لا يكون في النفس المسامحة تغلب الحاجة وتستنجح في الطلب وتراعي ما تستقيم به الحال وينتظم به امر وان نالت بذلة ولحق دهين دنا ولصاحبها قول البحتري

وربما كان مكروه الامور الى محبوبها سببا ما مثله سبب

والنفس الشريفة تطلب الصيانة وتراعي النزاهة وتحتمل من الضر ما احتملت ومن الشدة ما طاقت ليبقى تجملها ويدوم تصونها فتكون كما قال الشاعر

وقد يكتسي المرء خز الثياب ومن دونها حالة مضنية

كمن يكتسي خده حمرة وعلتها ورم في الرية

ولا يرى انه تدنس بمطالب الشوم ومطامع اللوم فان من البهائم الوحشية ما يابى ذلك ويانف منه قال الشاعر

وليس الليث من جوع بغاد على جيف يحيط به كلاب

فكيف بالانسان الفاضل الذي هو اكرم الحيوان جنسا واشرفه نفسا فهل يحسن به ان يرى لوحشي البهايم عليه فضلا وقد قال الشاعر

على كل حال ياكل المرء زاده على البوس والضرا والحدثان

والفضل في مثل هذا ما قيل لبعض الزهاد لو سالت تجارك لاعطوك فقال والله ما اسال الدنيا من يملكها فكيف من لا يملكها ووصف بعض الشعراء اقواما فقال

اذا افتقروا اعضوا الى الضر حسبة وان ايسروا عادوا سراعا الى الفقر

فاما ان سال من غير ضرورة مستكثرا لا حاجة دعت فذلك صريح اللوم ومحض الدناءة وقل ما يوجد مثله الا محروما او مملولا محظوظا لان الحرمان قاده الى اضيق الارزاق واللوم ساقه الى اخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء الا اراقه ولا ذل الا ذاقه قال عبد الصمد بن المعذل لابي تمام الطائي

انت بين اثنتين تبرز للناس وكلتاهما بوجه مذال

لست تنفك طالبا لوصال من حبيب او طالبا لنوال

اي ماء لحر وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السوال

وقد قال الشاعر

ولو استقبح العار وانف من الذل لوجد عن السوال مكسبا يمونه ولقدر على ما يقله ويصونه

لا تطلبن معيشة بتذلل فلياتينك رزقك المقسوم

واعلم بانك اخذ كل الذي لك في الكتاب محبر مرقوم

والشرط الثاني من شروط السوال ان يضيق الزمان عن ارجائه ويقصر الوقت عن ابطائه فلا يجد لنفسه في التاني فسحة ولا في التمادي مهلة فيصير من المحذورين واحدا في عداد المضطرين فاما والوقت متسع والزمان ممتد فتعجيل السوال لوم وقنوط قال الشاعر

ابني ان اغضا الجفون على القذى يغني والاعسر الانفرج

الا ما ضاق الفضا باهله ولكن من بين الاسنة مخرج

والشرط الثاني ... ان يكون مرجو الاجابة مأمول النجح اما لحرمة السايل
لديه او لحاجة المسئول اليه فان سال ما لا يرجى لحرمة ولا يولى بحرمة فهو في اختياره ما دام
... وقد قال بعض الحكما المجد لمن كانت له الى اللئام
حاجة ... اذا ... واقل من اللئيم نائله وقال
بعض الشعرا

من كان يامل ان يرى من ساقط نيلا سنيا
فلقد رجا ان يجتني من عوسج رطبا جنيا

واما الشروط المعتبرة في المسئول فثلثة فالشرط الاول ان يكتفي بالتعريض ولا يلجي الى السوال
الصريح ليصون السايل عن ذل الطلب فان الحال ناطقة والتعريض كاف وقد قال الشاعر

اقول وسترة الدجى مسبل كما قال حين شكا الضفدع
كلامي ان قلته ضائري وفي الصمت حتفي فما اصنع

التصريح

وربما فهم المسئول الاشاره فالجا الى التصريح بالعبارة تهجينا للسايل ليخجل فيمسك
ويستحيي فيكف كما قال ــــ ابو تمام

من كان مفقود الحيا فوجهه من غير بواب له بواب

والشرط الثاني ان يتلقى بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة والتقريب ليكون
مشكورا ان اعطى ومعذورا ان منع وقد قال بعض الحكما الق صاحب الحاجة
بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره وحكي ان ابا بكر ابن دريد
قصد بعض الوزرا في حاجته فلم يقضها وظهر له منه ضجر فقال ــــ

لا تدخلنك ضجرة من سائل فلخير دهرك ان ترى مسؤولا
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل فبقاء عزك ان ترى مامولا

تلقى الكريم فتستدل ببشره وترى العبوس على اللئيم دليلا
واعلم بانك عن قليل صائر خبرا فكن خبرا يروق جميلا

والشرط الثالث تصديق الامل فيه وتحقيق الظن به ثم اعتبار حاله وحال
سايله فانهما لا يخلوان من اربعة احوال فالحال الاولى ان يكون السايل مستحقا
والمسئول متمكنا فالاجابة هاهنا تستحق كرما وتلزم مروة وليس الحامل على الرد
الا لؤم استولى عليه البخل وهان عليه الذم فيكون كمن قال فيه عبد الرحمن بن حسان

اني رايت من المكارم حسبكم ان تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذكرت المكارم مرة في مجلس انتم به فتقنعوا

ونعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله ان يكون مستودعا في صنيع
مشكور وبذم مذموم وقيل لبخيل لم حبست مالك فقال للنوائب فقيل قد نزلت بك وقال
بعض الشعرا

ما لك من مالك الا الذي قدمت فابذل طائعا مالكا
تقول مالي ولو فتشوا ادانت اعمالك اعمى لكا

ثم قد اسقط حق نفسه ودفع اسباب شكره فصار بان لا حق له مذموما كمثل دما ثوما وماجور
وقال ــــ ابو العتاهيه

جزى البخيل علي صالحة اذ لم يثقل بره ظهري
ما فاتني خير امرئ وضعت عني يداه مؤنة الشكر

فاذا لم يكن الى الرد في مثل هذه الحال سبيل نظر فان كان الناجز منها اعجل بذله وقطع
مطله وكانت اجابته فعلا وقوله علا وقد قالت الحكما من مروة المطلوب اليه ان لا
يلجي الى الالحاح عليه وقال ــــ محمد بن حازم

ومنتظر سوالك بالعطايا واشرف من عطاياك السوال

اذا لم يكن المعروف طوعا فبعده فالتنزه عنه كمال

وان كان الوفا في الوقت مفضلا في الاخير فسحة فقد اختلف مذاهب الفضلا فيها فذهب بعضهم الى ان الاولى تعجيل الوعد لانه يعقبه الانجاز مقبلا ليكون السائل مسرورا بتعاجل الوعد ثم يتبعه الانجاز حتى يكون المبذول بعد ذلك الكرم ملحوظا بالوفا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العدة عطية وروي ان الفضل بن سهل لرجل ساله حاجة اعدك اليوم واحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة الامل وتمرن بحسن الوفا ووعد يحيى بن خالد رجلا حاجة ساله اياها فقيل له تعد وانت قادر فقال الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبها نجحه لم يحل سرورها لان الوعد طعم والانجاز طعام وليس من جاء الطعام كمن يجد ريحه ويطعمه فتح الحاجة فختم بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه وقال بعض البلغا اذا احسنت القول فاحسن الفعل ليجتمع لك مزية اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل ما لا تفعل فانك لا تخلو في ذلك من ذنب تكتسبه او عجز تلتزمه ومنهم من ذهب الى ان تعجيل البذل فعلا من غير وعد اولى وتقديمه له من غير ترقب ولا انتظار احسن وانما يتقدم الوعد واحد من حالين اما معوز ينتظر جدة واما مشجع يروض نفسه توطئة وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه يصح ولا راي معا يتضح بغرة الليل والنهار ويتقلب به من يسار واعسار وقال بعض الشعراء

يا ايها الملك المعدم امره شرقا وغربا

امنن بختم صحيفتي ما دام هذا الطين رطبا

واعلم بان جنانه مما يجيبه البهل صعبا

قالوا لان في الرجوع عنه من الانكسار وفي توقع الوعد من مرارة الانتظار في العود اليه من بذله الاقتصار وذلك الاجتذا وما يتعقد بره ويوهن شكره وقد قال الشاعر

ان الكواعب ربما ازري بها عد الذي يقضي له تطويلها

فاذا ضمنت لصاحب الحاجة فاعلم بان تمام القضا تعجيلها

والحال الثانية ان يكون السائل غير مستوجب والمسؤول غير متمكن فيخفي الرد فسحة وفي الرد عذر غير انه يلين عند الرد لينا يتقيه الذم ويظهر عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقل يعرف ولا كل معذور يعذر فقد انشد ابو العتاهية يصف الناس

ايا رب ان الناس لا ينصفونني ولي ان انصفتهم ظلموني

وان كان لي شي تصدوا لاخذه وان جئت ابغي شيهم منعوني

وان نالهم بذلي فلا يشكرونني وان انا لم ابذل لهم شتموني

وان طرقتني نكبة فرحوا بها وان صحبتني نعمة حسدوني

سامنع قلبي ان يحن اليهم واحجب عنهم ناظري وجفوني

واقطع ايامي بيوم سهولة اقضي بها عمري ويوم حزون

الا ان اصفى العيش ما طاب غبه وما نلته في لذة وسكون

والحال الثالثة ان يكون السائل مستوجبا والمسؤول غير متمكن فياتي بالجمل على النفس ما امكن ويتيسر ليسد خلته ويدفع مذمته ويتوضع من اعذار المعوزين وتوجع المتالمين ما يجعله في المنع معذورا وبالتوجع مشكورا كما قال ابو نصر العتبي

الله يعلم اني لست ذا بخل ولست ملتمسا في البخل لي عللا

لكن طاقة مثلي غير خافية والنمل يعذر في القدر الذي حملا

وربما تحسن بعد وقت العجز بعد تقدم القدرة على فوت الصنيعة وزوال العادة حتى صار ابنا حسدا او يزيد كمدا كما قال بعض الشعراء

وكنت كباز السو قص جناحه يرى حسرات كلما طار طاير

يرى طايرات الجو يخفقن حوله فيذكر اذ ريش الجناح حين وافر

والحال الرابعة ان يكون السائل غير مستوجب والمسؤول متمكنا وعلى البذل قادرا فهذا ان

خاف بالرد قدح عرضه وقبح هجائه فمضى كان الى البذل مندوبا صيانة لا جودا فقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقى به المؤمن عرضه فهو صدقة وان امن ذلك وسلم فمن
الناس من غلب المسئلة امر البذل ليلا يقابل الرجا بالخيبة والامل بالاياس ثم لما فيه
من اعتياد الرد واستثقال المنع وكما ان اعتياد البذل يفضي الى السخا كذلك اعتياد
المنع يفضي الى الشح وانشد الاصمعي عن الكسائي

كان اخي في الكتاب وجدت لا تحرمه علك فلا تعل
فما تدري اذا اعطيت مالا اتكثر من سماحك ام تقل
اذا حضر الشتا فانت صيف وان حضر المصيف فانت ظل

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السايل وندب الى المنع اذا كان العطا في
غير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت وقال
بعض الشعراء

لا تجد بالعطا في غير حق ليس في منع غير ذي الحق بخل
انما الجود ان تجود على من هو للجود والندى منك اهل

فاما من اجاب السوال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وصار وفاه بالوعد
مقرونا والاعتبار باستحقاق بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه في الرد فيستوجب
مع ذم المنع لوم المخلف ومقت الغادر وهجنة الكذوب ثم لا سبيل الى مطله بعد
الوعد لما في المطل من تكدير الصنيع وتمحيق الشكر والعرب تقول في امثالها المطل احد
المنعين والياس احد النجحين وقال بشار بن برد

الملت علينا منك يوما غمامة اضاءت لنا برقا وابطا رشاشها
فلا غيمها يجلي فييأس طامع ولا غيثها ياتي فتروى عطاشها

ثم اذا انجز وعده واوفى بعهده لم يتبع نفسه ما اعطى وسر ان كانت يده العليا فقد

قال النبي صلى الله عليه اليد العليا خير من اليد السفلى وقال الشاعر

وانك لا تدري اذا جا سايل انت بما تعطيه ام هو اسعد
عسى سايل ذو حاجة ان منعته من اليوم سولا ان يكون له غد

ولكن من سروره اذا كانت الارزاق مقدوره ان يكون على يديه نجاحه ومن جهته نو
واصله لا ينتقل عنه بمنع ولا يتحول عنه بالياس وحكي ان رجلا شكى كثرة عياله منهم
الى بعض الزهاد فقال انظر من كان منهم ليس رزقه على الله فحوله الي وقال
ابن سيرين لرجل كان ياتيه على دابة ففقد الدابة فقال ما فعل برذونك فقال اشتدت علي
مونته فبعته قال افتراه خلف رزقه عندك وقال ابن الرومي

ان لله عز مر عالم ترعيه وعز مالك مسآء
ان لله بالبرية لطفا سبق الامهات والابا

ثم ليكن غالب عطايه لله واكثر قصده ابتغا ما عند الله كالذي حكاه ابو جعفر عن عمر
بن الخطاب رضي الله عنه ان اعرابيا اتاه فقال

يا عمر الخير جزيت الجنه	اكس بنياتي وامهنه
وكن لنا من الزمان جنه	اقسم بالله لتفعلنه
فقال عمر ان لم افعل يكون ماذا فقال	
اذا ابا حفص لاذهبنه	قال فاذا ذهبت يكون ماذا قال
يكون عن حالي لتسالنه	يوم تكون الاعطيات هنه
والموقف المسول بينهنه	اما الى نار واما جنه

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته ثم قال يا غلام اعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره اما والله لا
املك غيره واذا كان العطا على هذا الوجه خاليا من طلب جزا وشكر وعريا عن امتنان ونشر
فان ذلك اشرف للباذل واهنا للقابل فاما المعطي اذا التمس بعطايه الجزا وطلب به

الشكر والثنا فخارج بعطايه عن السخا لانه طلب به الشكر والثنا كان صاحب سمعة وريا وفي
هذين من الذم ما ينافي السخا وان طلب به الجزا كان تاجرا متربحا لا يستحق حمدا ولا مدحا وقد
قال ابن عباس في تاويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر انه الذي يعطي عطية يلتمس بها افضل
منها وكان الحسن البصري يقول في تاويل ذلك لا تمنن بعملك تستكثره على ربك
وقال ابو العتاهية

وليس يد اوليتها بصنيعة اذا كنت تبغي ان تعد لها شكرا
احب الفتى ينفي الفواحش سمعه كان به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسطا اذى ولا مانعا خيرا ولا قائلا هجرا
غنا المرء ما يكفيه من سد حاجة فان زاد شيا عاد ذاك الغنى فقرا

واعلم ان الكريم يجتدي بالكرامة واللطف واللئيم يجتدي بالمهانة والعنف فلا يجود
الا خوفا ولا يجيب الا عنفا كما قال الشاعر

دايتك مثل الجوز يمنع لبه صحيحا ويعطي لبه حين يكسر

واحذر ان يكون للمهابة طريقا الى الجد اليك او للخوف سبيلا الى عطايك فيجر عليك سفه
الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبا لا لوما ورهبا كي لا تكون مع الوصمة
كما قال العباس بن الاحنف

ومن كاني ذبالة نصبت تضي للناس وهي تحترق

واما النوع الثاني من البر فهو المعروف ويتنوع ايضا نوعين قول وعمل فاما القول فهو طيب
الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث على حسن الخلق ورقة
الطبع ويجب ان يكون محدودا كالسخا فانه ان اسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسطه
واقتصد فيه كان معروفا وبرا محمودا وقد قال ابن عباس في تاويل قوله تعالى والباقيات
الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا انها الكلام الطيب وكان سعيد بن جبير

يتاول انها الصلوات الخمس وروى ابو سعيد عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكم
لن تسعوا الناس باموالكم فاوسعوهم باخلاقكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن
الخلق وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم انشد عنده قول اعرابي

حي ذوي الاضغان تسب قلوبهم تحيتك الحسنى فقد يرقع النغل
فان الذي يوذيك منه سماعه وان الذي قالوا وراك لم يقل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكما وان من البيان لسحرا وقيل العاقل من يلقى العامة
ببشر وتقريب قال دفع ضغينة بايسر مؤونة واكتساب اخوان بايسر مبذول وقيل
في منثور الحكم من قل حياوه قل احباوه وقال بعض الشعراء

بني ان البر شي هين وجه طليق وكلام لين

وانشد بعضهم

المرء لا يعرف مقداره حتى يبين للناس افعاله
وكل من يمنعني بشره فقل ما ينفعني ماله

واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمعونة في النايبة وهذا يبعث عليه
حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس في هذه الامور سرف ولا لغايتها حد
بخلاف النوع الاول لانها وان كثرت فهي افعال خير تعود بنفعين نفع على فاعلها
في اكتساب الاجر وجميل الذكر ونفع على المعان بها في التخفيف عنه والمساعدة له
وقد روى محمد بن المنكدر عن جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة
وقال النبي صلى الله عليه المعروف كاسمه واول من يدخل الجنة المعروف واهله
وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لا يزهدنك في المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر
باضعاف جحود الكافر وقال الحطيئة

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لم يذهب العرف بين الله والناس

وانشد الرياشي

يد المعروف غنم حيث كانت تحملها كفور او شكور

ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفر الكفور

فينبغي لمن قدر على ابتداء المعروف ان يعجله حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه وليعلم انه
من فرص زمانه وغنايم امكانه ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه فكم واثق بقدرة فاتت
فاعقبت ندما ومعول على مكنة زالت فاورثت خجلا كما قال الشاعر

ما زلت اسمع كم من واثق بخجل حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوايب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخورة ومغارمه مجبورة
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح وقيل
لانوشروان ما اعظم المصايب عندكم فقال ان تقدر على المعروف فلا تصطنعه حتى
يفوت. وقال عبد الحميد من اخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها وقال
بعض الشعرا

اذا هبت رياحك فاغتنمها فان لكل خافقة سكون

ولا تغفل عن الاحسان فيها فما تدري السكون متى يكون

وحكي ان بعض وزرا ابي العباس مطل راغبا اليه في عمل يستكفيه اياه فكتب اليه
بعد طول المطل به

اما يدعوك طول الصبر مني على استنجاز منفعتي وشغلي

وعلمك ان ذا السلطان غاد على خطر من موت وعزل

وانك ان تركت قضا حقي الى وقت التفرغ والتخلي

ستصبح نادما اسفا مغيرا على فوت الصنيعة عند مثلي

وكتب بعض ذوي الحرمات الى وال فقصر في رعاية حرمته

اعلى الصراط تريد رعية حرمتي ام في الحساب تمن بالانعام

للنفع في الدنيا اريد فانتبه لحوايجي من رقدة النوام

وكتب ابو علي البصير الى بعض الوزرا وقد اعتذر اليه بكثرة الاشغال

لنا كل يوم نوبة قد ينوبها وليس لنا رزق ولا عندنا فضل

فان تعتذر بالشغل عنا فانما تناط بك الامال ما اتصل الشغل

واعلم ان للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن اذاعة تستطيل
لها واخفاوه عن اشاعة تستذل بيانه. وقال بعض الحكما اذا اصطنعت المعروف
فاصطنعه واذا اصطنع اليك فانشره. وقال دعبل الخزاعي

اذا انتقموا اعلنوا امرهم وان انعموا انعموا باكتتام

تقوم القعود اذا اقبلوا وتقعد هيبتهم بالقيام

على ان ستر المعروف من اقوى اسباب ظهوره والبعث دواعي نشره لما جبلت النفوس
من اظهار ما اخفي واعلان ما كتم وقد قال سهل بن هرون

خل اذا جيته يوما لتسأله اعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

يخفي صنايعه والله يظهرها ان الجميل اذا اخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف تصغيره عن ان يراه مستكبرا وتقليله عن ان يكون مستكثرا
ليلا يصير به بطرا او مستطيلا اشراه. قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه
لا يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هنأته واذا
صغرته عظمته واذا سترته تممته. وقال بعض الشعراء

زاد معروفك عندي عظما انه عندك مستور حقير

وتناسيت كان لم تاته وهو عند الناس مشهور خطير

ومن شروط المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله لما فيهما
من اسقاط الشكر واحباط الاجر وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والامتنان

صدقاتكم

بالمعروف فانه يبطل الاجر ويمحق الشكر ثم قال لا تبطلوا اعمالكم بالمن والاذى وسمع ابن
سيرين رجلا يقول لرجل فعلت اليك وفعلت فقال ابن سيرين اسكت فلا خير
في المعروف اذا احصي وقال بعض الحكما المن مفسدة الصنيعه وقال بعض
الادبا كدر معروفا امتنان ضيع حسبا امتهان وقال بعض البلغا من
من بمعروفه سقط شكره ومن اعجب بعمله حبط اجره وقال بعض الفصحا افة
البر من صنعه المنه وقال بعض الشعرا

افسدت بالمن ما اسديت من حسن ليس الكريم اذا اسدى بمنان

وقال ابو نواس

فامض لا تمنن علي يدا منك المعروف من كدره

وانشدت للربيع عن الشافعي

لا تحملن لمن يمن عليك من الانام منه واختر لنفسك حظها واصبر فان الصبر جنه
منن الرجال على القلوب اشد من وقع الاسنه

ومن شروط المعروف ان لا يحتقر منه شيا وان كان قليلا ولا يزدريه اذا كان
الكثير معوزا وكنت عنه عاجزا فانه من حقر يسيرا منع منه اعجزه كثيره فاقنع عنه
وفعل قليل الخير افضل من تركه وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال لا يمنعكم من معروف
صغيره وقال عبد الله بن جعفر لا تستحي من البخل اقل منه ولا تجبن من الكثير (القليل فان)
فانك اكثر منه وقال الشاعر

اعمل الخير ما استطعت وان كان قليلا فلن تحيط بكله
ومتى تفعل الكثير من الخير اذا كنت تاركا لاقله

على ان من المعروف ما لا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو جاه يستطال به
الادنى ويرتفق به التابع وقد قال الشاعر

ظل الفتى يمنع (ينفع) من دونه وما له من ظله حظ

واعلم انك لن تستطيع ان توسع جميع الناس برك ولا ان توليهم احسانك فاعتمد
بذلك اهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوي الديانة والوداد لكي يكون
فيهم ناميا وصنيعك عندهم زاكيا وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال لا تنفع
الصنيعه الا عند ذي حسب ودين وقال النبي صلى الله عليه اذا اراد الله بعبد
خيرا جعل صنايعه في اهل الحفاظ وقال حسان بن ثابت

ان الصنيعه لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا صنعت صنيعة فاعمد بها لله او لذوي القرابه او دع

وقيل في منثور الحكم لا خير في معروف الى غير عروف وقد ضرب به الشاعر مثلا فقال

كحمار السو ان اشبعته رمح الناس وان جاع نهق

وقال بعض الحكما على قدر المغارس يكون اجتنا الغارس فاخذه بعض الشعرا فقال

لعمرك ما المعروف في غير اهله وفي اهله الا كبعض الودايع
فمستودع ضاع الذي كان عنده ومستودع ما عنده غير ضايع
وما الناس في شكر الصنيعه عندهم وفي كفرها الا كبعض المزارع
فمزرعه طابت واضعف نبتها ومزرعه اكدت على كل زارع

فاما من اسدي اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار باسر المعروف
موثقا وفي ملكة الاحسان مربوقا ولزمه ان كان من اهل المكافاة ان يكافي عليه ان
وان لم يكن من اهلها ان يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره وروي عن
النبي صلى الله عليه انه قال من اودع معروفا فليشكره فان نشره فقد شكره وان كتمه
فقد كفره وروى الزهري عن عروة عن عايشة رضي الله عنها قالت دخلت على رسول
الله صلى الله عليه وانا اتمثل بهذين البيتين [illegible]

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك او يثني عليك وان من اثنى عليك بما فعلت فقد جزا
فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردي على قول اليهودي قاتله الله لقد اتاني جبريل برسالة
من ربي تعالى ايما رجل صنع الى اخيه صنيعة فلم يجد لها جزا الا الدعا والثنا
فقد كافاه وقيل في منثور الحكم الشكر قيد النعم وقال عبد الحميد من لم
يشكر الانعام فاعدده من الانعام وقيل في منثور الحكم قيمة كل نعمة شكرها
وقال بعض الحكما كفر النعم من امارات البطر واسباب الغير وقال بعض
الفصحا الكريم شكور او مشكور واللئيم كفور او مكفور وقال بعض البلغا لا
زوال للنعمة مع الشكر ولا بقا لها مع الكفر وقال بعض الادبا شكر الاله
بطول الثنا وشكر الولاة بصدق الولا وشكر النظير بحسن الجزا
وشكر الدني بسبب العطا وقال ــــ بعض الشعرا

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد لعزة ملك او علو مكان
لما امر الله العباد بشكره فقال اشكروا لي ايها الثقلان

فان شكر معروف من احسن اليه ونشر افضال من انعم عليه فقد ادى حق النعمه وقضى
موجب الصنيعه ولم يبق عليه الا استدامة ذلك ليكون الشكر لما
للمزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا حكي ان الحجاج اتي بقوم
من الخوارج وكان فيهم صديق له فامر بقتلهم الا الرجل الصديق فانه عفا عنه
واطلقه ووصله فرجع الرجل الى قطري وكان من اصحابه فقال عد الى قتال
عدو الله الحجاج فقال هيهات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها
وانشا يقول ــــ

أأقاتل الحجاج عن سلطانه بيد تقر بانها مولاته

اني اذا لاخو الدناة والذي شهدت باقبح فعله غدراته
ماذا اقول اذا وقفت ازاه في الصف واحتجت له فعلاته
اقول جار علي لا اني اذا لاخو من جارت عليه ولاته
وتحدث الاقوام ان صنائعا غرست لدي فحنظلت نخلاته

وقيل في منثور الحكم المعروف رق والمكافاة عتق من اشعر الاشعار الذي يقول

لا اشكرنك معروفا هممت به ان اهتمامك بالمعروف معروف
ولا الومك ان لم يمضه قدر فالشي بالقدر المحتوم مصروف

وهذا النوع من الشكر الذي يجعل المعروف ويتقدم البر فقد يكون على وجوه فيكون
تارة من حسن الثقة بالمشكور وفي وصول بره واستدامة عرفه ولا ادا يحسن به ظن
شاكر ان يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال ــــ الغساني

قد اورقت فيك امالي بوعدك لي وليس يحسن في ورق الامال ثمر

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي وحسن مكافاة الامل والرضا بنفسه الا انه
بتعجيل الحق وائتلاف الشكر وليس لمن صادف المعروف معدا دانيا ومعرضا نائيا ان
يفوت نفسه غنما ولا يعدم مغارما فهذا وجه ثان وقد تكون تارة ارتهانا للمامول
او حثا للمسئول وبحسب ما اسلف من الشكر يكون الذم عند الاياس وقال ــــ
بعض الحكما المتقدمين من شكر لك على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس
فصار ذما وقال ــــ ابن الرومي في ذلك

وما الحقد الا توام الشكر في الفتى وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذي اساة فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الارض ادت ريع ما انت زارع من البذر فيها فهي ناهيك من ارض

فاما من ستر معروف النعم ولم يشكر على ما اولاه من نعمه فقد كفر النعمه وجحد الصنيعة

وإن لم يجد من الطرائق عما يستوجب به قبح الرد وسوء المنع. وقد روى
أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يشكر الله من لا يشكر الناس. وقال بعض
الحكماء: اشكر المنعم عليك وأنعم على الشاكر لك. وقال بعض الفصحاء: من كفر نعمة المفيد
استوجب حرمان المزيد. وقال بعض البلغاء: من أنكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة.
وأنشدني بعض الأدباء ذكر أنه لعلي بن أبي طالب عليه السلام:

ونعمة الله بالشكر المختص على النعم مقتالها
لو شكروا النعمة زادهم مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو إلى زوالها والشكر أبقى لها

فهذا أحد ما يتعلق بالقاعدة الثانية من أسباب الألفة الجامعة. فصل
وأما القاعدة الثالثة فهي المادة الكافية لأن حاجة الإنسان لازمة لا يعرى منها
بشر. قال الله تعالى: وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين. فإذا عدم
المادة التي هي قوام نفسه لم تدم حياته ولم تستقم له دنياه، وإذا تعذر شيء منها عليه لحقه من
الوهن في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه، لأن الشيء القائم
بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله. ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة إليها أعوزت بغير
طلب وعدمت بغير سبب. وأسباب المواد مختلفة وجهات المكاسب متشعبة ليكون
اختلاف أسبابها علة للائتلاف بها، وتشعب جهاتها توسعة لطلابها، لئلا يجتمعوا على
سبب واحد فلا يلتئمون، أو يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفون. ثم هداهم إليها بعقولهم
وأرشدهم إليها بطباعهم حتى لا يتكلوا إلا بهم في المعايش المختلفة بعجز، ولا يعانوا
بتقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا، حكمة منه سبحانه اطلع بها على عواقب
الأمور. وقد أنبأ الله تعالى في كتابه إخبارا وإذكارا بقوله سبحانه: قال ربنا الذي أعطى كل شيء

خلقه ثم هدى. فاختلف المفسرون في تأويله، فقال قتادة: أعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه
له. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته ثم هداه إلى معيشته. وقال ابن عباس: أعطى كل شيء
زوجه ثم هداه لنكاحه. وقيل: إنه تعالى يعلمهم وطرق الحيلة فيما يبتغي من معايشهم
متى يزرعون ومتى يغرسون وهم عن الآخرة هم غافلون. وقال تعالى: وقدر فيها أقواتها
في أربعة أيام سواء للسائلين، يعني المريد في أرزاقهم والمتشوف إلى معايشهم دنيا
يكون حكمها شرعا يكون عليهم فيما يصلحوا إليه أبدانهم ويتعلق بها الهيئات ما ينهم
تبدلت بصيرتهم حتى لا ينفردوا بآرائهم فيتبعوا ما تستولي عليهم أهواؤهم فيضلوا. قال الله تعالى:
ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض. قال الحسن: الحق في هذا الموضع
هو الله جل وعلا. فلأجل ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالإلهام حتى جعل العقل هاديا إليها
والدين قاضيا عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة. ثم إنه جلت عظمته جعل سد حاجتهم
وتوصلهم إلى منافعهم من وجهين: بمادة وكسب. فأما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول
نامية بذواتها، وهي شيئان: نبت نام وحيوان متناسل. قال الله تعالى: وأنه هو أغنى وأقنى.
قال أبو صالح: أغنى خلقه بالمال وأقنى جعل لهم قنية هي أصول الأموال. وأما الكسب
فيكون بالأفعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة، وذلك من وجهين: أحدهما
تقلب في تجارة، والثاني تصرف في صناعة. وهذان الوجهان فيهما فرع لوجهي المواد.
فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من أربعة أوجه: نماء زراعة
ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة. وقد حكى الحسن بن رجاء نحو ذلك عن
المأمون قال: سمعته يقول: معايش الناس على أربعة أقسام: زراعة وصناعة وتجارة
وإمارة، فمن خرج عنها كان كلا عليها. وإذ قد تقررت أسباب المواد بما ذكرنا فسنصف
حال كل واحد منها بقول موجز. فأما الأول من أسبابها وهو الزراعة فهي مادة
أهل الحضر وسكان الأمصار والمدن، والاستمداد بها أعم نفعا وأوفر فرعا، ولذلك ضرب الله

وقد ضاعف الله مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل
سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال خير المال عين
ساهرة لعين نائمة وقال صلى الله عليه نعمت العمة لكم النخلة تشرب من عين خرارة وتغرس
[illegible] في النخل هن الراسخات في الوحل المطعمات في المحل وقال
بعض السلف خير المال عين خرارة في ارض خوارة تسهر اذا نمت وتشهد اذا
غبت وتكون عقبا اذا مت وروي هشام بن عروة عن ابيه عن عايشة رضي الله عنها قالت
قال رسول الله صلى الله عليه التمسوا الرزق في خبايا الارض يعني في الزرع وحكي عن المعتضد
انه قال رايت علي بن ابي طالب عليه السلام في المنام فناولني مسحاة فقال خذها فانها مفاتيح خزاين
الارض وقال كسرى للموبذ ما قيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف له قيمة الا ان يكون مطر
في نيسان فانها تصلح من معايش الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك ولقي عبد الله بن عبد
الملك ابن شهاب الزهري فقال دلني على مال اعالجه فانشا ابن شهاب يقول

تتبع خبايا الارض وادع مليكها لعلك يوما ان تجاب فترزقا
فيوتيك مالا واسعا ذا مثابة اذا ما مياه غارت تدفقا

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بالنسبة فتتبع كتابنا هذا البسط القول فيه غير ان
من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور حصاده ومن فضل الشجر فلثبوت اصله وتوالي ثمره
واما الثاني من اسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لانهم
لما لم تستقر بهم دار ولم تمكنهم امصار واستقروا الى الاموال المنتقلة معهم وما لا ينقطع نماوه
بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لانه يستقل في النقلة بنفسه ويستغني في
العلوفة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اعتماده على اهل الخيام اكثر لقلة موونته
وتسهيل الكلفة به فكانت جدواه عليهم اكثر فوفور نسله واقتنايه وسيلة الهاما
من الله تعالى لخلقه في تعديل المصالح بينهم وارشاد العباد في تسهيل المنافع بينهم وقد روي عن

النبي صلى الله عليه انه قال خير المال مهرة مامورة او سكة مابورة معنى قوله صلى الله عليه مهرة مامورة يعني كثيرة
النسل ومنه ما تاول قوله تعالى امرنا مترفيها ففسقوا فيها اي كثرنا عددهم والسكة
المابورة فهي النخل المؤبر الحمل وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال في الغنم سمنها معاش وصوفها
رياش وروي عن ابي ظبيان قال قال لي عمر بن الخطاب ما مالك يا ظبيان قال قلت عطائي الفان
قال اتخذ هذا الحرث والسابيا قبل ان يليكم غلمة من قريش لا تعد العطاء معهم مالا والسابيا النتاج
وروي ان امراة اتت النبي صلى الله عليه فقالت يا رسول الله اني اتخذت غنما ابتغي نسلها ورسلها فانها
لا تنمي فقال لها النبي صلى الله عليه ما الوانها قالت سود فقال عفري وهذا مثل قوله عليه السلام
في مناكح الادميين اغتربوا لا تضووا واما الثالث من اسبابها وهو التجارة فهو فرع لمادتي
الزرع والنتاج وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال تسعة اعشار الرزق في التجارة والجزء
الباقي في السابيا وهي نوعان تقلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار
قد رغب عنه اولوا الاقدار وزهد فيه ذوو الاخطار والثاني تقلب المال بالاسفار
ونقله الى الامصار فهذا اليق باهل المروة واعم جدوى ومنفعة غير انه اكثر خطرا واعظم
غررا وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال ان المسافر وماله لعلى قلت الا ما وقى الله يعني على
التورية خطر وقيل في منثور الحكم يا ابن ادم احدث سفرا احدث لك رزقا واما الرابع من اسبابها
وهو الصناعة فقد تتعلق بما تقدم من الاسباب الثلثة وتنقسم اقساما ثلثة صناعة فكر
وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لان الناس الات الصناعات فاشرفهم نفسا
متهيي لاشرفها جنسا كما ان ادونهم نفسا متهيي لادونها جنسا كما ان الاسكندر لما اراد
الخروج الى اقاصي الارض قال لارسطاطاليس اخرج معي قال قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا
تزعجني قال فما اصنع في عمالي خاصة قال فانظر من كان له عبيد فاحسن سياستهم فوله
الجند ومن كانت له ضيعة فاحسن تدبيرها فوله الخراج فبنيه باعتبار الطباع على ما اغناه عن
كلفة التجربة واشرف الصناعات صناعة الفكر وارذلها صناعة العمل لان العمل نتيجة الفكر

وكونه بها منقطعاً فاما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين احدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة عن نتايج
الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد افردنا للسياسة كتاباً لخصنا فيه من جملها
ما يغني هذا الكتاب عن زيادة عليها والثاني ما ادت الى المعلومات الحادثة عن الافكار
الى العلم لمعرفتها في العلم من كتابنا هذا ما اغنى ايرادنا له عن زيادة قول فيه واما صناعة
العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعي وعمل بهيمي فالعمل الصناعي اعلاهما رتبة لانه يحتاج الى
متعاطيه في تعلمه ومعاناته في تصوره فيما يرجع الى نسبه من المعلومات الفكرية والآخر
نهاية مرتبته ان يكون آلة مهنة وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس المرذولة وتقف عليها
ذوو الطباع الجاهلية كما قال الحكيم ابن سيني لكل ساقطة لاقطة وقال المتلمس

ولا يقيم على ضيم يراد به الا الاذلان عير الاهل والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثي له احد

ولما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين احدهما ان تكون صناعة
الفكر اغلب والعمل تبع كالبنا لاتقانها وثبتها ما كان صناعة الفكر اغلب عليها والعمل
تبع لها فهذه احوال الخلق التي ركبهم الله تعالى عليها في ارتياد موادهم ودلهم الى نظرهم
في طلب اكتسابهم وفرق بين هممهم في التناسب ليكون ذلك سبباً لائتلافهم فسبحان من
فرد فينا بلطيف حكمته واظهر لعقولنا عزائم قدرته واذ قد وضح القول في اسباب المواد
وجهات المكاسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلثة امور احدها ان يطلب منها قدر
كفايته ويلتمس وفق حاجته من غير ان يتعدى الى زيادة عليها ويقتصر على نقصان
منها فهذه اعدل احوال الطالبين واعدل مراتب المقتصدين وقد روى قتادة عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اوحي الي كلمات فدخلن في اذني ووقرن في قلبي من اعطى
فضل ماله فهو خير له ومن امسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف وروى حميد عن
معوية بن حيدة قال قلت يا رسول الله ما يكفيني من الدنيا قال ما سد جوعك وستر عورتك

فان كان دار فذاك وان كان حمار فنعم فلق من خبز وجر من ما وانت مسؤول عما فوق
الازار وقد حكي عن ابن عباس ومجاهد في قوله تعالى اذ جعل فيكم انبيا وجعلكم ملوكا
انه كل من ملك بيتاً وزوجة وخادماً فهو ملك وروى زيد بن اسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو في المعنى الصحيح لان بالزوج يحقق الخدم وطاع
في امره وفي الدار محجوب الاعين رايه وليس على من طلب قدر الكفاية لوم ولا تبعات
الزيادة الا توقي الحلال منه واجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة المازجة له وقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحلال بين والحرام بين فدع ما يريبك الى ما لا يريبك فلن
تجد فقد شي تركته لله وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال اما انه فليس باضاعة
المال ولا بتحريم الحلال ولكن ان تكون بما في يد الله اوثق منك بما في يدك وان يكون ثواب
المصيبة ارجح عندك من بقائها وحكي عن عبد الله بن المبارك قال كتب عمر بن عبد
العزيز الى الجراح بن عبد الله الحكمي ان استطعت ان تدع مما احل الله لك ما يكون لك
حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه من استوعب الحلال تاقت نفسه الى الحرام
وقد اختلف اهل التاويل في قوله تعالى فان له معيشة ضنكا فقال عكرمة يعني كسبا
حراما وقال ابن عباس هو انفاق من لا يوقن بالخلف وقال يحيى بن معاذ
الدرهم عقرب فان احسنت رقيتها والا فلا تاخذها وقيل من قل توقيه
كثرت مساويه وقال بعض البلغاء خير الاموال ما اخذته من الحلال وصرفته
في النوال وشر الاموال ما اخذته من الحرام وصرفته في الاثام وكان الاوزاعي
الفقيه كثيرا ما يتمثل بهذه الابيات

المال ينفد حله وحرامه يوما ويبقى بعده اثامه
ليس التقي بمتق لالهه حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يجني ويكسب اهله ويطيب من لفظ الحديث

حكي عن ابي المعتمر السلمي انه قال الناس ثلثة اصناف اغنيا وفقرا واوساط فالفقرا
موتى الا من اغناه الله بعز القناعة والاغنيا سكارى الا من عصمه الله بتوقع الغير
واكثر الخير مع اكثر الاوساط واكثر الشر مع اكثر الفقرا والاغنيا لسخف
الفقر وبطر الغنى والحال الثانية ان يقتصر عن طلب كفايته ويزهد في التماس رزقه وهذا
التقصير قد يكون بثلثة اوجه فتارة يكون زهدا وتارة توكلا وتارة دعة وتقنعا
فان كان تقصيره لدعة وتقنع فقد حرم ثروة النشاط وسرح الاغتباط فلن يعدم ان
يكون كلا مضيعا وشقيا مضيعا وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال الحسد يغلب
القدر وكاد الفقر ان يكون كفرا وقال بزرجمهر ان كان شي فوق الحياة فالصحة
وان كان شي مثلها فالغنى وان كان شي فوق الموت فالمرض وان شي فوقه فالفقر
وقيل في منثور الحكم القبر خير من الفقر ووجد في نيل مصر مكتوب على حجر

عقبة الحر نجاح وغنى وبدا الفقر من نسج الكسل

وقال بعض الشعراء

اعوذ بك اللهم من بطر الغنى ومن هلكة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن امل يبدي بكل شارق ويرجعني منه بحظ يد صفر
اذا لم تدنسني الذنوب بعادها فلست ابالي ما تشعث من امري

وان كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد اعذر به نفسه وترك حزم قد غير اسمه لان
الله تعالى امر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم الى القضا بعد الاعذار وقد روى
معمر عن ايوب عن ابي قلابة قال ذكر عند النبي صلى الله عليه رجل فذكروا فيه خيرا قالوا
يا رسول الله خرج معنا حاجا فاذا نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى نرتحل فاذا ارتحلنا لم يزل
يذكر الله عز وجل حتى ننزل فقال صلى الله عليه فمن كان يكفيه علف ناقته وصنيع طعامه
قالوا كلنا يا رسول الله فقال فكلكم خير منه وقال بعض الحكما من توكل المر

اضاعته للحزم ولان الحزم اضاعة نصيبه من التوكل وان كان تقصيره لزهد وتقنع
فهذه حال من علم بمحاسبة نفسه تبعات الغنى والثروة فخاف عليها بوايق الهوى والطغيان
فاثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى وقد روى ابو الدردا قال قال رسول
الله صلى الله عليه ما من يوم طلعت فيه شمسه الا وجنبتاها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم
الا الثقلين يا ايها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل وكفى خير مما كثر والهى وروى جعفر
بن علي بن الحسين عن ابيه عن جده عليهم السلام قال قال رسول الله [illegible] استطال الابتلا مع مرارة
الصبر عباده ومن قنع بالقليل من الرزق رضي الله تعالى منه بالقليل من العمل وروي
عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال من فضل الفقر انك لا تجد احدا يعصي الله تعالى ليفتقر
فاخذه محمود الوراق فقال

يا عايب الفقر الا تزدجر عيب الغنى اكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى ان صح منك النظر
انك تعصي لتنال الغنى ولست تعصي الله كي تفتقر

وقال ابن المقفع

دليلك ان الفقر خير من الغنى وان القليل المال خير من المثري
لقاوك مخلوقا عصى الله بالغنى ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الحال انفع لمن نصح نفسه فاطاعته وصدقها فاجابته حين لا تنازعها
اذ لن يقنع بالكثير وكتب الحسن البصري الى عمر بن عبد العزيز يا اخي من استغنى
بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم تغنه منها
كثرة ما يجمع فقليل منها بالكفاف والزم نفسك العفاف واياك وجمع الفضول
فان حسابه يطول وقال بعض البلغا صيانة الغنى ان لم ينفعك ما حويت فاما
من عزفت نفسه عن قبول نصحه وجمحت عن قناعة فضله فليس الى اكراهها سبيل

ولا الى الحمل عليها وجه الا بالرياضه والمرون وان تستنزلها عن التيسير الذي لا تنفر
منه فاذا استقرت عليه استنزلها الى ما هو اقل منه لتنتهي بالتدريج الى الغايه
المطلوبه وتستقر بالرضايه والمرون على الحاجه فقد تقدم قول الحكما ان النفس تسهل بالمرون
فهذا حكم ما في الحال الثانيه من التقصير عن طلب الكفايه . واما الحال الثالثه فهو ان
يتجاوز بالكفايه ويطلب الكثره والزياده فقد يدعو الى ذلك اربعة اسباب
احدها منازعة الشهوات التي لا تنال الا بزيادة المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوه
طلب من المال ما يوصله اليها وليس للشهوات حد متناه فيتجاوز ذلك به الى ما يطلبه
من الزياده غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه ومن استدام به الكد
والتعب لم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده واتعابه مع ما قد لزمه
من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب التبعات حتى يصير كالبهيمة
التي قد انفرط طلبها الى ما تدعوا اليه شهوتها فلا تنزجر عنه بعقل ولا تنكف عنه بقناعة
وقد روى علي ابن ابي طالب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه انه قال من اراد الله به خيرا حال
بينه وبين شهوته وحال بينه وبين قلبه واذا اراد الله به شرا وكله الى نفسه
وقال الشاعر

وانك ان اعطيت بطنك همه وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا

والسبب الثاني ان يطلب الزيادة ويلتمس الكثره ليصرفها في وجوه الخير ويتقرب بها
في جهات البر ويصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف فهذا اعذر وهو بالحمد اجدر
اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقى شبهات المكاسب واحسن التقدير في حالتي
نايدته وافادته على قدر الزمان ونفاد الامكان لان المال آلة المكارم وعون على الدين
ومتالف الاخوان ومن فقد من ابنا الدنيا قلت الرغبه فيه والرهبة منه ومن لم يكن منهم بك
بموضع رغبه ولا رهبة استهانوا به . وقد روى عبد الله بن بريده عن ابيه قال قال رسول الله

صلى الله عليه ان احساب اهل الدنيا هذا المال . وقال مجاهد الخير في القران كله المال ا
لحب الخير لشديد يعني المال واحببت حب الخير عن ذكر ربي يعني المال فكاتبوهم
ان علمتم فيهم خيرا يعني مالا . وقال شعيب اني اراكم بخير يعني الغنى والمال
وانما سمى الله تعالى المال خيرا اذا كان في الخير مصروفا لانه الداعي الى الخير فهو في نفسه خير
وقد اختلف اهل العلم في قوله تعالى ومنهم من يقول ربنا اتنا في الدنيا حسنه
وفي الاخره حسنه فقال السدي وعبد الرحمن بن زيد الحسنه في الدنيا المال
وفي الاخره الجنه . وقال الحسن البصري وسفين الثوري الحسنه في الدنيا
العلم والعباده وفي الاخره الجنه . وقال عبد الله بن عباس الدرهم والدنيا خواتيم
الله في الارض لا تؤكل ولا تشرب حيث قصدت بها قضيت حاجتك . وقال
قيس بن سعد اللهم ارزقني حمدا ومجدا فانه لا حمد الا بفعال ولا مجد الا بمال . وقيل
لابي الزناد لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا قال هي وان ادنتني منها فقد صانتني عنها
وقال بعض الحكما من اصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض . وقيل في منثور
الحكم من استغنى كرم على اهله . ومر رجل من ارباب الاموال ببعض العلما فتحرك له
رايت واكرمه فقيل له بعد ذلك اكانت لك اليه حاجه قال لا ولكني ذا المال مهيبا
وسال رجل محمد بن عمير بن عطارد وعتاب بن ورقا في عشر ديات فقال محمد علي ديه
وقال عتاب علي الباقي فقال محمد نعم العون اليسار على المجد . وكان يقال الدراهم مراهم
لانها تداوي كل جرح ويطيب بها كل صلح . وقيل في منثور الحكم الفقر مخذله
والغنى مجدله والبوس مرذله والسوال مبذله . وقال اوس بن حجر

اقيم بدار الحزم ما دام حزمها واحر اذا حالت بان اتحولا
فاني وجدنا الناس الا اقلهم خفافا عهود يكثرون التنقلا
بني ام ذي المال الكثير يرونه وان كان عبدا سيد الامر جحفلا

دع لقل المال او ادعاه وان كان محضا في العشيرة مخولا

وقال آخر: إن الكريم وحيث كنت الى الغني وكل غني في العيون جليل

[illegible] ولا يبلغ الاغني زين الغني بعيشة تبقى او غداة بنيل

وقد اختلف اقوال الناس في تفضيل الغنى على الفقر فذهب بعضهم الى ان الاحوج من الفقر [illegible] وما
ابعد من الغنى [illegible] لان الغني مقتدر والفقير
عاجز [illegible] افضل من [illegible] على خبث الشباهة وذهب آخرون
الى تفضيل الفقر على الغنى لان الفقير تارك والغني ملابس وترك الدنيا افضل من ملابستها
وهذا مذهب [illegible] السلامة وذهب آخرون الى تفضيل التوسط بين الامرين
بان يخرج عن حد الفقر الى ادنى مراتب الغنى ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة
الحالتين وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال وان خيار الامور اوساطها وقد
مضى من شواهد كل فريق في موضعه ما اغنى عن اعادته والسبب الثالث ان
يطلب الزيادة ويقتني الاموال ليذخرها لولده ويخلفها على ورثته مع شدة ضنه على نفسه
وكفه عن صرف ذلك في حقه اشفاقا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب فهذا
شقي بجمعها ماخوذ بوزرها قد استحق الذم واستوجب اللوم من وجوه لا تخفى
على ذي لب منها سوء ظنه بخالقه في انه لا يرزقهم الا من جهته وقد قيل
قتل القنوط صاحبه وفي حسن الظن بالله راحة القلوب وقال عبد الحميد كيف
يبقى حال المال والدهر في احالته ومنها الثقة بمقادير على وارث مع نوائب الزمان
ومصائبه وقد قيل الدهر حسود لا ياتي على شي الا غيره وقد قيل في
منثور الحكم المال ملول وقال بعض الحكماء الدنيا ان بقيت لك لم تبق
لها ومنها ما حرم من منافع ماله وسلبه من فور حاله وقد قيل انما مالك لك
او للوارث او للجائحة فلا تكن اشقى الثلاثة وقال عبد الحميد الطرح كواذب

امالك وكن وارث مالك ومنها ما لحقه من مفاجعة وهو المدعو [illegible] حتى صار
ساعيا محروما وجاهلا مذموما وقد قيل [illegible] مغبوط بخضرة هي داؤه ومرحوم
من سقم هو شفاؤه وقال [illegible] الشاعر [illegible]

ومن خلفته النعمى [illegible]

ومنها ما يواخذ به من وزره واثامه مع [illegible]
ان هشام بن عبد الملك لما ثقل بكى عليه ولده فقال لهم جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم
له بالبكا وترك لكم ما كسب وتركتم عليه ما اكتسب ما اسوا حال هشام ان
لم يغفر الله له فاخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال

تمتع بمالك قبل الممات والا فلا مال ان انت متا
شقيت به ثم خلفته لغيرك بعدا وسحقا ومقتا
فجادوا عليك بزور البكا وجدت لهم بالذي قد جمعتا
وارهنتهم كلما في يديك وخلوك رهنا بما قد كسبتا

وقد روي ان العباس بن عبد المطلب جاء الى النبي صلى الله عليه فقال يا رسول الله ولني
فقال له رسول الله صلى الله عليه يا عباس يا عم النبي ولاية تكفيك خير من كثير
تطغيك يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها يا عباس يا عم
النبي ان الامارة اولها ندامة واوسطها ملامة وآخرها خزي يوم القيامة فقال يا رسول
الله الا من عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وكيف تعدل مع الاقارب وقال رجل
للحسن البصري اني اخاف الموت واكرهه فقال انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك
اللحاق به وقيل في منثور الحكم مال الميت يعزي ورثته عنه فاخذ هذا
المعنى ابن الرومي وزاد فقال

ايقنت ما الكريبان لو [illegible] شعري يا بقا لك المال

القوم بعدك في حال تسرهم فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكا فما يبكيك من احد واستحكم القول في الميراث والمال
ولتم عنك دنيا اقبلت لهم وادبرت عنك والايام احوال
والسبب الرابع ان يجمع المال ويطلب المكاثرة استحلاء لجمعه وشغفا باحتجانه فهذا
اسوا الناس حالا فيه واشدهم حرمانا له قد توجهت اليه سائر الملاوم حتى صار وبالا عليه
ومذموما له وفي مثله قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله
فبشرهم بعذاب اليم وقال النبي صلى الله عليه تبا للذهب تبا للفضة قال فشق ذلك على
اصحاب رسول الله صلى الله عليه وقالوا اي مال نتخذ فقال عمر انا اعلم لكم ذلك فقال يا رسول
الله ان اصحابك قد شق عليهم وقالوا اي مال نتخذ فقال لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا
وزوجة مومنة تعين احدكم على دينه ه وروى شهر بن حوشب عن ابي امامة قال
مات رجل من اهل الصفة فوجدت في مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه كية ثم مات اخر
فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه كيتان وانما ذكرنا ذلك فيهما وان
كان قد مات على عهده من ترك اموالا جمة واحوالا ضخمة فلم يكن منه ما كان منه في
هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واحتجنا ما ليس لهما اليه حاجة فصار ما احتجنا وزرا عليهما
وعقابا لهما وقد قال الشاعر
اذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى فانت اذا والمقترون سواء
على ان في الاموال يوما تباعة على اهلها والمقترون براء
وانشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه
ان الذي رزق اليسار فلم يصب حمدا ولا اجرا لغير موفق
والجد يدني كل شي شاسع والجد يفتح كل باب ضيق مغلق
واذا سمعت بان مجدودا حوى عودا فاورق في يديه فصدق

واذا سمعت بان محروما اتى ماء ليشربه فغاض فحقق
واشد من نقل الجبال وبسطها بين المفاوز اخذ مال الارزق
حسبي من الدنيا الدنية انني بين الخلائق موثق كالمطلق
لو كان بالحيل الغنى لوجدتني بنجوم ابواب السما متعلق
لكن من رزق الحجى حرم الغنى هذان نقيضان اي تفرق
واحق خلق الله بالهم امرؤ ذو همة يبلى بعيش ضيق
ومن الدليل على القضا وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق
وافة من بلي بالجمع والاستكثار ومني بالامساك والادخار حتى انصرف عن رشده فغوي
ولم يخرف عن سنن قصده فهوي ان يستولي عليه حب المال وبعد الامل فيبعثه حب
المال على الحرص في طلبه ويدعوه بعد الامل على الشح بمنع اداء الحقوق ويبعث على
القطيعة والعقوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه شر ما اعطي المرء شح هالع
وجبن خالع ه وقال بعض الحكما الغني البخيل كالقوي الجبان ه واما الحرص فيسلب
فضائل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على
التورط في الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه ثلاث خلال هن جامعات الرذائل
وسالبات الفضائل مع ان الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى اذلال
نفسه واسخاط خالقه ه وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال الحريص الجاهد والقنع
الزاهد يستوفيان اكلهما غير منتقص منه شيا فعلام التهافت في النار ه وقال
بعض الحكما الحرص مفسدة للدين والمروة والله ما عرفت من وجه احد حرصا فرايت
ان فيه مصطنعا ه وقال اخر الحريص اسير مهانة لا يفك اسره ه وقال بعض البلغاء
المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمكالبة
فذلل للمقادير نفسك واعلم بانك غير نائل بالحرص الا حظك ه وقال بعض الادبا

رب حظ ادركه غير طالبه ودر احرزه غير جالبه وانشدني بعض اهل الادب لمحمد بن ابي حازم

يا اسير الطمع الكاذب في ذل الهوان ... ان عز الياس خير لك من ذل الاماني
ابتم في الاقدار اعتزو خ يضعفه الزمان ... رب اعدم ذو الحرص واثرى ذو التواني

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لانه ان وصل الحريص الى ما امل اغراه ذلك بزيادة الحرص والامل وان لم يصل راى اضاعة العنا لوما والصبر عليه حزما وصار بما سلف من عنايه اقوى رجا وابسط املا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يشيب ابن ادم ويشب فيه خصلتان الحرص والامل وقيل للمسيح عليه السلام ما بال المشايخ احرص على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم ان من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضا بالقضا والقناعة بالقسم وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال اقتصدوا في الطلب فان لن يعجزكم اشرط طلبا الرزق منكم له وما حرم منه فلن تنالوه ولو حرصتم وروي ان جبريل عليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وقال ان الله تعالى يقريك السلام ويقول لك اقرا بسم الله الرحمن الرحيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى فامر النبي صلى الله عليه مناديا فنادى من لم يتادب بادب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات وقيل مكتوب في بعض الكتب ردوا ابصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا وقال مجاهد في تاويل قوله تعالى فلنحيينه حياة طيبة قال القناعة وقال اكثم بن صيفي من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة وقال بعض البلغا قد يخيب الجاهد الساعي ويظفر الوادع الهادي فاخذه البحتري فقال

لم الق مقدورا على استحقاقه في الحظ اما ناقصا او زايدا
وعجبت للمجدود يحرم ناصبا كلفا وللمجدود يغنم قاعدا

ما خطب من حرم الارادة وادعا خطب الذي حرم الارادة جاهدا

وقال بعض الحكما ان من قنع كان غنيا وان كان فقيرا ومن لم يقنع كان فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغا اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة واذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن اطاع الله عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره وقال بعض الادبا القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر وقال بعض الشعرا

اني ارى من له قنوع يدرك ما نال من تمنى
والرزق ياتي بلا عنا وربما فات من تعنى

والقناعة قد تكون على ثلثة اوجه فالوجه الاول ان يقنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه وهذا اعلا منازل اهل القناعة وقد قال الشاعر

اذا شئت ان تحيا غنيا فلا تكن على حالة الا رضيت بدونها

وقال مالك بن دينار ازهد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته وقال بعض الحكما الرضا بالكفاف يؤدي الى العفاف وقال بعض الادبا رب ضيق افضل من سعة وعنا خير من دعة وانشدني بعض اهل الادب وذكر انها لعلي بن ابي طالب عليه السلام

افادتني القناعه اي عز واي غنا اعز من القناعه
فصيرها لنفسك راس مال وصير بعدها التقوى بضاعه
تحرز حين تغنى عن بخيل وتنعم في الجنان بفضل ساعه

والوجه الثاني ان تنتهي به القناعه الى الكفايه ويحذف الفضول والزيادة وهذا اوسط احوال المقتنع وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال ما من عبد الا وبينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد اتاه رزقه وان هتك الحجاب لم يزد في رزقه وقال بعض الحكما طلب ما فوق الكفاف اسراف وقال بعض البلغا من رضي

بالمقدور قنع بالميسور وقال البحتري

تطلب الاكثر في الدنيا وقد تبلغ الحاجة منها بالاقل

وانشد لابرهيم بن المدبر

ان القناعة والعفاف ليغنيان عن الغنى

فاذا صبرت عن المنى فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث ان ينتهي به القناعة الى الوقوف على ما سنح فلا يكره ما اتاه وان كان كثيرا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرا وهذه الحال ادنى منازل اهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة فاما الرغبة فلانه لا يكره الزيادة على الكفاية اذا سنحت واما الرهبة فلانه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت وفي مثله قال ذو النون من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة وقد روى الحسين بن علي عن ابيه عن جده عليهم السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه الدنيا دول فما كان منها لك اتاك على ضعفك وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاوه مما فات استراح بدنه ومن رضي بما رزقه الله تعالى قرت عينه وقال ابو حازم الاعرج وجدت الدنيا شيئين شيئا هو لي لن اعجله قبل اجله ولو طلبته بقوة السماوات والارض وشيئا هو لغيري وذلك ما لم انله فيما مضى ولا انا له فيما بقي يمنع الذي لغيري مني كما يمنع الذي لي من غيري ففي اي هذين افني عمري واهلك نفسي وقال ابو تمام الطائي

لا تاخذيني بالزمان فليس لي تبعا ولست على الزمان كفيلا

من راحه الايام ثم عنا لها غير القناعة لم يزل مغلولا

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الاماني لم يزل مهزولا

لو جاز سلطان القنوع وحكمه في الخلق ما كان القليل قليلا

الرزق لا تكمد عليه فانه يأتي ولم تبعث اليه رسولا

وانشدني بعض اهل الادب لابن الرومي

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنون منك ان تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

ونحن نسال الله تعالى الامن مسئول وافضل مامول ان يحسن لنا التوفيق عنا الرغبة فيما منع استغناء بالمبذول وهو من نفحات الشهوة وقد روى ابن ابي عمر عن ابن ابي الجدع عن اعمامه واجداده عن رسول الله صلى الله عليه انه قال خير الناس الذين لم يعطوا حتى يبطروا ولم يفتقروا حتى يسالوا وقال ابو تمام

عذري من الايام ما لو انه اشكى لشارب برقد ما غمضا

لا تطلبن الرزق بعد شماسه فترومه سبعا اذا ما غيضا

ما عوض الصبر امرؤ الا اتى ما فاته دون الذي قد عوضا

باب ادب النفس

النفس مجبولة على شيم مهملة واخلاق مرسلة لا يستغني محمودها عن التاديب ولا يكتفي بالمرضي منها عن التهذيب لان لمحمودها اضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان اغفل تاديبها تفويضا الى العقل او توكلا على ان تنقاد الى الاحسن بالطبع اعدمه التفويض درك المجتهدين واعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الادب عاطلا وفي صورة الجهل داخلا لان الادب مكتسب بالتجربة او مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكي الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان انبياء الله تعالى عن ادبه مستغنين وبعقولهم مكتفين

وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال اني بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ومحاسنها
وقيل لعيسى ابن مريم عليه السلام من ادبك قال ما ادبني احد رايت جهل الجاهل
فاجتنبته . وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق
ومحاسنها وصلا بيننا وبينكم فحسب الرجل ان يتصل الى الله بخلق منها . وقال من
اردشير بن بابك من فضيلة الادب انه ممدوح بكل لسان ويتزين به في كل مكان
ويبقى ذكره على ايام الزمان . وقال بزرجمهر شبه العلم الشريف الادب بالبنيان الخراب العدم
الذي كلما علا كان اشد لوحشته وبالنهر اليابس الذي كلما كان اعرض واعمق
كان اشد لوعورته وبالارض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع
بها التفافا وصار للهوام مسكنا . وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا
من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة الري
في الثرى لا تقدر ان تطلع زهرتها ونضارتها الا بالما الذي يعود اليها من مستودعها
وحكى الاصمعي ان اعرابيا قال لابنه يا بني الادب دعامة ايدك الله تعالى بها الالباب وحلية
زين الله تعالى بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغني وان صحت غريزته عن
الادب المخرج زهرته كما لا تستغني الارض وان عذبت تربتها عن الما المخرج ثمرتها
وقال بعض الحكما الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت . وقال اخر العقل بلا
ادب كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر . وقيل الادب احد المنصبين . وقال
بعض البلغا الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والنسب لان من سا ادبه ضاع
نسبه ومن قل عقله ضل اصله . وقال بعض الادبا ذك قلبك بالادب كما تذكى النار
بالحطب . واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرجك راغب ويخافك راهب
ويومل نفعك ويرجا عدلك . وقال بعض العلما الادب وسيلة الى
كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة . وقال بعض الفصحا الادب يستر قبح

النسب . وقال بعض الشعرا

فما خلق الله مثل العقول   ولا اكتسب المرء مثل الادب
وما كرم المرء الا التقى   ولا حسب المرء الا الادب
وفي العلم زين لاهل الحجى   وآفة صاحب العلم طيش الغضب

وانشد بعض الاصمعي

ان يكن العقل مولودا فلست ارى   ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
اني رايتهما كالما مختلطا   بالترب تظهر عنه زهرة العشب
وكل من اخطاته في مولده   غريزة العقل حاكي البهم في النسب

والتادب يلزم من وجهين احدهما ما لزم الوالد لولده في صغره والثاني ما لزم الانسان
في نفسه عند نشوه وكبره فاما التادب اللازم للاب فهو ان ياخذ ولده بمبادي
الاداب ليانس بها وينشو عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستيناسه
بمباديها في الصغر لان نشو الصغير على الشي يجعله متطبعا به ومن اغفل في
الصغر كان تاديبه في الكبر عسيرا . وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال
ما نحل والد ولده نحلة افضل من الادب يفيده اياه او جهل قبيح يكفه عنه
ويمنعه منه . وقال بعض الحكما بادروا بتاديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق
البال . وقال بعض الشعرا

قد ينفع الادب الاحداث في صغر   وليس ينفع عند الشيبة الادب
ان الغصون اذا قومتها اعتدلت   ولا يلين اذا قومته الخشب

وقال اخر   ينشو الصغير على ما كان والده   ان العروق عليها ينبت الشجر

واما الادب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فادبان ادب مواضعة واصطلاح
وادب رياضة واستصلاح فاما ادب المواضعة والاصطلاح فيوخذ تقليدا

فهي ما استقر عليه اصطلاح العقلا واتفق عليه استحسان الادبا وليس
لاصطلاحهم على وضعها تعليل يستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل
يوجبه كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيات اللباس
حتى ان الانسان اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مستحقا للادب مستوجبا للذم مجانبا
لان ترك المالوف في العاده ومجانبه ما صار عليه متفقا بالمواضعه مفض الى
استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن لمخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان
جايزا في العقل ان يوضع على خلافه واما اداب الرياضه والاستصلاح
فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز في العقل ان تكون بخلافها ولا ان يختلف العقلا
في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته
بالدليل مرتبط وللنفس على ما تاتي من ذلك شاهد الهمها الله تعالى ارشادا لها
قال الله تعالى فالهمها فجورها وتقواها وقال ابن عباس بين لها ما تاتي
من الخير وتذر من الشر وسنذكر لك تعليل كل شي في موضعه فانه
اولى واحرى فاول مقدمات اداب الرياضه والاستصلاح ان لا
يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوي اخلاقه لان النفوس
بالشهوات امره وعن الرشد زاجره وكذا قال الله تعالى ان النفس لاماره
بالسوء وقال النبي صلى الله عليه اعدا عدوك نفسك التي بين جنبيك ثم اهلك
ثم عيالك ودعت اعرابيه لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك
فاخذه بعض الشعرا فقال

قلبي الى ما ضرني داعي ... يكثر اسقامي واوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا ... كان عدوي بين اضلاعي

واذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها داع الى تحكيمها وتحكيمها داع الى

صلاحها وفساد الاخلاق بها واذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هي عليه من
التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
العاجز من عجز عن سياسة نفسه وقال الربيع بن الحذام من لم يتعب ساد ناسه
فاما سو الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد
مناصحتها فان النفس وان كان لها مكر يردي فلها نصح يهدي فلما كان حسن
الظن بها يعمي عن مساويها كان سو الظن بها يعمي عن محاسنها وقد قال الجاحظ
في كتاب البيان يجب ان يكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن بها مقتصدا
فانه ان تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فاودعها ذل المظلومين وان تجاوز بها الحق
في مقدار حسن الظن بها مقتصدا احسن الظن اودعها تهاون الامنين ولكل ذلك مقدار
من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل وقال الاحنف
بن قيس من ظلم نفسه كان لغيره اظلم ومن هدم دينه كان لمجده اهدم وذهب قوم الى ان
سو الظن بها ابلغ في صلاحها واوفر في اجتهادها لان للنفس جورا لا يكشف الا بالسخط
عليها وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها لانها محبوبة تجور ادلالا وتغير مكرا
فان لم يسي الظن بها غلب عليه جورها وتموه عليه غرورها فصار بميسورها قانعا
وبالشبه من افعالها راضيا وقد قالت الحكما من رضي عن نفسه اسخط
عليه الناس وقال كشاجم

لم ارض عن نفسي مخافة سخطها ... ورضى الفتى عن نفسه اغضابها
ولو انني عنها رضيت لقصرت ... عما تزيد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فاكثرت ... عذلي عليه وطال فيه عتابها

وقد استحسن قول ابي تمام الطائي

ويسي بالاحسان ظنا لا كمن ... هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يزد المسيء ظنه بالاحسان ذما ولا استقلال علمه لو ما بلغ دا وذلك ابلغ في
التنبيه وابعث على الازدياد. واذا عرف من نفسه ما تجن وتصور منها ما تكن ولم
يكن لها وبغضها ما يحب اذا كان غيا ولا من ينهاها ان كان رشدا فقد ملكها بعد
ان كانت مالكة وقلبها بعد ان كانت تقلبه. وقد روى ابو حازم عن ابي هريرة
قال قال رسول الله صلى الله عليه ان الشديد من غلب نفسه. وقال عون بن عبد الله اذا
عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما احببت ولا يغرنك ثنا من جهل امرك. وقال
بعض البلغا من قوي على نفسه تناهى في القوة ومن صبر على شهوته بالغ في المروة وتجنبه
يأخذ نفسه عند معرفته ما اكتسبت وخبرته ما اجتنبت بتقويم عوجها وصلاح فاسدها
فقد روي عن عايشة رضي الله عنها انها قالت لرسول الله صلى الله عليه يا رسول الله متى يعرف
الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم يراعي منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث عن
اغفال او ميل يكون عن اهمال ليتم له الصلاح وتستديم له الاستقامة فان المغفل بعد
المعاناة ضايع والمهمل بعد المراعاة زايغ وسنذكر من احوال الادب الرياضية والاصطلاح
فصولا تحتوي على ما يلزم مراعاته من الاخلاق ويجب معاناته من الاداب وهي ستة
فصول تتفرع. فالفصل الاول منها في مجانبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان
الفضايل ويكسبان الرذايل وليس لمن استوليا عليه اصغا للنصح ولا قبول للتاديب لان الكبر
يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب
يستكثر فضله عن استزادة المتادبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بان ما
يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم. فنقول اما الكبر فيكسب المقت ويلهي عن
التالف ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوا عن استقصاء ذمه. ولذلك قال
النبي صلى الله عليه لعمه العباس انهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله يحتجب
منهما. وقال اردشير بن بابك ما الكبر الا فضل حمق لم يدر صاحبه اين يذهب به

فيصرفه الى الكبر وما اشبه ما قال بالحق. وحكي ان مطرف بن عبد الله بن الشخير
نظر الى المهلب بن ابي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلا فقال له يا عبد الله
ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال المهلب اوما تعرفني قال بلى اعرفك اولك
نطفة مذرة واخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة. فاخذ ابن عوف هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته وكان بالامس نطفة مذره

وفي غد بعد حسن صورته يصير في اللحد جيفة قذره

وهو على تيهه ونخوته ما بين ثوبيه يحمل العذره

وكان المهلب افضل من ان يخدع نفسه بهذا الجواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال
وخطيئة من خطايا الادلال. فاما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكي عن نافع
بن جبير بن مطعم انه جلس في حلقة العلا بن عبد الرحمن وهو يقرئ الناس فلما فرغ
قال اتدرون لم جلست اليكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكني اردت ان اتواضع لله
بالجلوس اليكم. فهل يجانس مثل هذا فضل او يتبع فيه عذل. وقال ابن المعتز
لما عرف اهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ليعظم صغيرا ويرفع
حقيرا وليس بفاعل. فاما الاعجاب فيخفي المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام
ويصد عن الفضايل. وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال ان العجب ليأكل الحسنات
كما تأكل النار الحطب. وقال علي بن ابي طالب عليه السلام الاعجاب ضد الصواب
وافة الالباب. وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلا
الذي لا يرحم منه صاحبه العجب. وقال بعض الحكما عجب المر بنفسه احد حساد
عقله. وليس الى ما يكسبه الكبر من المقت حد ولا الى ما ينتهي اليه العجب من الجهل غاية
حتى انه ليطفي من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضايل ما اشتهر. وناهيك بسيئة
تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد

منه حسّن حكى عمر بن حصين قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل
لو قد ابقى الله تعالى لي منها اربعة فتقربت بدمائهم قيل ومن هم قال مقاتل بن مسمع والي
سجستان فاتاه الناس [illegible] اعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط له
الناس ارديتهم فمشى عليها [illegible] لمثل هذا فليعمل العاملون وعبيد الله
بن ظبيان التيمي [illegible] اهل البصرة [illegible] خطبة اوجز فيها فنادى الناس
من اعراض المسجد اكثر الله فينا امثالك فقال لقد كلفتم الله شططا ومعبد بن زرارة
كان ذات يوم جالسا في طريق فمرت به امراة فقالت يا عبد الله كيف الطريق الى موضع
كذا فقال يا هنتاه مثلي يكون من عبيد الله وابو السماك الاسدي اضل راحلته
فالتمسها الناس فلم يجدوها فقال والله لئن لم يرد علي راحلتي لا صليت له ابدا
فالتمسها الناس حتى وجدوها فقال له قد رد الله راحلتك فصلّ فقال علم ان يميني
يمين مصر انظر الى هؤلاء كيف اقدمهم العجب الى حمق صاروا به نكالا في الاولين
ومثلا في الاخرين ولو تصور المعجب المتكبر ما فطر عليه من جبلة وبلي به من
مهنه لخفض جناح نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا من نفوره قال الاحنف
بن قيس عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض
الشعراء الانسان فقال

يا مظهر الكبر اعجابا بصورته ... انظر خلاك فان النتن تثريب (بصورته)
لو فكر الناس فيما في بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل في ابن آدم مثل الراس مكرمة ... وهو بخمس من الاقذار مضروب
انف يسيل واذن ريحها سهك ... والعين مرمصة والثغر ملعوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا ... اقصر فانك مأكول ومشروب

واحق من كان للكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل في الدنيا قدره وعظم

فيها خطره لانه قد يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر معها كل كبير وقد
قال محمد بن علي لا ينبغي للشريف ان يرى شيئا من الدنيا لنفسه خطرا [illegible]
وقال ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك في شرفك اشرف لك من شرفك [illegible]
متضادان بمعنيين واحد التواضع والشرف [illegible]
اسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة مخالطة الاكفاء [illegible]
علي بن ابي طالب رضي الله عنه [illegible]
ومشوا خلفه ابن مسعود فقال ارجعوا فانها ذلة للتابع وفتنة للمتبوع [illegible]
حازم ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه فاصابته رعدة فقال النبي صلى الله عليه هون عليك
فانما انا ابن امراة كانت تاكل القديد وانما [illegible] الكبر وقطعا لذرايع الاعجاب
وكسرا للاشر [illegible] ومثل ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
انه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه
ثم قال ايها الناس لقد رايتني ارعى خالات لي من بني مخزوم فيقبضن لي القبضة من التمر
والزبيب فاظل اليوم واي يوم فقال عبد الرحمن بن عوف والله يا امير المؤمنين ما زدت على ان
قصرت بنفسك فقال له عمر ويحك يا ابن عوف اني خلوت بنفسي فحدثتني نفسي فقالت انت
امير المؤمنين فمن ذا افضل منك فاردت ان اعرفها نفسها وللاعجاب اسباب فمن اقوى اسبابه
مدح المتقربين واطراء الذين قد جعلوا النفاق عادة ومكسبا والتملق خديعة وملعبا
فاذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة اغروا اربابها باعتقاد كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة
الى الاستهزاء بهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه سمع رجلا يزكي رجلا فقال قطعت
مطاه لو سمعها ما افلح بعدها وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المدح ذبح وقال ابن المقفع
قابل المدح كمادح نفسه وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال اياكم والتمادح فانه الذبح
ان كان احدكم مادحا اخاه لا محالة فليقل احسبه ولا ازكي على الله احدا وقال بعض الحكماء من
رضي

ان يمدح بالبر فيه فقد امكن الساخر منه وقد قيل فيما انزل الله تعالى من الكتب السالفه
عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف
يغضب وقال بعض الشعرا

يا جاهلا غره افراط مادحه ... لا يغلبن جهل من اطراك علمك بك
اثنى وقال بلا علم احاط به ... وانت اعلم بالمحصول من ريبك

فهذا ما ينبغي للعاقل ان يضبط نفسه عن ان تستفزها ويمنعها من تصديق المدح لها
فان للنفس ميلا الى حب الثنا وسماع المدح وقال الشاعر

يهوى الثنا مبرز ومقصر ... حب الثنا طبيعة الانسان

واذا سامح نفسه في هذه الصبوة وتابعها في هذه الشهوة تشاغل بها عن الفضايل الممدوحه
ولهى بها عن المحاسن الممنوحه فصار الظاهر من مدحه كذبا والباطن من ذمه صدقا
وعند تقابلهما يكون الصدق الزم الامرين وهذه خدعه لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز
وليعلم ان المتقرب بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الابا فلا يغلبه حسن الظن
على تصديق مدح هو اعرف بحقيقته ولتكن تهمة المادح اغلب عليه فقل مدح كان
جميعه صدقا وقل ثنا كان كله حقا ولذلك كره اهل الفضل ان يطلقوا السنتهم
بالثنا والمدح تحرزا من التجوز فيه وتنزها عن التملق به وقد روى مكحول الشامي قال
قال رسول الله صلى الله عليه لا تكونوا عيابين ولا تكونوا مداحين ولا متماوتين
وحكى الاصمعي ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه كان اذا مدح قال اللهم انت اعلم
بي من نفسي وانا اعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيرا مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون
ولا تواخذني بما يقولون وقال بعض الشعرا

اذا المرء لم يمدحه حسن فعاله ... فمادحه يهذي وان كان مفصحا

وربما اخرج المدح بصاحبه الى ان يصير مادح نفسه اما لتوهمه ان الناس قد غفلوا عنه

واخلوا بحقه واما ليخدع بتدليس نفسه فيعتقدون ان قوله حق متبع وصدقه مستمع
واما ليتلذذ بسماع الثنا ويسر نفسه بالمدح والاطرا كما يتغنى نفسه طربا اذ لم يسمع غنا
مطربا ولا غنا ممتعا ولاي ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفاضح وانشد بعض الشعرا

وما شرف ان يمدح المرء نفسه ... ولكن اعمالا تذم وتمدح
وما كل حين يصدق المرء ظنه ... ولا كل اصحاب التجارة تربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظا ... ولا كل من ضم الوديعه يصلح

وينبغي للعاقل ان يسترشد اخوان الصدق الذين هم اصفيا القلوب ومرايا المحاسن
والعيوب على ما ينبهون عليه من مساويه التي صرفه حسن الظن عنها فانهم امكن نظرا
واسلم فكرا ويجعل ما ينبهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديق المدح فيه وقد روى
انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه انه قال المومن مراة المومن اذا راى فيه عيبا اصلحه
وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول رحم الله امرا اهدى الينا عيوبنا وقيل لبعض
الحكما اتحب ان تهدى اليك عيوبك قال نعم من ناصح وما يقارب هذا المعنى ما روي عن
عمر رضي الله عنه انه قال لابن عباس من ترى ان نوليه حمص قال رجلا صحيحا منك صحيحا لك
قال فكن انت ذلك الرجل فقال لا ينتفع بي مع سوء ظني بك وسوء ظنك بي وقد قيل
في منثور الحكم من اظهر عيب نفسه فقد زكاها واذا قطع اسباب الكبر وحسم
مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعا وبالعجب توددا وذلك من اوكد اسباب
الكرامه واقوى مواد النعم وابلغ شافع الى القلوب يعطفها الى المحبه ويثنيها عن البغضه
وقد قال بعض الحكما من بري من ثلث نال ثلثا من بري من الشره نال العز ومن بري
من البخل نال الشرف ومن بري من الكبر نال الكرامه وقال مصعب الزبيري
التواضع مصايد الشرف وقيل في منثور الحكم من دام تواضعه كثر صديقه
وقد تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقا مذمومه يظهرها سو طباعهم وللاخرين
فضايل محموده يبعث عليها زكي شيمهم لان لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق

مكنونة من السرائر ومخزونها الاسما اذا ابهمت بغير تدرج وطرقت من غير تاهب وقد
قال بعض الحكما في تقلب الاحوال علم جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل من كانت ولايته
فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره تواضع لها وقال بعض البلغا الناس
في الولاية رجلان رجل يجل عن العمل بفضله ومروته ورجل يجل العمل لنقصه ودناته
فمن جل عن عمله ازداد به تواضعا وبشرا ومن جل عنه عمله تلبس به تجبرا وكبرا

الفصل الثاني في حسن الخلق روي عن النبي صلى الله عليه
انه قال ان الله تعالى اختار الاسلام دينا فاكرموه بحسن الخلق والسخا فانه لا يكمل
الا بهما وقال الاحنف بن قيس الا اخبركم بادوا الدا قالوا بلى قال الخلق الدني واللسان
البذي وقال بعض الحكما من سا خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة وقال
بعض البلغا الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسي الخلق الناس
منه في بلا وهو من نفسه في عنا وقال بعض الادبا عاشر اهلك باحسن اخلاقك فان الثوا
فيهم قليل وقال بعض الشعرا

اذا لم تتسع اخلاق قوم ... تضيق بهم الفسيحة من البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا ... فليس اللب من قدم الولاد

واذا حسنت اخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه الامور الصعاب
ولانت له القلوب الغضاب وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال حسن الخلق خلاف
وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الاعمار وقال بعض الحكما في سعة الاخلاق
كنوز الارزاق وسبب ذلك ما ذكرنا من كثرة الاصفيا المسعدين وقلة الاعدا
المجحفين ولذلك قال النبي صلى الله عليه احبكم الي احاسنكم اخلاقا الموطاون
اكنافا الذين يالفون ويولفون وحسن الخلق ان يكون سهل العريكة لين الجانب
طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد بين النبي صلى الله عليه هذه الاوصاف فقال
اهل الجنة كل هين لين سهل طلق ولما ذكرنا من هذه الاوصاف حدود مقدرة ومواضع

مستحقه كما قال الشاعر

اصفو واكدر احيانا لمختبري ... وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد الكدر الذي هو البذا وشراسة الخلق فان ذم لا يحسن وعيب لا
يرضى وانما يريد الكف والانقباض في موضع يلام فيه المتابع ويذم فيه الموافق
واذا كانت لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت
ملقا وان عدل بها عن مواضعها صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لوم وليس لمن وسم بهما
ود مبرور ولا اثر مشكور وقد روي عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه شر الناس ذو
الوجهين الذي ياتي هولا بوجه وهولا بوجه وروى مكحول عن ابي هريرة رضي الله عنه
قال رسول الله صلى الله عليه لا ينبغي لذي الوجهين ان يكون وجيها عند الله وقال [illegible]
عز وجل لان يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر
احب الي من ان اكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين وقال الشاعر

خل النفاق لاهله ... وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك ان ترى ... الا عدوا او صديقا

وقال ابرهيم بن محمد

وكم من صديق وده بلسانه ... خوون بظهر الغيب لا يتذمم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا ... وفي غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطا الى الشراسة والبذا لاسباب عارضة وامور
طارية تجعل اللين خشونة والوطا غلظة والطلاقة عبوسا فمن ذلك الولاية التي تحدث
في الاخلاق تغيرا وعلى الخلطا تنكرا اما من لوم طبع واما من ضيق صدر وقد قيل
من تاه في ولايته ذل في عزلته وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية ومنها
العزل فقد يسو به الخلق ويضيق به الصدر اما لشدة اسف او لقلة صبر

حكي حميد الطويل ان عمار بن ياسر عزل عن ولاية فاشتد ذلك عليه فقال اني وجدتها
حلوة الرضاع مرة الفطام ؞ ومنها الغنى فقد تتغير فيه اخلاق اللئيم بطرا وتسوء
طرايقه اشرا ولذلك قيل من نال استطال وانشد الرياشي

غضبان يعلم ان المال ساق له   ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسالني   فاكرم الناس من كانت له ورق

وقال بعض الشعرا

فان تكن الدنيا انالتك ثروة   واصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثراء منك خلايقا   من اللوم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما افسده الغنى كذلك يصلحه الفقر ؞ كتب قتيبة بن مسلم الى الحجاج
ان اهل الشام قد التاثوا عليه فكتب اليه ان اقطع عنهم الرزق ففعل فساءت حالهم
فاجتمعوا اليه فقالوا اقلنا فكتب الى الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت انست منهم رشدا
فاجر عليهم ما كنت تجري واعلم ان الفقر جند الله الاكبر يذل به كل متكبر
وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال لولا ان الله تعالى اذل ابن ادم بثلاث ما طاطا راسه
بشي الفقر والمرض والموت ؞ ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق اما انفة
من ذل الاستكانة او اسفا على فايت الغنى ولذلك قال النبي صلى الله عليه كاد الفقر
ان يكون كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر ؞ وقال ابو تمام الطايي

واعجب حالات ابن ادم خلقه   يضل اذا فكرت في كنهه الفكر
فيفرح بالشي القليل بقاوه   ويجزع مما صار وهو له ذخر

وربما تسلى من هذه حاله بالاماني وان قل صدقها فقد قيل قل ما تصدق الامنية
لكن قد يعتاض بها ما ساوره من هم ومسرة من برحاء ؞ وقد قال ابو العتاهية

حرك مناك اذا اغتممت فانهن مراوح

وقال اخر   اذا تمنيت بت الليل مغتبطا   ان المنى راس اموال المفاليس

ومنها الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا يتسع لاحتمال ولا يقوى على صبر وقد
قيل الهم كالسم ؞ وقال بعض الادبا الحزن كالداء المخزون في فواد المحزون ؞ وقال بعض الشعرا

همومك بالعيش مقرونة   فما تقطع العيش الا بهم
اذا تم امر بدا نقصه   توقع زوالا اذا قيل تم
اذا كنت في نعمة فارعها   فان المعاصي تزيل النعم
حلاوة دنياك مسمومة   فما تاكل الشهد الا بسم
فكم قد دببت في مهلة   فلم يعلم الناس حتى هجم

ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقى الاخلاق على اعتدال
ولا يقدر معها على احتمال ؞ وقد قال المتنبي

آلة العيش صحة وشباب   فاذا وليا عن المرء ولى
ابدا تسترد ما تهب الدنيا   فيا ليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لتاثيره في آلة الجسد كذلك يكون تاثيره في اخلاق
النفس فكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من الاثقال كذلك تعجز النفس عن
احتمال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضض الشقاق وكذلك ما ضاهاه
قال منصور النمري ؞

ما كنت اوفي شبابي كنه عزته   حتى مضى فاذا الدنيا له تبع
ما تنقضي حسرة مني ولا جزع   اذا ذكرت شبابا ليس يرتجع
اصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم   تشجي بغصته فالعذر لا يقع
ما كان اقصر ايام الشباب وما   ابقى حلاوة ذكراه التي تدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت   الا له نبوة عنه ومرتدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب اسى   لولا يعزيك ان الشيب منقطع

فهذه سبعة اسباب ان احدثت سو الخلق كان عاما وههنا سبب خاص قد يحدث سو خلق خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس فيحدث نفورا على المبغوض فيؤول الى سو خلق يخصه دون غيره فاذا كان سو الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

الفصل الثالث في الحيا

الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات دالة كما قالت العرب في امثالها تخبر عن مجهوله مراته وكما قال عمرو بن مسلم

لا تسل المرء عن خلايقه في وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعه والحيا وسمة الشر القحه والبذا وكفى بالحيا خيرا ان يكون على الخير دليلا وكفى بالقحة والبذا شرا ان يكونا الى الشر سبيلا وقد روى حسان بن عطية عن ابي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه الحيا والعي شعبتان من الايمان والبذا والبيان شعبتان من النفاق ويشبه ان يكون العي في معنى الصمت والبيان في معنى التشدق كما جا في الحديث الاخر ابغضكم الى الثرثارون المتفيقهون المتشدقون وروى ابو سلمة عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه قال الحيا من الايمان والايمان في الجنة والبذا من الجفا والجفا في النار وقال بعض الحكما من كساه الحيا ثوبه لم ير الناس عيبه وقال بعض البلغا حياة الوجه بحيايه كما ان حياة الغرس بمايه وقال بعض العلما يا عجبا كيف لا يستحيي من كثرة ما لا يستحيي ويتقي من طول ما لا يتقي وقال بعض الشعرا وهو صالح بن عبد القدوس

اذا قل ماء الوجه قل حياوه ولا خير في وجه اذا قل ماوه
حياك فاحفظه عليك فانما يدل على فعل الكريم حياوه

وليس لمن سلب الحيا صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يشا وياتي على ما يهوى وبذلك جا الخبر روى شعبة عن منصور بن ربعي عن ابي مسعود البدري قال قال رسول الله صلى الله عليه ان مما ادرك الناس من كلام النبوة الاولى يا ابن ادم اذا لم تستحي فافعل ما شيت وليس هذا القول منه اغرا بفعل المعاصي عند قلة الحيا كما توهمه بعض من جهل معاني الكلام ومواضعات

الخطاب وفي مثل هذا الخبر قول الشاعر

اذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشا
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا اذا ذهب الحيا

واختلف اهل العلم في معنى الخبر فقال ابو بكر بن محمد بن علي الشاشي في اصول الفقه معنى هذا الخبر ان من لم يستحي دعاه ترك الحيا الى ان يعمل ما شا لا يردعه عنه رادع فان الحيا يردعه وسمعت من يحكي عن ابي بكر الرازي من اصحاب ابي حنيفة ان المعنى اذا عرضت عليك افعال التي هممت بها فلم تستحي منها لحسنها او جمالها فاصنع ما شيت منها فجعل الحيا حكما على افعاله وكلا القولين حسن والاول اشبه لان الكلام خرج من النبي صلى الله عليه مخرج الذم لا مخرج الامر لكن قد جا الحديث بما يضاهي القول الثاني وهو قوله صلى الله عليه ما احببت ان تسمعه اذناك فاته وما كرهت ان تسمعه اذناك فاجتنبه ويجوز ان يحمل هذا الحديث على المعنى الصحيح فيه ويكون التاويل الاول في الحديث المتقدم اصح اذ ليس يلزم ان تكون احاديث رسول الله صلى الله عليه كلها متفقة المعاني بل اختلاف معانيها ادخل في الحكمة وابلغ في الفصاحة اذا لم يتضاد ويقضي بعضها بعضا واعلم ان الحيا قد يكون في الانسان من ثلاثة اوجه احدها حياوه من الله تعالى والثاني حياوه من الناس والثالث حياوه من نفسه فاما حياوه من الله تعالى فيكون بامتثال اوامره والكف عن زواجره وروى ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه قال استحيوا من الله حق الحيا قيل يا رسول الله كيف نستحيي من الله حق الحيا قال من حفظ الراس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيا من الله حق الحيا وهذا الحديث من ابلغ الوصايا قال اقضى القضاة رايت رسول الله صلى الله عليه في المنام ذات ليلة فقلت يا رسول الله اوصني فقال استحي من الله حق الحيا ثم قال تغير الناس قلت وكيف يا رسول الله قال كنت انظر الى الصبي فارى في وجهه البشر والحيا وانا انظر اليوم اليه فلا ارى ذلك في وجهه

ثم تكلم بعد ذلك بوصايا وعظات تصدع لها ولم احفظها ووددت لو اني حفظتها فلم يبد صلي الله
شيئا من الوصية من الحيا من الله تعالى وجعل ما يطلب الصبي من البشر والحيا سببا لتغير الناس وخص
الصبي لان ما ياتيه بالطبع من غير تكلف فصلي الله عليه من هادي امة تابع انفاسها وقطع اعذارها
ووصل بادئها وحفظ تهذيبها وجعل الاول عصر حظا من زواجره ونصيبا من اوامره اعان الله
علي توليها العقل وعلي امتثالها بالتوفيق له وقد روي ان علقمة بن علاثة قال يا رسول الله
عظني فقال النبي صلي الله عليه استحي من الله حق استحيائك من ذي الهيبة من قومك
وهذا النوع من الحيا من الله تعالى يكون من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي صلي الله عليه
قلة الحيا كفر يعني من الله تعالى لما فيه من مخالفة اوامره وقال النبي صلي الله عليه الحيا نظام
الايمان فاذا انحل نظام الشي تبدد ما فيه وتفرق واما حياوه من الناس فيكون بكف الاذي
وترك المجاهرة بالقبيح وقد روي عن النبي صلي الله عليه انه قال من تقوي الله تقوي الناس وروي
ان حذيفة بن اليمان اتي الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس وقال لا خير
فيمن لا يستحي من الناس وقال بشار بن برد

ولقد اصرف الفواد عن الشي حيا وحبه في الفواد
امسك النفس بالعفاف وامسي ذاكرا في غد حديث الاعادي

وهذا النوع من الحيا قد يكون من كمال المروة وحب الثنا ولذلك قال النبي صلي الله عليه من القي
جلباب الحيا فلا غيبة له يعني والله اعلم لقلة مروته وظهور شهوته وروي الحسن عن ابي
هريرة قال قال رسول الله صلي الله عليه ان من مروة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه والفه
وجليسه وقال بعض الشعرا

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها الا الحيا
اذا رزق الفتي وجها وقاحا تقلب في الامور كما يشا

وقال اخر اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا وتستحي مخلوقا فما شيت فاصنع

واما حياوه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات وقد قال بعض الحكما ليكن استحياوك
من نفسك اكثر من استحيائك من غيرك وقال بعض الادبا من عمل في السر عملا يستحي
منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر ودعا قوم رجلا كان يالف عشرتهم فلم يجبهم
وقال اني دخلت البارحة في الاربعين وانا استحي من سني وقال بعض الشعرا

واني ليثنيني عن الجهل والخنا وعن شتم ذي القربي خلايق اربع
حيا واسلام وتقوي وانني كريم ومثلي قد يضر وينفع

وان اخل باحد وجوه الحيا لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله وقد
قال الرقاشي ونقل ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون اخري قد سنحت بها جعلتها للتي اخفيت عنوانا
وانني لاري من لا حيا له ولا امانة وسط الناس عريانا ١٠

الفصل الرابع في الحلم والغضب

روي محمد بن حارث
الهلالي ان جبريل عليه السلام نزل علي النبي صلي الله عليه فقال يا محمد اني اتيتك بمكارم
الاخلاق في الدنيا والاخرة خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين وروي سفيان بن
عيينة ان النبي صلي الله عليه قال حين نزلت هذه الاية خذ العفو وامر بالعرف فقال يا
جبرايل ما هذا فقال ما ادري حتي اسال العالم ثم عاد جبرايل فقال يا محمد ان ربك يامرك
ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وروي هشام عن الحسن
ان النبي صلي الله عليه قال ايعجز احدكم ان يكون كابي ضمضم كان اذا خرج من
منزله قال اللهم اني قد تصدقت بعرضي علي عبادك وروي عن النبي صلي الله عليه انه
قال ان الله تعالى يحب الحليم الحيي ويبغض الفاحش البذي وقال علي بن ابي طالب عليه السلام
من حلم ساد ومن تفهم ازداد وقال بعض الادبا من غرس شجرة الحلم اجتني ثمرة السلم
وقال بعض البلغا ما ذب عن الاعراض مثل الصفح والاعراض وقال بعض الشعرا

أحب مكارم الأخلاق جهدي ... وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما ... وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب لما فيه من سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره. وحد الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب، وهذا قد يكون باعث سبب. وأسباب الحلم الباعثة على ضبط النفس عشرة: أحدها الرحمة للجهال، وذلك من خير يوافقه رقة. وقد قيل في منثور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال. وقال أبو الدرداء لرجل أسمعه: يا هذا لا تغرقن في سبنا ودع للصلح موضعا فإنا لا نكافي من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه. وشتم رجل الشعبي فقال: إن كنت كما قلت فغفر الله لي، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك. واغتاظت عائشة على خادم لها ثم رجعت إلى نفسها فقالت: لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء. وقسم معاوية قطفا فأعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه فحلف أن يضرب بها رأس معاوية فأتاه فأخبره فقال له معاوية: أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ.

والثاني من أسبابه القدرة على الانتصار، وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة. وقد روي عن النبي صلى الله عليه أنه قال: إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه. وقال بعض الحكماء: ليس من الكرم عقوبة من لا امتناع له من سطوتك. وقال بعض الحكماء: أحسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر. والثالث من أسبابه الترفع عن السباب، وذلك من شرف النفس وعلو الهمة، كما قالت الحكماء: شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم. وقد قيل: إن الله تعالى سمى يحيى سيدا لحلمه. وقال الشاعر:

لن يبلغ المجد أقوام وإن شرفوا ... حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مسفرة ... لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

والرابع من أسبابه الاستهانة بالسباب، وذلك عن ضرب من الكبر والإعجاب، كما حكي عن مصعب بن الزبير أنه قال لما ولي العراق جلس يوما لعطاء الجند فأمر مناديه فنادى: أين عمرو بن جرموز؟ وهو الذي قتل أباه الزبير. فقيل له: أيها الأمير إنه قد تباعد في الأرض. فقال: أويظن الجاهل أني أقيده بأبي عبد الله؟ فليظهر آمنا وليأخذ عطاءه موفرا. فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر.

ومثل ذلك قول بعض الزعماء في شعره:

أو كلما طن الذباب طردته ... إن الذباب إذا علي كريم

وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يجيبه فقال: والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه.

وفي مثله يقول الشاعر:

نجا بك لؤمك منجى الذباب ... حمته مقاذيره أن ينالا

وسمع رجل ابن هبيرة فأعرض عنه فقال الرجل: إياك أعني. فقال: وعنك أعرض. وفي مثله يقول الشاعر:

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه ... عرض عززت به وأنت ذليل

وقال عمرو بن علي:

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من إجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن أني ... عييت عن الجواب وما عييت

والخامس من أسبابه الاستحياء من جزاء الجواب، وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة. وقد قال بعض الحكماء: احتمال السفيه أيسر من التحلي بصورته، والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته. وقال بعض الأدباء: ما أفحش حليم ولا أوحش كريم. وقال لقيط بن زرارة:

وقل لبني سعد فما لي وما لكم ... ترقون مني ما استطعتم وأعتق
أغركم أني بأحسن شيمة ... بصير وأني بالفواحش أخرق
وإنك قد ساببتني فقهرتني ... هنيئا مريئا أنت بالفحش أحذق

والسادس من أسبابه التفضل على السباب، وهذا قد يكون من الكرم وحب التألف

كما قيل لا اسكت الله فلانا وفلانا ينتقصانك ويثلبانك فلو عاتبتهما فقال هما بعد العقوبة
اعذر في تنقصي وثلبي بعد ان عجزا عن فضل لا نهيه وقال الفرزدق وقد حكي عن الاحنف بن قيس
انه قال ما عاداني احد قط الا اخذت في امره باحدى ثلث خصال ان كان اعلا مني عرفت له قدره
وان كان دوني رفعت قدري عنه وان كان نظيري تفضلت عليه فاخذه الخليل
فنظمه شعرا فقال

سالزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وان كثرت منه الي الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذي فوقي فاعرف قدره ... واتبع فيه الحق والحق لازم
واما الذي دوني فاحلم دايبا ... اصون به عرضي وان لام لايم
واما الذي مثلي فان زل او هفا ... تفضلت ان الفضل بالعز حاكم

والسابع من اسبابه استنكاف السباب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم كما حكي
ان رجلا قال لضرار بن القعقاع والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا فقال ضرار والله لو قلت
عشرا لم تسمع واحدة وحكي ان علي بن ابي طالب عليه السلام قال لعامر بن مرة الزهري
من احمق الناس قال من ظن انه اعقل الناس قال صدقت فمن اعقل الناس قال من لم يتجاوز الصمت
في عقوبة الجهال وقال الشعبي ما ادركت امي فابرها ولكن لا اسب احدا فيسبها
وقال بعض الحكما في اعراضك صون اعراضك وقال بعض الشعرا

وفي الحلم ردع للسفيه عن الاذي ... وفي الخرق اغرا فلا تك اخرقا
فتندم اذ لا ينفعنك ندامة ... كما ندم المغبون لما تفرقا

الخرق

وقال اخر قل ما بدا لك من زور ومن كذب ... حلمي اصم واذني غير صما

والثامن من اسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس وربما
اوجبه الراي واقتضاه الحزم وقد قيل في منثور الحكم الحلم حجاب الافات وقال الشاعر

[illegible]

ارفق اذا خفت من ذي هفوة خرقا ... ليس الحليم كمن في امره خرق

والتاسع من اسبابه الرعاية ليد سالفة او حرمة لازمة او [illegible]
وقد قيل في منثور الحكم من ظهر غضبه قل كيده وقال بعض الادبا غضب الجاهل في قوله
وغضب العاقل في فعله وقال بعض الحكما اذا سكت عن الجاهل فقد اوسعته جوابا
واوجعته عقابا وقال [illegible]

تعاقب ايدينا ويحلم راينا ... ونشتم بالافعال لا بالتكلم

وقال بعض الشعرا

والكف عن شتم اللئيم تكرما ... اضر له من شتمه حين يشتم

فهذه عشرة اسباب تدعو الى الحلم وبعض الاسباب افضل من بعض وليس اذا كان
بعض اسبابه مفضولا ما يقتضي ان يكون نتيجته من الحلم مذموما وانما الاولى بالانسان
ان يدعوه الى الحلم افضل اسبابه وان كان الحلم كله فضلا فان عري عن احد هذه
الاسباب كان ذلا ولم يكن حلما لانا قد ذكرنا في حد الحلم انه ضبط النفس عن هيجان
الغضب فاذا فقد الغضب بسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية
ولذلك قالت الحكما انكم لا تعرفون الا في ثلثة مواطن لا يعرف الجواد الا في العسر
والشجاع الا في الحرب والحليم الا في الغضب وقال الشاعر

ليست الاحلام في حال الرضا ... انما الاحلام في حال الغضب

وقال اخر

من يدعي الحلم اغضبه لتعرفه ... لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب

وانشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله صلى الله عليه

ولا خير في حلم اذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه ان يكدرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه ان

حليم اذا ما اورد الامر اصدرا

فلم ينكر قوله عليه ومن حفظ ما ذكرنا للغضب والاسباب المغضبة حتى استوت حالتاه

في الانتصار [illegible] فقد عدم من فضايل النفس الشجاعة والانفة والحمية والغيرة والدفاع
والصبر بالثبات [illegible] من الغضب فاذا عدمها الانسان تهان بها ولم يكن
[illegible] القلوب موقعًا [illegible] وقال [illegible]
المنصور اذا [illegible] الكرم للغضب [illegible] وقال بعض الحكما العفو يفسد
من اللئيم [illegible] ابن العاص اكرموا سفهاكم فانهم
يكفونكم العار والشنار وقال مصعب بن الزبير ما قل سفهاء قوم الا ذلوا وقال
ابو تمام الطائي   والحرب تركب راسها في مشهد عدل السفيه به الف حليم
وليس هذا القول اغراء بحكم الغضب والانقياد له عند حدوث ما يغضب فيلتبس للانقياد
للغضب من الرذايل اكثر مما يسلبه عدم الغضب من الفضايل ولكن اذا ثار به الغضب
عند هجوم ما يغضب كف سورته بحزمه واطفا ثايرته بحلمه ووكل من استحق المقابلة
الى غيره فلن يعدم مسيئا مكافيا كما لن يعدم محسن مجازيا والعرب تقول دخل بيتنا
ما خرج منه اي ان خرج منه خير دخله خير وان خرج منه شر دخله شر وانشد
ابن دريد عن ابي حاتم

اذا امن الجهال جهلك مرة فعرضك للجهال غنم من الغنم
فعمّ عليه الجهل والقم بمنزلة بين العداوة والسلم
اذا انت جازيت السفيه كما جرى فانت سفيه مثله غير ذي حلم
ولا تغضبن عرض السفيه وداره بحلم فان اعيا عليك فبالصرم
فيرجوك احيانا ويخشاك تارة واخذ فيما بين ذلك بالحزم
فان لم تجد بدا من الجهل فاستعن عليه بجهال فذاك من العزم

الحلم

وهذه من احكم ابيات وجدتها في الحلم والغضب وهذا التدبير انما يستعمل فيمن
لا يجد الانسان بدا من مقاربته ولا سبيل الى اطراحه ومتاركته اما الخوف شره او

المزوم امره فاما من امكن اطراحه ولم يضر ابعاده فالاهوان به اولى والاعراض عنه اصون
فاذا كان على ما وصفنا استفاد بتحريك الغضب فضيلتين [illegible]
[illegible] فصار الحكم مدبرا للامور المغضبة [illegible] ولا
[illegible]
تلحقه زيادة [illegible] الحلم [illegible] ان الله [illegible]
فيه وصحح رايه عن خبرة [illegible] انه قال الجنة [illegible]
[illegible]
حتى [illegible] الحجة مسلوب [illegible]
يصير عليه غضب [illegible] وقد قال بعض الحكما من اكثرت [illegible]
ان سلمان قال لعلي بن ابي طالب عليه السلام ما الذي يباعدني من غضب الله تعالى قال
ان لا تغضب وقال بعض البلغا اقرب ما يكون العبد من غضب الله تعالى اذا غضب
وقال بعض البلغا من رد غضبه هد من اغضبه وقال بعض الادبا ما هيج جاشك
كغيظ اجاشك وقال رجل لبعض الحكما عظني قال لا تغضب فينبغي لذي اللب السوي
والحزم القوي ان يتلقى ثورة الغضب بحلم يصدها ويقابل دواعي شرتها فيردها
ليحظى باجلا الخيرة ويسعد بحميد العاقبة فقد قال بعض الادبا في اعضايك راحة اعضايك
وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما تكرهه
النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه والحزن يتحرك من خارج
الجسد الى داخله ولذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب لبروز الغضب وكمون
الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام لبروزه والحادث عن الحزن
المرض والسقم لكمونه فربما افضى الحزن الى الموت ولم يفض اليه الغضب فهذا
فرق ما بين الحزن والغضب واعلم ان لتسكين الغضب اسبابا يستعان بها على
الحلم منها ان يذكر الله تعالى فيدعوه ذلك الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على
الطاعة له فيرجع الى ادبه ويأخذ بندبه فعند ذلك يزول الغضب قال الله تعالى واذكر

ربك اذا نسيت قال عكرمه يعني اذا غضبت . وقال الله تعالى واما ينزغنك نزغ فاستعذ
بالله انه سميع عليم يعني سميع بجهل من جهل عليك بما يذهب عنك الغضب . وذكر ان
في التوراه مكتوبا يا ابن ادم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب ولا امحقك فيمن امحق
وحكي ان بعض ملوك الفرس كتب كتابا ودفعه الى وزيره وقال له اذا غضبت
فناولنيه فكان فيه مكتوب ما لك وللغضب ارحم من في الارض يرحمك من في السما وقال
بعض الحكما من ذكر قدره الله تعالى لم يستعمل قدرته في ظلم عباد الله وقال عبد الله بن
مسلم بن محارب لهرون الرشيد يا امير المومنين اسالك بالذي انت بين يديه اذل مني
بين يديك وبالذي هو اقدر على عقابك منك على عقابي لما عفوت عني فعفا عنه لما
اذكره قدره الله تعالى عليه . وروي ان رجلا شكا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوه فقال
اطلع في القبور واعتبر بالنشور . وكان بعض ملوك الطوايف اذا غضب القي عنده مفاتيح
ترب الملوك فيزول غضبه . ولذلك قال عمر رحمه الله من اكثر ذكر الموت رضي من الدنيا
باليسير . ومنها ان ينتقل عن الحالة التي هو فيها الى حالة غيرها فيزول عنه الغضب بتغير
الاحوال والتنقل من حال الى حال وكان من مذهب المامون اذا غضب او شتم . وكانت
الفرس تقول اذا غضب الجالس فليقم . ومنها ان يتذكر ما يوول اليه الغضب من الندم
ومذمة الانتقام . وكتب ابرويز الى ابنه شيرويه ان كلمة منك تسفك دما واخرى منك
تحقن دما وان نفاذ امرك مع ظهور كلامك فاحترس في غضبك من قولك ان يخطي ومن
لونك ان يتغير ومن جسدك ان يخف فان الملوك تعاقب قدره وتعفو حلما . وقال
بعض الحكما الغضب على من لا تملك عجز وعلى من تملك لوم . وقال بعض الادبا اياك وعزه الغضب
فانها تفضي بك الى ذل العذر وقال بعض الشعراء

واذا ما اعترتك في الغضب العزه فاذكر تذلل الاعتذار

ومنها ان يذكر ثواب العفو وجزا الصفح فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزا والثواب

١١١

وحذرا من استحقاق الذم والعقاب . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ينادي مناد يوم القيمة
من له اجر على الله فليقم فيقوم العافون عن الناس ثم تلا فمن عفا واصلح فاجره على الله . وقال رجا
بن حيوه لعبد الملك بن مروان في اسارى ابن الاشعث ان الله قد اعطاك ما تحب من الظفر فاعط
الله ما يحب من العفو . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاث خصال من كن فيه استكمل
الايمان من اذا رضي لم يدخله رضاه في باطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر
عفا . واسمع رجل كلاما لعمر بن عبد العزيز فقال عمر اردت ان يستفزني الشيطان بعز
السلطان فانال منك اليوم ما تناله مني غدا انصرف رحمك الله . ومنها ان يتذكر انعطاف
احد القلوب عليه وميل النفوس اليه فلا يرى اضاعة ذلك بتغير الناس عنه فيرغب في التالف وجميل
الثنا . وروي عن ابن ابي ليلى عن عطيه عن ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ازداد احد بعفو
الا عزا فاعفوا يعزكم الله . وقال بعض البلغا ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا
من شروط الكرم ازالة النعم . وقال المامون لابرهيم بن المهدي اني شاورت في امرك
فاشاروا علي بقتلك الا اني وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك
فقال يا امير المومنين ان المشير اشار بما جرت به العاده في السياسه الا انك ابيت
ان تطلب النصر الا من حيث عودته من العفو فان عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وانشا يقول

البر بي منك وطا العذر عندك لي ... فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متهم
لين جحدتك معروفا مننت به ... اني لفي اللوم احظى منك في الكرم
تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به ... فلا عدمناك من عاف ومنتقم

الفصل الخامس في الصدق والكذب

قال الله تعالى وهو اصدق القايلين ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . وقال
عز وجل انما يفتري الكذب الذين لا يومنون . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الكذب

عليه السلام دع ما يريبك الى ما لا يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمانينة وروي
عن النبي صلى الله عليه انه قال رحم الله امرا اصلح من لسانه وقصر من عنانه والزم طريق الحق
مقوله ولم يعود الخطل مفصله وروي صفوان بن سليم قال قيل للنبي صلى الله عليه ايكون المومن
جبانا قال نعم قيل ايكون بخيلا قال نعم قيل ايكون كذابا قال لا وقال ابن عباس في
قوله تعالى لا تلبسوا الحق بالباطل لا تخلطوا الصدق بالكذب وقيل في
منثور الحكم الكذاب لص لان اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك وقال
بعض الحكما الخرس خير من الكذب وصدق اللسان اول السعادة وقال بعض البلغا
الصادق مصان جليل والكاذب مهان ذليل وقال بعض الادبا لا سيف كالحق ولا عون
كالصدق وقال بعض الشعراء

وما شي اذا فكرت فيه ... باذهب للمروه والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه ... وابعد بالبها من الرجال

والكذب جماع كل شر واصل كل ذم لسو عواقبه وخبث نتايجه لانه ينتج النميمه
والنميمه تنتج البغضا والبغضا تول الى العداوه وليس مع العداوة امن ولا راحه
ولذلك قيل من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الاخبار الماضيه
كما ان الوفاء والخلف يدخلان المواعيد المستقبله فالصدق هو الاخبار عن الشي على ما
هو عليه والكذب الاخبار عن الشي بخلاف ما هو عليه ولكل واحد منهما دواع فدواعي
الصدق لازمه ودواعي الكذب عارضه لان الصدق يدعو اليه عقل موجب
وشرع موكد والكذب يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك
جاز ان تستفيض الاخبار الصادقه حتى تصير متواتره ولم يجز ان تستفيض
الاخبار الكاذبه لان اتفاق الناس في الصدق والكذب انما هو لاتفاق
الدواعي فدواعي الصدق يجوز ان يتفق الجم الكثير عليها حتى اذا نقلوا خبرا

كانوا عددا ينتفي عن مثلهم المواطاه وقع في النفس صدقه لان الدواعي اليه نافعه
واتفاق الناس في الدواعي النافعه ممكن ولا يجوز ان يتفق العدد الكثير الذين
يمتنع من مواطاه مثلهم على نقل خبر يكون كذبا لان الدواعي اليه غير نافعه
وربما كانت ضاره وليس في جاري العادات ان يتفق الجم الكثير على دواع غير
نافعه فلذلك جاز اتفاق الناس على الصدق ولم يجز اتفاقهم في دواعيهم
ولم يجز ان يتفقوا على الكذب لامتناع اتفاقهم في دواعيهم فاذا كان للصدق
والكذب دواع فلا بد من ذكرها ليتميز به الخاطر من دواعيهما اما دواعي
الصدق فمنها العقل لانه موجب لقبح الكذب لا سيما اذا لم يجلب نفعا
ويدفع ضررا والعقل يدعو الى فعل ما كان فيه مستحسنا ويمنع من اتيان ما كان
فيه مستقبحا وليس ما استحسن من مبالغات الشعرا حتى صارت
كذبا صريحا استحسانا للكذب كالذي انشدنيه الازدي لبعض الشعرا

توهمه فكري فاصبح خده ... وفيه مكان الوهم من نظري اثر
وصافحه كفي فالم كفه ... فمن لمس كفي في انامله عقر
ومر بقلبي خاطرا فجرحته ... ولم ار شيا قط يجرحه الفكر

وكقول العباس بن الاحنف وان كان دون هذه المبالغة

تقول وقد كتبت دقيق خطي ... لبعض الهم تخفيت الجليلا
فقلت لها نحلت فصار خطي ... مساعدة لكاتبه نحيلا

لانه قد خرج مخرج المبالغه في التشبيه والاقتصاد على صنعة الشعر وان
شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب فلذلك ما استحسن في الصنعه
ولم يستقبح في العقل وان كان الكذب مستقبحا فيه ومنها الدين الوارد
باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز ان يرد بارخاص ما حظره

العقل بل قد جاء الشرع زائدا على ما اقتضاه العقل من حظر الكذب لان الشرع
ورد بحظر الكذب وان جرّ نفعا او دفع ضررا والعقل انما حظر ما لا يجلب نفعا
ولا يدفع ضررا ، ومنها المروة فانها مانعة من الكذب باعثة على الصدق لانها قد تمنع
من فعل ما كان مستكرها فاولى ان تمنع من فعل ما كان مستقبحا ، ومنها حب الثناء
والاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه ندم ، وقال بعض البلغا
ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق اقوى معين والصدق افضل
قرين ، وقال بعض الشعراء

عوّد لسانك قول الصدق تحظ به ... ان اللسان لما عوّدت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت له ... فاختر لنفسك وانظر كيف ترتاد

فاما دواعي الكذب فمنها اجتلاب واستدفاع الضر فيرى ان الكذب اسلم
واغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشفافا للطمع وربما كان الكذب ابعد
لما يؤمل واقرب لما يخاف لان القبيح لا يكون حسنا والشر لا يكون خيرا وليس يجنى من الشوك العنب
ولا من الكرم الحنظل وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه انه قال تحروا الصدق وان رايتم ان
فيه الهلكة فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رايتم ان فيه النجاة فان فيه
الهلكة ، وقال عمر بن الخطاب رحمه الله لان يضعني الصدق وقل ما يفعل
احب الي من ان يرفعني الكذب وقل ما يفعل ، وقال بعض الحكما الصدق منجيك وان
خفته والكذب مرديك وان امنته ، وقال الجاحظ الصدق والوفا توأمان
والحلم والصبر توأمان فيهن تمام كل دين وصلاح كل دنيا واضدادهن سبب كل
فرقة واصل كل فساد ، ومنها ان يوثر ان يكون حديثه مستعذبا وكلامه
مستظرفا فلا يجد صدقا يعذب ولا حديثا يستظرف فيستحلي الكذب الذي ليست
غرائبه معوزة ولا طرائفه معجزة وهذا النوع اسوا حالا مما قبل لانه يصدر عن

مهانة النفس ودناة الهمة ، وقال الجاحظ لم يكذب احد قط الا لصغر قدر نفسه عنده
وقال ابن المقفع لا تهاونن بارسال الكذب من الهزل فانها تسرع في ابطال الحق ، ومنها ان
يقصد بالكذب التشفي من عدو فيسمه بقبائح يخترعها ويصفه بفضائح ينسبها اليه ويرى
ان معرة الكذب غنم وان ارسالها في العدو سهم وسم وهذا اسوا حالا من النوعين
الاولين لانه قد جمع بين الكذب المعر والشر المضر ، ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو
على عدوه ، ومنها ان يكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى الفها فصار الكذب
له عادة ونفسه اليه منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لان العادة طبع ثان
وقد قالت الحكما من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه ، وقيل في منثور الحكم لا يلزم
الكذب شيئا الا غلب عليه ، واعلم ان للكذاب قبل خبرته امارات دالة عليه
فمنها انك اذا لقنته الحديث تلقنه ولم يكن بين ما لقنته وبين ما اورده فرق عنده ، ومنها
انك اذا شككته فيه تشكك حتى يكاد ان يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك
فيه ، ومنها انك اذا رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين
ولا برهان الصادقين ولذلك قال علي بن ابي طالب عليه السلام الكذاب كالسراب
ومنها ما يظهر من ريبة الكاذبين وينم عليه من ذلة المتوهمين لان هذه امور
لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من اثارها ، ولذلك قالت الحكما العينان
انم من اللسان ، وقال بعض البلغا الوجوه مرايا تريك اسرار البرايا ، قال بعض الشعراء

تريك اعينهم ما في صدورهم ... ان العيون يؤدي سرها النظر

واذا وسم بالكذب نسب اليه شوارد الكذب المجهولة واضيفت الى اكاذيبه
زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع بين معرة الكذب
منه ومضرة الكذب عليه وقال الشاعر

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه

واذا سمعت بكذبه من غيره نسبت اليه

فهما نزع الي الصدق اتهم وان جانب الكذب حتي لا يعتقد له حديث مصدق ولا كذب له
مستنكر قال الشاعر

اذا عرف الكذاب بالكذب لم يكد يصدق في شي وان كان صادقا
ومن افة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ اذا كان حاذقا

ويجوز للمسلم الكذب في الحرب وفي اصلاح ذات البين علي وجه التوريه
والتعريض دون التصريح فان السنه لا يجوز ان ترد باباحة الكذب لما فيه من التنفير
وانما المقصود طريق التوريه والتعريض كما سيل رسول الله صلي الله عليه وقد تطرف ببدر
عن اصحابه فقال له رجل ممن انت قال من ما فوري عن الاخبار بنسبه بامر يحتمل
فظن السايل انه عني القبيله المنسوبه الي ذلك وانما اراد رسول الله صلي الله عليه انه من الما الذي
خلق منه الانسان فبلغ ما احب من اخفا نسبه وصدق في خبره صلي الله عليه وما الذي
روي عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه كان يسير خلف رسول الله صلي الله عليه حين هاجر معه
فتلقاه العرب وهم يعرفون ابا بكر ولا يعرفون رسول الله صلي الله عليه فيقولون يا ابا بكر من هذا فيقول
يهديني السبيل فيظنون انه يعني هدايه الطريق وهو انما يريد سبيل الخير فيصدق في قوله
ويوري عن مراده وقد روي عن النبي صلي الله عليه انه قال ان في المعاريض لمندوحه عن الكذب
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان في المعاريض ما يكفي ان يعف الرجل عن الكذب وقال بعض اهل
التاويل في قوله تعالي لا تواخذني بما نسيت انه لم ينس ولكن من معاريض الكلام وقال ابن سيرين
الكلام اوسع من ان يصرح فيه بالكذب واعلم ان من الصدق ما يقوم مقام الكذب
في القبح والمعره ويزيد عليه في الاذي والمضره وهو الغيبه والنميمه والسعايه فاما الغيبه
فانها خيانه وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر قال الله تعالي ولا يغتب بعضكم بعضا
ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا يعني انه كما لا يحل لحمه ميتا لا تحل غيبته حيا وروي
ان امراتين صامتا علي عهد رسول الله صلي الله عليه وجعلتا تغتابان الناس فاخبر بذلك رسول الله

فقال صامتا عما احل لهما وافطرتا علي ما حرم عليهما وروت اسما بنت يزيد ان رسول
الله صلي الله عليه قال من ذب عن لحم اخيه بالغيبه كان حقا علي الله ان يحرم لحمه علي النار
وقال عدي بن حاتم الغيبه رعي اللئام وقال بعض الحكما الغيبه فاكهة
النسا وقال رجل لابن سيرين اني اغتبتك فاجعلني في حل قال لا احب ان احل لك
ما حرم الله عليك وقال ابن السماك لا تعن الناس علي نفسك بسو حديثك

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا ولا تعب احدا منهم بما فيكا

وربما اعذر المغتاب نفسه بانه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد بما روي عن النبي صلي الله عليه
انه قال ثلاثه ليست غيبتهم بغيبه الامام الجاير وشارب الخمر والمعلن بفسقه فينبغي
من الصواب مجانب الادب لانه وان كان بالغيبه صادقا ففيه هتك ستر كان بصونه
اولي وجاهر من استتر واخفي وربما دعا المغتاب ذلك الي اظهار ما كان يستتره والمجاهره
بما كان يخفيه فلم يفده ذلك الا فساد اخلاقه من غير ان يكون فيه صلاح غيره وقيل
لانوشروان ما الذي لا خير فيه قال الامر الذي لم ينفع غيري ولم ينفعني ولا علم
فيه خيره وقيل في منثور الحكم لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب وقد روي
العلا بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريره قال سيل رسول الله صلي الله عليه وسلم عن الغيبه
فقال ان تقول لاخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبته وان كنت كاذبا فقد
بهته وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالي يا ايها الذين لا يسخر قوم من قوم عسي
ان يكونوا خيرا منهم انه استهزا المسلم بمن اعلن بفسقه ودخلت امراه علي النبي
صلي الله عليه ثم خرجت فقالت عايشه رضي الله عنها يا رسول الله صلي الله عليه ما
اقصرها فقال مه لا اياك والغيبه فقالت يا رسول الله انما قلت ما فيها فقال اجل ولولا
ذلك لكان بهتانا وسيل بعض الادبا عن صفة اللييم فقال اللييم اذا غاب عاب

ولانه تحصى اعتبار في وانا الحسد محمول على الانكاد لا فعالها ولا يكون الانكاد
الا فيه اثنه ... وفرق بين الانكاد الجاهر وغيبه المساتون فاما النميمه فهي تجمع
الى ... الذي ... ثم تؤول الى تقاطع المتواصلين
... المتقين ... المتحابين ... روى شهر بن حوشب عن اسما بنت يزيد عن
النبي صلى الله عليه وسلم ... الا اخبركم بشراركم قالوا بلى قال شراركم المشاون بالنميمه
المفسدون بين الاحبه الباغون العيوب وروى محمد بن عمرو عن ابي سلمه عن ابي هريره
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغاد
ملعون كل قتات ملعون كل منان الشغاد المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة وقيل
ان القتات هو الذي يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم والقتات هو الذي يتسمع عليهم
وهم لا يعلمون ثم ينم حديثهم والمنان الذي يعمل الخير ويمن به وقيل في منثور الحكم
النميمه سيف قاطع وقال بعض الادبا لم يمش ماش شر من واش واما السعايه فهي شر
الثلاثه لانها تجمع الى مذمه الغيبه ولوم النميمه التغرير بالنفوس والاموال والقدح في المنازل
والاحوال وروى ابو قتيبه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنه ديبوب ولا قلاع فالديبوب
الذي يجمع بين الرجال والنسا وسمي بذلك لانه يدب بينهم والقلاع هو الساعي الذي يقع
في الناس عند الامرا سمي قلاعا لانه ياتي الرجل المتمكن عند الامير فلا يزال يقع فيه حتى يقلعه وقال
بعض الحكما الساعي بين منزلتين قبيحتين اما ان يكون صدق فقد خان الامانه وان يكون قد كذب
فخان المروه وقال بعض حكما الفرس الصدق يزين كل احد الا السعاة فان الساعي اذم واثم
ما يكون اذا صدق وقال بعض البلغا النميمه دنا والسعايه رداه وهما اس الغدر واساس
فتجنب سبلهما واجتنب اهلهما ورفع الفضل بن سهل على قصه ساع سعى اليه عن نكبه فقال
السعايه شر منها لان السعايه دلاله والقبول اجازه فانفوا الساعي فان كان في سعايته
صادقا كان في صدقه اثما اذ لم يحفظ الحرمه ويستر العوره وقال الاسكندر لشاعر

سعى اليه برجل اتحب ان نقبل منك ما تقول فيه على انا نقبل منه ما يقول فيك قال لا قال
فكف عن الشر يكف عنك الشر ... وقال ... لي ابو جعفر ... عليه السلام
اذ في بلدك ساعيا ولست امطر كل دعوى ...
سوى ... النميمه واعلم ان الفصل الرابع في الحسد ...
ان الحسد خلق ذميم مع اضراره بالبدن وافساده للدين حتى لقد امر الله بالاستعاذه
من شره فقال تعالى ومن شر حاسد اذا حسد وناهيك بحال ذلك شرا ... النبي
صلى الله عليه انه قال دب اليكم دا الامم قبلكم البغضا والحسد وهي الحالقه لا
حالقة الشعر والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا الا انبيكم بامر اذا
فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم فاخبر عليه السلام بذل الحسد وان التحابب ينفيه
وان السلام يبعث على التحابب فصار السلام اذا نافيا للحسد وقد جا كتاب الله تعالى بما
يوافق هذا القول قال الله تعالى ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوه
كانه ولي حميم معناه ادفع بالسلام اساة المسي وقال الشاعر

فذللت الناس حتى البر بينهم وتذفين عنا التسليم واللطف

وقال بعض السلف الحسد اول ذنب عصي الله تعالى به في السما يعني حسد ابليس لادم
عليه السلام واول ذنب عصي الله تعالى به في الارض حسد ابن ادم لاخيه حتى قتله وقال
بعض الحكما من رضي بقضا الله تعالى لم يسخطه احد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد
وقال بعض البلغا الناس حاسد ومحسود ولكل نعمه حسود وقال بعض الادبا ما رايت ظالما
اشبه بمظلوم من الحسود نفس دايم وهم لازم وقلب هايم فاخذه بعض الشعرا فقال

ان الحسود الظلوم في كرب يحسبه من يراه مظلوما
ذا نفس دايم على نفس يظهر منه ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد الا انه خلق دني يتوجه نحو الاكفا والاقارب ويختص

بالخلق المذموم ... لمعاني المكارهة عنه كما أن السلامة منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكاية في عدو ولا اضرار بمحسود وقد قال بعض الأدباء ... يقتل الحاسد قبل ان يصل الى المحسود وقال بعض الحكماء يكفيك من الحاسد انه يغتم وقت سرورك وقيل في منثور الحكم الحاسد ... وقال الاصمعي قلت لاعرابي ما اطول عمرك قال تركت الحسد فبقيت وقال رجل لشريح القاضي اني لاحسدك على ما ارى من صبرك على الخصوم ووقوفك على غامض الحكم فقال ما نفعك الله ولا ضرني وقال عبد الله بن المعتز

اصبر على كيد الحسود فان صبرك قاتله
فالنار تاكل بعضها ان لم تجد ما تاكله

وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات تكون للناس الافاضل وهو غير المنافسه وربما غلط قوم فظنوا ان المنافسه في الخير هي الحسد وليس الامر كما ظنوا لان المنافسه طلب التشبه بالافاضل من غير ادخال ضرر على الفاضل والحسد مصروف الى الضرر لان غايته ان يعدم الفاضل فضله من غير ان يصير الفضل له فهذا هو الفرق بين المنافسة والحسد فالمنافسه اذا فضيله لانها داعية الى اكتساب الفضايل والاقتدا باخيار الافاضل وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال المومن يغبط والمنافق يحسد وقال الشاعر

نافس على الخيرات اهل العلى فانما الدنيا احاديث
كل امري في شانه كادح فوارث منهم وموروث

واعلم ان دواعي الحسد ثلثه احدها بغض المحسود فياسى عليه بفضيلة تظهر او منقبه تشكر فيثير حسدا قد خامر بغضا وهذا النوع لا يكون عاما وان كان اضرها لانه ليس يبغض كل الناس والثاني ان يظهر من المحسود فضل يعجز عنه الحاسد فيكره تقدمه فيه واختصاصه به فيثير ذلك حسدا لولاه لكف وهذا اوسطها

فانه لا يحسد الاكفا من دنا وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسه ولكنها مع عجز فلذلك صار حسدا والثالث ان يكون في الحاسد شح بالفضايل وبخل بالنعم وليست اليه فيمنع منها ولا بيده فيدفع عنها لانها مواهب قد منحها الله تعالى من شا فيسخط على الله تعالى في قضايه ويحسد على ما منح من عطايه وان كانت نعم الله عنده اكثر ومنحه عليه اظهر وهذا النوع من الحسد اعمها واخبثها اذ ليس لصاحبه راحه ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة كان بورا وانتقاما وان صادف عجزا ومهانه كان جهدا وسقاما وقال عبد الحميد الحسود من الهم كساقي السم فاذا سرى سمه زال عنه همه واعلم ان بحسب فضل الانسان وظهور النعم عليه يكون حسد الناس له فان كثر فضله كثر حساده وان قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمه تضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه استعينوا على قضا الحوايج بسترها فان كل ذي نعمة محسود وقال عمر بن الخطاب ما كانت لله تعالى على نعمة الا وجدت لها حاسدا ولو كان المرء اقوم من القدح لما عدم غامزا وقال الشاعر

ان يحسدوني فاني غير لايمهم قبلي من الناس اهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات اكثرنا غيظا بما يجد

وربما كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال ابو تمام

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب نشر العود
لولا التخوف للعواقب لم تزل للحاسد النعما على المحسود

فاما ما يستعمله من كان الحسد عليه غالبا او كان طبعه اليه مايلا لينتفي عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعدواه فامور يعني له حسم اسبابها اذ هما دفعا عزم منها اتباع الدين في

ومن اجتنابه والرجوع الى الله في بد نقص ادابه فيقهر نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم
طبعها وان كان نقل الطباع عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منه ما استصعب
ويحبب منه ما اتعب وان تقدم قول القايل من رتبة خلقه كيف يخلي خلقته ه غير انه
اذا عانا تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة يصير كالخلق قال ابو تمام

فلم اجد الاخلاق الا تخلقا ولم اجد الافضال الا تفضلا

ومنها العقل الذي يستقبح به من نتايج الحسد ما لا يرتضيه ويستنكف من هجنة
مساويه فيذلل نفسه انفة ويقهرها حمية فتذعن لرشدها وتجيب الى صلاحها
وهذا انما يتم لذي النفس الابية والهمة العالية وان كان ذو الهمة يجل عن دناة الحسد

وقال ـــــ الشاعر

ابى له نفسان نفس زكية ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس

ومنها ان يستدفع ضرره ويتوقى اثره ويعلم ان نكايته في نفسه ابلغ ومن المحسود
ابعد فيستعمل الحزم في دفع ما كده واكمد ليكون اطيب نفسا واهنى عيشا
وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد ه وقال الشاعر

بصير باعقاب الامور كانما يرى بصواب الراي ما هو واقع

ومنها ان يرى نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه من عداوة او على
عرضه من ملامة فيتالفهم بمعالجة نفسه ويراهم ان صلحوا اجدى نفعا واخلص ودا

وقال ـــ ابن العميد

داوا جوى بجوى وليس بحازم من يستكف النار بالحلفاء

وقال ـــ المومل ابن اميل

لا تحسبوا في غنيا عن مودتكم اني اليكم وان ايسرت مفتقر

ومنها ان يساعد القضاء ويستسلم للمقدور ولا يرى ان يغالب قضا الله فيرجع

مغلوبا ولا ان يعارضه في امره فيرد محروما وقال اردشير ابن بابك اذا لم يساعدنا
القضا ساعدناه ه وقال ـــ محمود الوراق

قدر الله كاين حين يقضيه وروده ه قد مضى فيك علمه وانقضى ما تريده
واخو الحزم حزمه [illegible] ه فارد ما يكون ان لم يكن ما تريده

فان ظفرته السعاده باحد هذه الاسباب وهدته المراشد الى استعمال الصواب
من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا واعتاض من الذم حمدا
وللمروات نزل نفسه عن مذمته وصرفها عن لايمة فهو اظهر حزما واقوى عزما
ممن كفته النفس جهادها واعطته قيادها ولذلك قال علي عليه السلام خياركم كل
مفتن تواب ه وان صدته الشهوة عن مراشده واضله الحرمان عن دفعها صده
فانقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد
كمده فقد باء باربع مذام احداهن خسران الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد
لحسرته انتهاء ولا يامل لسقامه شفاء فقد قال ابن المعتز الحسد دا الجسد ه والثانيه
انخفاض المنزلة وانحطاط الرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه ه وقد قيل
في منثور الحكم الحسود لا يسود ه والثالثه مقت الناس له حتى لا يجد فيهم
محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة ماثورا وبالمقت مزجورا
ولذلك قال النبي صلى الله عليه شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه ه والرابعه
اسخاط الله تعالى في معارضته واجتناب الاوزار في مخالفته اذ ليس يرى قضا
الله تعالى عدلا ولا لنعمه من الناس اهلا ولذلك قال النبي صلى الله عليه ان الحسد
ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب ه وقال عبد الله ابن المعتز الحاسد
مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده ه واذا بلي الانسان
بمن هذه حاله من حساد النعم واعداء الفضل استعاذ بالله من شره وتوقى مصارع

ويتحرز من غوائل حسده ويبعد من ملابسته وادنائه ليعضل داؤه ويعوز دواؤه
فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها وقال بعض الحكما من ضر بطبعه فلا تانس
بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام وقال عبد الحميد اسد تقاربه خير من
حسود تراقبه وقال محمود الوراق

اعطيت كل الناس من نفسي الرضا الا الحسود فانه اعياني
ما ان لي ذنبا اليه علمته الا تظاهر نعمة الرحمن
وابي فما يرضيه الا ذلتي وذهاب اموالي وقطع لساني

وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال ثلث لا يسلم منهن احد الطيرة وسو الظن والحسد
فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تحقق واذا حسدت فلا تبغ

فصل

واما ادب المواضعة والاصطلاح فضربان احدهما ما يكون المواضعة في فروعه واصوله
والعقل موجب لاصوله والثاني ما تكون المواضعة في فروعه واصوله وذلك ينقسم
في الفصول التي ذكرنا اذا استوعب وهي ثمانية

الفصل الاول في الكلام

والصمت اعلم ان الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضماير ويخبر بمكنونات السراير
لا يمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده فحق على العاقل ان يحترز
من زلله بالامساك عنه او بالاقلال منه وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال رحم
الله امرا قال خيرا فغنم او سكت فسلم وقال النبي صلى الله عليه لمعاذ يا معاذ انت سالم ما
سكت فاذا تكلمت فلك او عليك وقال علي بن ابي طالب عليه السلام اللسان
معيار اطاشه الجهل وارجحه العقل وقال بعض الحكما الزم الصمت تعد حكيما جاهلا كنت
او عالما وقال بعض الادبا سعد من لسانه صموت وكلامه قوت وقال بعض العلما
من اعوز ما يتكلم به العاقل ان لا يتكلم الا بحاجته او حجته ولا يفكر الا في
عاقبته او اخرته وقال بعض البلغا الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ويومنك

سو المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مونة الاعتذار وقال بعض الفصحا اعقل
لسانك الا عن حق توضحه او باطل تدحضه او حكمة تنشرها او نعمة تشكرها وقال بعض الشعرا

رايت العز في ادب وعقل وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا ان تراه له وجه وليس له لسان

واعلم ان للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها ولا يعرى من النقص الا بعد
ان يستوعبها وهي اربعة فالشرط الاول ان يكون الكلام لداع يدعو اليه اما
في اجتلاب نفع او دفع ضرر والشرط الثاني ان ياتي به في موضعه ويتوخى به اصابة فرصته
والشرط الثالث ان يقتصر منه على قدر حاجته والشرط الرابع ان يتخير اللفظ
الذي يتكلم به فهذه اربعة شروط متى اخل المتكلم بشرط منها فقد اوهن فضيلة
باقيها وسنذكر من تعليل كل شرط منها ما يبين عن لزومه فاما الشرط الاول فهو الداعي
الى الكلام فلان ما لا داعي له هذيان وما لا سبب له هجر ومن سامح نفسه في الكلام اذا عن
ولم يراع صحة دواعيه واصابة معانيه كان قوله مرذولا ورايه معلولا كالذي حكي ان
ان شابا كان يجالس الاحنف ويطيل الصمت فاعجب ذلك الاحنف فخلت الحلقة يوما فقال له
الاحنف تكلم يا ابن اخي فقال يا عم ارايت لو ان رجلا سقط من شرفة هذا المسجد كان يضره شي
فقال يا ابن اخ ليتنا تركناك مستورا ثم تمثل الاحنف بقول الاعور الشني حيث يقول

وكاين ترى من صاحب لك معجبا زيادته او نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فواده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وكالذي حكي عن ابي يوسف الفقيه ان رجلا كان يجلس اليه فيطيل الصمت فقال له
ابو يوسف الا تسل قال بلى متى يفطر الصايم قال اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الشمس
الى نصف الليل فتبسم ابو يوسف وتمثل ببيتي الخطفي جد جرير

عجبت لاذرا العيي بنفسه ... وصمت الذي قد كان بالعلم اعلما
وفي الصمت ستر للعيي وانما ... صحيفة لب المرء ان يتكلما

وقال القاضي ابو الحسن رحمه الله ومما اطرفك به عني انني كنت يوما في مجلسي بالبصرة وانا مقبل على تدريس اصحابي اذ دخل شيخ حسن قد ناهز الثمانين او جاوزها فقال قد قصدتك بمسئلة اخترتك لها فقلت له سل عافاك الله وظننته انه يسأل عن حادث قد نزل به فقال اخبرني عن نجم ابليس وعن نجم ادم ما هو فان هذين لعظم شانهما لا يسأل عنهما الا علما الدين فعجب من في مجلسي من سؤاله وبدر اليه منهم بالانكار والاستخفاف قوم فكففتهم وقلت هذا لا يقنع مع ما يظهر من حاله الا بجواب مثله فاقبلت عليه وقلت يا هذا ان المنجمين يزعمون ان نجوم الناس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهم فان ظفرت بمن يعرف ذلك فاسئله تخبيه فاقبل علي وقال جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا فلما كان بعد ايام عاد وقال ما وجدت الى وقتي من يعرف مولد هذين فانظر اليهما واي كيف ابان الكلام عن جهلهم واعرب السؤال عن نقصهم اذ لم يكن لهم داع اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية ودعا اليه داع لسلموا من شينه وبرئوا من عيبه ولذلك قال النبي صلى الله عليه لسان العاقل من ورا قلبه فاذا اراد الكلام رجع الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه امسك وقلب الجاهل من ورا لسانه يتكلم بكل ما عرض له . وقال عمر بن عبد العزيز من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه . وقال بعض الحكما عقل المرء مخبو تحت لسانه . وقال بعض البلغا احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك او يتلف نفسك فلا شي اولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب . وقال ابو تمام الطائي

وما كانت العلما قالت ... لسان المر من تبع الفواد

وقال بعض العلما بحسن الرخصه في الكلام ويقول اذا جالست الجهال فانصت لهم واذا جالست العلما فانصت لهم فان في انصاتك عن الجهال زيادة في الحلم وفي انصاتك للعلما زيادة

في العلم . واما الشرط الثاني وهو ان ياتي بالكلام في موضعه فان الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به وما لا ينتفع من الكلام فقد تقدم القول فيه بانه هذيان وهجر وان قدم ما يقتضي التاخير كان عجلة وخرقا وان اخر ما يقتضي التقديم كان توانيا وعجزا لان لكل مقام قولا وفي كل زمان عملا . وقد قال الشاعر

تضع الحديث على مواضعه ... وكلامها من بعده نزر

واما الشرط الثالث وهو ان يقتصر على قدر حاجته فلان الكلام اذا لم ينحصر بالحاجة ولم يتقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية وما لم يكن من الكلام محصورا كان اما حصرا ان قصر او هذرا ان كثر . وروي ان اعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه واطال فقال النبي صلى الله عليه كم دون لسانك من حجاب فقال شفتاي واسناني فقال ان الله تعالى يكره الانبعاق في الكلام فنضر الله وجه امرا اوجز في كلامه واقتصر على حاجته . وحكي ان بعض الحكما راى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال ان الله تعالى خلق لك اذنين ولسانا واحدا ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به . وقال بعض الحكما من كثر كلامه كثرت اثامه . وقال ابن مسعود انذركم فضول المنطق . وقال بعض البلغا كلام المر بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل واياك وما يسخط سلطانك او يوحش اخوانك فمن اسخط سلطانه تعرض للمنية ومن اوحش اخوانه تبرا من الحرية . وقال بعض الشعرا

وزن الكلام اذا نطقت فانما ... يبدي عقول (عيوب) ذوي العقول المنطق

وللمخالف قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا او تكثير يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذر اشنع وربما كان في الغالب اخوف . وقال النبي صلى الله عليه وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم الا حصايد السنتهم . وقال بعض الحكما مقتل الرجل بين فكيه . وقال بعض البلغا الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الحجة

به الهذر يتلف المهجه وقال بعض الشعراء

رايت اللسان على اهله اذا ساسه الجهل ليثا مغيرا

وقال آخر

ارى الالسنه كالسيوف تقطع اعناق اصحابها

تنقص من شباب النهى يبتدي نهاها والبابها

وقد ذهب بعضهم الى ان الكلام اذا ارتفع عن قدر الحاجه وزاد على حد الكفايه وكان صوابا الا يتبين بحجه وسليما لا يتورده ذلك من البيان والسحر الحلال وقال سليمن بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه كلا ان من تكلم واحسن قدر على ان يسكت فيحسن وليس كل من سكت فاحسن قدر على ان يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الكتابه فقال الكاتب من اذا اخذ شبرا كفاه وان وجد طومارا املاه وانشد بعضهم في خطباء اياد

يرمون بالخطب الطوال وتاره وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه يا بني اذا اقللت من الكلام اكثرت من الصواب فقال يا ابه فان انا اكثرت واكثرت يعني كلاما وصوابا فقال يا بني ما رايت موعوظا احق بان يكون واعظا منك وانشد لابي الفتح البستي

تكلم وسدد ما استطعت فانما كلامك حي والسكوت جماد

فان لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لاياس بن معويه ما فيك عيب الا كثرة الكلام فقال تسمعون صوابا ام خطا قالوا بل صوابا قال فالزياده من الخير خير وقال ابو عثمان الجاحظ وليس للكلام غايه ولنشاط السامعين نهايه وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا الى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر وقال القاضي ابو الحسن صدق ابو عثمان ان الاكثار منه وان كان صوابا يمل السامع ويحمل الى الطرق ... من اعجاب به ولولا لا ينقطع عنه من اعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في كلامه كثير الزلل دائم العثار

وقال بعض الحكما من اعجب بقوله اصيب بعقله وليس للاكثار الهذر دوا يقابل توقفه ولا نفع يوازي ضرره لانه يمحق ومن نقيصته الزلل ومن مساويه الشماته والملل وليس في مقابله هذين حاجه داعيه ولا نفع مرجو وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ابغضكم الي المتفيهقون المتشدقون والملح المهب وقال رجل لحكيم متى اتكلم فقال اذا اشتهيت الصمت قال فمتى اصمت قال اذا اشتهيت الكلام وقال جعفر بن يحيى اذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا واذا كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا وقيل في منثور الحكم اذا تم العقل نقص الكلام وقال بعض الادبا من اطال صمته اجتلب من الهيبه ما ينفعه ومن الوحشه ما لا يضره وقال بعض البلغا عي تسلم به خير من نطق تندم عليه فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك واياك وفضوله فانها تزيل القدم وتورث الندم وقال بعض الحكما لسان العاقل يملكه اذا هم بالكلام احجم وفم الجاهل مطلق كلما شا اطلق وقال بعض الشعراء

ان الكلام يزين القوم جلوته حتى يلج به عي واكثار

واما الشرط الرابع وهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فلان اللسان عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فلزمه ان يكون بتهذيب الفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال للعباس يعجبني جمالك قال وما جمال الرجل قال لسانه وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان الا بهيمه مهمله او صوره ممثله وقال بعض الحكما اللسان وزن الانسان وقال بعض الادبا كلام المرء وافد ادبه وقال بعض البلغا يستدل على عقل الرجل بقوله وعلى اصله بفعله وقال بعض الشعراء

وان لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

وليس يصح اختيار الكلام الا لمن اخذ لسانه بالبلاغه وكلفها لزوم الفصاحه حتى يصير متدربا بها معتادا لها فلا ياتي الكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعنى لان

البلاغة ليست بمعان مفردة ولا الفاظا عارية وانما البلاغة ان تكون المعاني الصحيحة مستودعة في الفاظ فصيحة فتكون فصاحة الالفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة . وقد قيل لليوناني ما البلاغة فقال اختيار الكلام وتصحيح الاقسام . وقيل للرومي فقال الاقتصاد عند البديهة والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهندي فقال معرفة الفصل من الوصل . وقيل للعربي فقال ما حسن ايجازه وقل مجازه . وقيل للبدوي فقال ما دون السحر وفوق الشعر يفت الخردل ويحط الجندل . وقيل للحضرمي فقال ما كثر ايجازه وتناسبت صدوره واعجازه . وقال ابن المقفع البلاغة قلة الحصر والجراة على البشر وسال الحجاج ابن القبعثري عن الايجاز فقال ان تقول فلا تبطي وتصيب فلا تخطي . ثم قال اولى قال قد فعلت فالهوان لا تخطي ولا تبطي وقال الشاعر

خير الكلام قليل . على كثير دليل
والعي معنى قصير . يحويه لفظ طويل
وفي الكلام فضول . وفيه قال وقيل

واما صحة المعاني فتكون من ثلثة اوجه احدها ايضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة . والثاني استيفا تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو منها . والثالث صحة مقابلاتها . والمقابلة تكون من وجهين احدهما مقابلة المعنى بما يوافقه وحقيقة هذا المقاربة لان المعاني تصير متشاكلة . والثاني مقابلته بما يضاده . وهو حقيقة المقابلة وليس المقابلة الا احدى هذين الوجهين الموافقة في الايتلاف والمضادة مع الاختلاف . واما فصاحة الالفاظ فتكون بثلثة اوجه احدها مجانبة الغريب الوحشي حتى لا يمجه سمع ولا ينفر منه طبع . والثاني تنكب اللفظ المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقطه خاصي ولا ينبو عن فهم عامي كما قال الجاحظ في كتاب البيان اما انا فلم ار قوما امثل طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك انهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا عاميا . والثالث ان يكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة اما المطابقة فهو ان تكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها . وقد قال بشر بن المعتمر في صحيفته في البلاغة اذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها ولا صائرة الى مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجدتها قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على القرار في غير موضعها فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون لم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك احد واذا انت تكلفتها ولم تكن حاذقا فيهما عابك من انت اقل عيبا منه وازرى عليك من انت فوقه . واما المناسبة فهو ان يكون المعنى يليق ببعض الالفاظ اما لعرف مستعمل او لاتفاق مستحسن حتى اذا ذكرت لتلك المعاني بغير تلك الالفاظ كانت نافرة عنها وان كانت افصح واوضح لاعتياد ما سواها . وقد قال بعض البلغا لا يكون البليغ بليغا حتى يكون معنى كلامه اسبق الى فهمك من لفظه الى سمعك . فاما مطاطاة الاعراب وتجنب اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغة اعلا منه رتبة واشرف منزلة وليس لمن تحرز في كلامه من الخطا في الادا فضل عن ان يكون في عداد البلغا الفصحا . واعلم ان للكلام ادابا ان اغفلها ذهب رونق كلامه وطمس نجم بيانه وعدل الناس عن محاسن فضله بمساوي ادبه وعدلوا عن شرف مناقبه بذكر مثالبه فمن ادابه ان لا يتجوز في مدح ولا يسرف في ذم وان كانت النزاهة عن الذم كرما والتجوز عن المدح ملقا يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب . وروي انه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وفد تميم سال رسول الله صلى الله عليه ابن الاهتم عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس والله يا رسول الله لقد علم اني لخير مما وصف ولكنه حسدني فذمه عمرو فقال والله يا رسول الله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في الاخرى لاني رضيت في الاولى فقلت احسن ما علمت وسخطت في الاخرى فقلت اقبح ما علمت . فقال رسول الله صلى الله عليه ان

من البلغا الحكما ان السلامه من الكذب في المدح والذم متعذره لاسيما اذا مدح تقربا وذم تحنقا وحكي عن الاحنف بن قيس انه قال سهرت ليلتي افكر في كلمة ارضي بها سلطاني ولا اسخط بها ربي فما وجدتها وقال عبد الله بن مسعود ان الرجل ليدخل علي السلطان ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط الله تعالي وسمع ابن الرومي رجلا يبالغ في مدحه فانشا يقول

اذا ما وصفت امرا لامري فلا تغل في وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنون فيه الي الامد الابعد
فيضال من حيث عظمته لفضل المغيب علي المشهد

ومن ادابه الا تبعثه الرغبه والرهبه علي الاسترسال في وعد او وعيد يعجز عنهما ولا يقدر علي الوفا بهما فان من اطلق بهما لسانه وارسل فيهما عنانه لم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعده نكثا ووعيده عجزا وقد حكي ان سليمان بن داود مر بعصفور يدور حول عصفوره فقال لاصحابه اتدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبي الله قال انه يخطبها الي نفسه ويقول زوجيني نفسك اسكنك اي غرف دمشق فقال سليمان وكذب العصفور غرف دمشق مبنيه بالصخر لا يقدر ان يسكنها هناك ولكن كل خاطب كذاب ومن ادابه انه اذا قال قولا حققه بفعله وان تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال القول اختيار والعمل به اضطرار ولان يفعل ما لم يقل اجمل من ان يقول ما لا يفعل وقد قال بعض الحكما احسن الكلام ما لا يحتاج فيه الي الكلام اي يكتفي بالفعل من القول وقال محمود الوراق

القول ما صدقه الفعل والفعل ما وكده العقل
لا يثبت القول اذا لم يكن يقله من تحته الاصل

ومن ادابه ان يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده واغراضه فان كان ترغيبا قرنه

باللين واللطف وان كان ترهيبا خلطه بالخشونه والعنف فان لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل للمقصود بهما فيصير الكلام لغوا والغرض المقصود لهوا وقد قال ابو الاسود الدولي لابنه يا بني اذا كنت في قوم فلا تكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام من هو دونك فيزدروك ومن ادابه ان لا يرفع بكلامه صوتا مستكرها ولا ينزعج له انزعاجا مستهجنا وليكف عن حركة تكون طيشا وعن اشارة تكون عيا فان بعض البلغا ... وقد حكي ان الحجاج قال لاعرابي اخطيب انا قال نعم لولا انك تكثر الرد وتشير باليد وتقول اما بعد ومن ادابه ان يتجافي هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الي الكنايه عما يستقبح صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وادبه مصون وقد قال محمد بن علي في تاويل قوله تعالي واذا مروا باللغو مروا كراما قال كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما انه يصون لسانه عن ذلك فكذلك يصون سمعه عنه فلا يسمع خنا ولا يصغي الي فحش فان سماع الفحش داع الي اظهاره وذريعه الي انكاره واذا وجد عن الفحش معرضا كف قائله وكان اعراضه احد النكيرين كما ان سماعه احد الباعثين انشدني ابو الحسن بن ابي الحارث

وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح شريك لقائله فانتبه

ومما يجري مجري فحش القول وهجره في وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه ما كان شنيع البديهه مستنكر الظاهر وان كان مع التامل سليما وبعد الكشف والرويه مستقيما كالذي رواه الازدي عن الصولي لبعض المتكلفين من الشعرا

انني شيخ كبير كان بابيه سريري
انت ربي والاهي يا ذا الطفل الصغير

يريد بقوله كافرا اي لابس لان الكفر التغطيه ولذلك سمي الكافر باسمه كافرا لانه قد
غطا نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سيري اقسم عليها بالله ان تسير وقوله انت ربي
اي رتي ولذلك سمي المربي والاصل ان الطفل الصغير كانه دارق الجلد الكبير فانظر
الي هذا الاختلاف البشع والتمن الشنيع ما اغناه عن حيث البديهة اذا سلم ابعد الكفر
والدويه الا انهما ان خسر فيه الظن او دما ان فيه الارتياب فلقل ما يكون ذلك الا من
خليع بطن او مرتاب بشره فاما الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه انه قال لا تصلوا على
النبي فخارج من هذا النوع من التلبيس وفي تاويله وجهان احدهما انه اراد النهي عن
الصلاة في المكان المرتفع المحدودب ماخوذ من النبوه والثاني انه اراد الطريق
ومنه سموا رسل الله انبيا لانهم الطريق اليه وانما زال عنه التلبيس اذ قاله النبي صلى الله عليه
وان كان من قول غيره تلبيسا شنيعا لان موضوع خطابه وشواهد احواله يبرئان كلامه
عن التجوز والاسترسال في امر او نهي الى ما يجوز ان يرد به شرع وينهى عنه نبي
وليس يمتنع ذلك من غيره فلذلك ما افترق وجوده منه ومن غيره ومن ادابه
ان يجتنب امثال العامه الغوغا ويختص بامثال العلما والادبا فان لكل صنف من
الناس امثالا تشاكلهم فلا تجد لساقط الا مثلا ساقطا وتشبيها مستقبحا
وقد قال الصنوبري

والسفاط امثال فمنهم تمثلهم لاي الشي المريب
اذا ما كنت ذا بول صحيح الا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان احدهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس فلم يكن لذي الهمه
الساقطه الا مثل مرذول وتشبيه معلول والثاني ان الامثال مستخرجه من احوال
المتمثلين بها فبحسب ما هم عليه تكون امثالهم فلهاتين العلتين ما وقع الفرق بين امثال
الخاصه والعامه وربما الف المتخصص مثلا عاميا او تشبيها ركيكا لكثرة ما يطرق

سمعه من مخالطة الارذال فيسترسل في ضربه مثلا فيصير به في المنازل كالذي
حكي عن الاصمعي ان الرشيد ساله يوما عن انساب بعض العرب فقال على الخبير سقطت
يا امير المومنين فقال له الفضل ابن الربيع اسقط الله حسبك اتخاطب امير المومنين
بمثل هذا الخطاب فكان الفضل ابن الربيع مع قلة علمه اعرف بما يستعمل من الكلام
في محاورة الخلفا من الاصمعي الذي هو اوحد عصره وقريع دهره وللامثال من الكلام
مواقع في الاسماع وتاثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يوثر
تاثيرها لان المعاني بها لايحه والشواهد بها واضحه والنفوس بها وامقه والقلوب
بها واثقه والعقول لها موافقه ولذلك ضرب الله الامثال في كتبه وجعلها من
دلايل رسله واوضح بها الحجة على خلقه لانها في العقول معقوله وفي القلوب مقبوله ولها
اربعه شروط احدها صحة التشبيه واصابة التمثيل والثاني ان يكون العلم بها
سابقا والكل عليه موافقا والثالث ان يسرع وصولها الى الفهم ويعجل تصورها في الوهم
من غير ارتياء في استخراجها ولا كد فكر في استنباطها والرابع ان يناسب حال
السامع ليكون ابلغ تاثيرا واحسن موقعا فاذا اجتمعت الامثال المضروبه هذه
الشروط الاربعه كانت زينة الكلام وجلا المعاني وتدبر الافهام

الفصل الثاني في الصبر والجزع

اعلم ان من حسن التوفيق وامارات
السعادة الصبر في الملمات والرفق عند النوازل وبذلك نزل الكتاب وجات
السنه قال الله تعالى يا ايها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم
تفلحون يعني اصبروا على ما افترض الله عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تاويلان
احدهما رابطوا على الجهاد والثاني رابطوا على انتظار الصلوات روى ابو هريره قال قال
رسول الله صلى الله عليه الا ادلكم على ما يحبط الله تعالى به الخطايا ويرفع به الدرجات
قالوا بلى يا رسول الله قال اسباغ الوضوء عند المكاره وكثرة الخطى الى المساجد

وانتظاره للصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط، ونزل الكتاب بتاكيد الصبر فيما امر به وندب
اليه، وجعله من عزم التقوى فيما افترضه وحث عليه، وروي عن النبي صلى الله عليه
انه قال الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب، وقال علي بن ابي طالب عليه السلام
الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو، وقال عبد الحميد لم اسمع اعجب من قول
عمر بن الخطاب لو ان الصبر والشكر بعيران ما باليت ايهما ركبت، وقال عبد الله بن
عباس افضل العدة الصبر على الشدة، وقال بعض البلغاء من خير خلالك الصبر على
اختلالك، وقيل في منثور الحكم من احب البقا فليعد للمصايب قلبا صبورا،
وقال بعض الحكما بالصبر على مواقع الكره تدرك الحظوظ، وقال عبيد بن الابرص

اصبر النفس عند كل ملم ان في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن في الامور فقد تكشف غماوها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الامر لها فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة الصبر صبران فاللئام اصبر اجساما والكرام اصبر
نفوسا، وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل
لان هذا من صفات الحمير، ولكن ان يكون للنفس غلوبا وللامور محتملا وجاشه
عند الحفاظ مرتبطا، واعلم ان الصبر على ستة اقسام وهو في كل قسم منها محمود
فاول اقسامه واولاه الصبر على امتثال ما امر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله سبحانه
عنه لان به تخلص الطاعة وبخلوص الطاعة يصح الدين وتودى الفروض ويستحق
الثواب كما قال في محكم الكتاب انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب، ولذلك قال
النبي صلى الله عليه الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد، وليس لمن قل صبره على طاعة الله
حظ من بر ولا نصيب من صلاح، ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا
كان من سو الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال، وقد قال الحسن البصري يا من يطلب

من الدنيا ما لا يلحقه اترجوا ان تلحق من الاخرة ما لا تطلبه، وقال ابو العتاهيه

اراك امرا ترجوا من الله عفوه وانت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وانت مقصر طبيب يداوي الناس وهو سقيم

وهذا الصبر انما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فان من خاف الله تعالى صبر على طاعته
ومن جزع من عقابه وقف عند اوامره، والقسم الثاني الصبر على ما تقتضيه اوقاته
من رزية قد اجهده الحزن عليها او حادثة قد كده الهم بها فان الصبر
عليها يعقبه الراحة منها ويكسبه المثوبة بها فان صبر طايعا والا احتمل هما لازما
وصبر كارها اثما، روي عن النبي صلى الله عليه انه قال يقول الله تعالى من لم يرض
بقضاي ويصبر على بلاي فليلتمس ربا سواي، وقال امير المومنين علي بن ابي طالب عليه
السلام للاشعث بن قيس انك ان صبرت جرى عليك القلم وانت ماجور وان جزعت
جرى عليك القلم وانت مازور، فذكر ذلك ابو تمام في شعره فقال

وقال علي في التعازي لاشعث وخاف عليه بعض تلك الماثم
تصبر للبلوى عزا وحسبة فتوجر او تسلوا سلو البهايم

وقال شبيب بن شيبه للمهدي ان احق ما يصبر عليه ما لم نجد سبيلا الى دفعه، وانشد

واذا تصبك مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر

والقسم الثالث الصبر على ما فات ادراكه من رغبة مرجوة واعوز نيله من مسرة
مامولة فان الصبر عنها يعقب السلوة منها والاسف بعد الياس خرق، روي عن النبي
صلى الله عليه انه قال من اعطي فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر اولئك لهم الامن
وهم مهتدون، وقال بعض الحكما اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لم يخطر ببالك
فلم تقله، وقال بعض الشعراء

اذا ملك القضا عليك امرا فليس يحله غير القضا

فما لك والمقام بدار ذل ... ودار العز واسعة الفضاء

وقال بعض الحكماء إن كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لم يصل اليك وأخذه بعض الشعراء فقال

لا تطل الحزن على فائت ... فقلما يجدي عليك الحزن

سيان محزون على ما مضى ... ومظهر حزنا لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها او يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يأت فان اكثر الهموم كاذبة والغالب من الخوف مدفوع وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال بالصبر يتوقع الفرج ومن يدمن قرع الباب يلج ٥ وقال الحسن البصري لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه وانشد الجاحظ لحارثة بن بدر

اذا الهم امسى وهو داء فامضه ... ولست بممضيه وانت تعادله

ولا تنزلن امر الشديد بامرئ ... اذا هم امرا عوقته عواذله

وقل للفؤاد ان نزا بك نزوة ... من الروع افرخ اكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظرها من نعمة يأملها فانه ان ادهشه التوقع لها واذهله التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب واستفزه تسويل المطامع فكان ابعد لرجائه واعظم لبلائه واذا كان مع الرغبة وقورا وعند الطلب صبورا انجلت عنه غماية الدهش وانجابت عنه حيرة الوله فابصر رشده وعرف قصده ٥ وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال الصبر ضياء يعني والله اعلم انه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الامور ٥ وقال اكثم بن صيفي من صبر ظفر ٥ وقال ابن المقفع كان في قصر اردشير مكتوب الصبر مفتاح الدرك وقال بعض الحكماء بحسن التأني تسهل المطالب ٥ وقال بعض البلغاء من صبر نال المنى

ومن شكر حسن النعمى وقال محمد بن بشير

ان الامور اذا انسدت مسالكها ... فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا

لا تيأسن وان طالت مطالبة ... اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا

اخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للابواب ان يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه او حل من امر مخوف فبالصبر في هذا تنفتح وجوه الآراء وتستدفع مكايد الاعداء فان من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه وقد قال الله تعالى واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور ٥ وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان استطعت ان تعمل لله تعالى بالرضا في اليقين فافعل فان لم تستطع فاصبر فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ٥ واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وان مع اليسر مع العسر ٥ وقال علي بن ابي طالب عليه السلام الصبر مناضل الحدثان والجزع من اعوان الزمان ٥ وقال بعض الحكماء مفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور ٥ وقال بعض البلغاء عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج ٥ وروي عن ابن عباس ان سليمان بن داود لما سخر شياطينه في البناء شكوا ذلك الى ابليس فقال الستم تذهبون فرغا وترجعون مشاغيل قالوا بلى قال ففي هذا راحة فبلغ ذلك سليمان فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس فقال الستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففي هذا راحة لكم نصف دهركم فبلغ ذلك سليمان فاستعملهم الليل والنهار فشكوا ذلك الى ابليس فقال الآن جاءكم الفرج فما لبث ان اصيب سليمان ميتا على عصاه واذا كان هذا في نبي من انبياء الله تعالى يعمل بامره ويقف على حده فكيف بما جرته الاقدار من ايد عادية وساقه القضاء من حوادث نائبة هل يكون مع التناهي الا منقرضة وعند بلوغ الغاية الا منحسرة وانشد بعض الادباء لعثمان بن عفان

خليلي لا والله ما من ملمة تدوم على حي وان هي جلت
فان نزلت يوما فلا تخضعن لها ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت
وكم غمرة هاجت بامواج غمرة تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذل ذلت
فكم من كريم قد بلي بنوايب فصابرها حتى مضت فاضمحلت
فقال لها يا نفس عيشي كريمة فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ولتسهيل المصايب وتخفيف الشدايد اسباب اذا قارنت حزنا وصادفت عزما هان وقعها وقل تاثيرها فمنها اشعار النفس بما تعلمه من حلول الفنا وتقضي المسار وان لها آجالا منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقاء روي ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه انه قال انما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب مال الى ظل شجرة في يوم صايف ثم راح وتركها وسيل علي بن ابي طالب عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر وقال عمر بن عبد العزيز الدنيا امد والاخرة ابد وقال انوشروان ان الحياة لا تعتم ولا تبقي ما تهتم فاخذه بعض الشعراء فقال

الم تر ان الدهر من سوء فعله يكدر ما اعطى ويسلب ما اسدى
فمن سره ان لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيا يبالي به فقدا

وانشد لبعض الحكما

لحكمنا بقراط خير قضية ووصية تنفي الهموم الركدا
قال الهموم تكون من طبع الورى في لب ما في طبعه ان ينفدا
فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا للكسر فانكسرت فلا تك مكمدا

وانشدني بعض اهل العلم اسعيد بن سلم

انما الدنيا هبات وعوار مستردة

شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

ولما قتل يزدجمهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن جد ففيم الكد واذا لم يكن للامور دوام ففيم السرور واذا لم يكن بد من نعالي ودوام ملك ففيم الحيلة

وقال ابن الرومي

رايت حياة المرء رهنا بموته وصحته رهنا كذلك بالسقم
اذا طاب لي عيش تنغصت طيبه بصدق يقيني ان سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعي زواله فذلك في بوس وان كان في نعم

ومنها ان يتصور انجلا الشدايد وانكشاف الهموم وانها تتقدر باوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها ولا تقصر بجزع ولا تطول بصبر وان كل يوم يمر بها يذهب منها بشطر وياخذ منها بنصيب حتى تنجلي وهو عنها غافل وحكي ان الرشيد حبس رجلا ثم سال عنه بعد زمان فقال للموكل قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بوسي مثله والامر قريب والحكم لله فاخذ هذا المعنى بعض الشعرا فقال

لو ان ما انتم فيه يدوم لكم ظننت ما انا فيه دايم ابدا
لكنني عالم اني وانكم سنستجد خلاف الحالتين غدا

وانشدت لبعض الشعراء

عواقب مكروه الامور خيار وايام شر لا تدوم قصار
وليس بباق بوسها ونعيمها اذا كر ليل بعده ونهار

وانشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة

الم تر ان الليل يفني ايامه الحديثة والقديمة
تسل عن الهموم فليس شي يدوم ولا همومك بالمقيمة

لعل الله ينظر بعد هذا اليك بنظرة منه رحيمة

ومنها ان يعلم ان نوائب من الرزايا وكفى من الحوادث ما هو اعظم من رزيته واشد من حادثته
ليعلم انه ممنوح بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلى الله عليه ان لله تعالى في اثناء كل محنة
منحة وقيل للشعبي في نائبة كيف اصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر
مستور

وقال بعض الشعراء

لا تكره المكروه عند حلوله ان العواقب لم تزل متباينه
كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طي المكاره كامنه

ومنها ان يتاسى بذوي الغير ويتسلى باولي العبر ويعلم انهم الاكثرون عددا والاسرعون
مددا فيستجد من سلوة الاسى وسلوة العزا ما يخفف شجوه ويقل هلعه وقال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه المصقوا بذوي الغير تتسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مراثي الشعراء قال البحتري

فلا عجب للاسد ان ظفرت بها كلاب الاعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردى وموت علي من حسام بن ملجم

وقال ابو فراس

المرء رهن مصايب لا تنقضي حتى يوارى جسمه في رمسه
فمؤجل يلقى الردى في اهله ومعجل يلقى الردى في نفسه

ومنها ان يعلم ان النعم زائرة وانها لا محالة زائلة وان السرور بها اذا اقبلت مشوب بالحذر
من فراقها اذا ادبرت وانها لا تفرح باقبالها فرحا حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون
الحزن وقد قيل في منثور الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقيل من بلغ غاية
ما يحب فليتوقع غاية ما يكره وقال بعض الحكماء من علم ان كل نائبة الى انقضاء حسن
عزاؤه عند نزول البلاء وقيل للحسن البصري كيف ترى الدنيا قال شغلني توقع بلائها
عن الفرح برخائها فاخذه ابو العتاهية فقال

تزيده الايام ان اقبلت شدة خوف لتصاريفها

كانها في حال اسعافها تسمعه وقعة تخويفها

ومنها ان يعلم ان سروره مقرون بمساءة غيره وكذلك حزنه مقرون بسرور غيره
اذ كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصل الى صاحب بفقد صاحب فتكون
سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقته ولذلك قال النبي صلى الله عليه ما قرعت عصا على
عصا الا فرح لها قوم وحزن اخرون وقال البحتري

متى ارت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه

واوضحه المتنبي فقال

بذا قضت الايام ما بين اهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

وانشد بعض اهل الادب

الا انما الدنيا غضارة ايكة اذا اخضر منها جانب جف جانب
ولا تفرحن منها لشي تفيده سيذهب يوما مثل ما انت ذاهب
وما هذه الايام الا فجائع وما العيش واللذات الا مصائب

ومنها ان يعلم ان طوارق الانسان من دلائل فضله ومحنه من شواهد نبله فلذلك
احدى علتين اما لان الكمال معوز والنقص لازم فاذا توفر الفضل عليه ظهر النقص فيما
سواه وقد قيل من زاد في عقله نقص من رزقه وروي عن النبي صلى الله عليه
انه قال ما انتقصت جارحة من انسان الا كانت ذكاء في عقله وقال ابو العتاهية

ما جاوز المرء من اطرافه طرفا الا تخونه النقصان من طرف

وانشد بعض الادباء لابراهيم بن هلال الكاتب

اذا جمعت بين امرين صناعة فاحببت ان تدري الذي هو احذق
فلا تتفقد منهما غير ما جرت به لهما الارزاق حين تفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

واما الان ذا الفضل محسود، وبالاذى مقصود فهو لا يسلم من شر معاند واشتطاط مناود
وقد قال الصنوبري

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى ... كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقل ما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الا على يد جاهل لاستحكام العداوة بينهما بالمباينه وحدوث الانتقام لاجل التقدم وقد قال الشاعر

فلا غرو ان يمنى اديب بجاهل ... فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنها ما تعتاضه من الارتياض من نوايب عصره فيستفيد من الحنكه بلاواء دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويكمل بادي شدته ورخايه ويتعظ بحالي عفوه وبلايه حكي عن ثعلب قال دخلت على عبيد الله بن سليمن بن وهب وعليه خلع الرضا بعد النكبه فلما مثلت بين يديه قال لي يا ابا العباس

نوايب الدهر ادبتني ... وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا ... كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بوس ولا نعيم ... الا ولي فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالي ... من كل خطب له خطوب

فقلت لمن هذه الابيات قال لي ومنها ان يختبر امور زمانه ويتنبه على صلاح شانه فلا يغتر برخا ولا يطمع في استوا ولا يامل ان يبقى الدنيا على حالة او يخلو من تقلب واستحاله فان من عرف الدنيا وخبر احوالها هان عليه بوسها ونعيمها وانشد بعض الادبا

اني رايت عواقب الدنيا ... فتركت ما اهوى لما اخشى
فكرت في الدنيا وما فيها ... فاذا جميع امورها يفنى
وبلوت اكثر اهلها فاذا ... كل امري في شانه يسعى
اسنى منازلها وارفعها ... في العز اقربها من المهوى

تعرفوا مساويها ومحاسنها ... لا شي بين النعي والبشرى
ولقد مررت على القبور فما ... ميزت بين العبد والمولى
اتراك تدري كم رايت من الاحباء ثم رايتهم ... موتى

فاذا ظفر المصاب باحدى هذه الاسباب تخففت عنه احزانه وتسهلت عليه اشجانه فصار وشيك السلوه قليل الجزع حسن العزاء وقال بعض الحكماء من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يكن متوجعا وقال بعض الشعراء

ما يكون الامر سهلا كله ... انما الدهر سهول وحزون
هون الامر تعش في راحة ... قل ما هونت الا سيهون

فان اغفل نفسه عن دواعي السلوه ومنعها من اسباب الصبر تضاعف عليه من شدة الاسى وهم الجزع ما لا يطيق صبرا عليه ولا يجد سلوا عنه وقال ابن الرومي

ان البلا يطاق غير مضاعف ... فاذا تضاعف صار غير مطاق

وان ساعده جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامده هلعه بالذرايع الداعيه اليه فقد سعى في حتفه واعان على تلفه فمن اسباب ذلك تذكر المصاب حتى لا يتناساه وتصوره حتى لا يعزب ولا يجد مع التذكار سلوه ولا مع التصور تعزيه وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تستغزر الدموع وتبعث الاحزان مثل التذكر وقال الشاعر

ولا يبعث الاحزان مثل التذكر

ومنها الاسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد لمفقوده بدلا فيزداد بالاسف هلعا ولها وبالحسرة هلعا ولذلك قال الله تعالى لكيلا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم

وقال بعض الشعرا

اذا ابتليت فثق بالله وارض به ... ان الذي يكشف البلوى هو الله
الياس يقطع احيانا بصاحبه ... لا تياسن فان الصانع الله

اذا قضى الله فاستسلم لقدرته ما لامرى حيلة فيما قضى الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه الصبر الذي
لا شكوى فيه ولا بث ۞ وروى انس بن مالك ان النبي صلى الله عليه انه قال ما صبر من بث وحكى
كعب الاحبار انه مكتوب في التورية من اصابته مصيبة فشكا الى الناس فانما يشكو ربه
وحكي ان اعرابية دخلت من البادية فسمعت صوارخ في دار فقالت ما هذا فقيل لها مات
لهم ميت فقالت ما اراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه
يرغبون ۞ وفي منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه وانشدني بعض اهل العلم

لا تكثر الشكوى الى الصديق ۞ وارجع الى الخالق لا المخلوق
لا يخرج الغريق بالغريق ۞ وقال بعض الشعراء

لا تشك دهرك ما صححت به ان الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعا بغضارة الدنيا مع السقم

ومنها الياس من خير مصابه ودرك طلابه فيقترن بحوادث الحادثة قنوط الاياس فلا
يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر ولذلك قيل المصيبة بالصبر اعظم المصيبتين وقال ابن الرومي

اصبري ايها النفس فان الصبر احجى ۞ ربما خاب رجاء واتى ما ليس يرجى

وانشدني بعض اهل الادب

اتحسب ان البوس للحر دائم ولو دام شي عده الناس في العجب
لقد عرفتك الحادثات نفوسها وقد ادبت ان كان ينفعك الادب
ولو طلب الانسان من صرف دهره دوام الذي يخشى لاعياه ما طلب

ومنها ان يغري بملاحظة من حيطت سلامته وحرست نعمته حتى التحف بالامن والدعه
واستمتع بالثروة والسعة ويرى انه قد خص من بينهم بالرزية بعد ان كان مساويا او ازيد
بالحادثة بعد ان كان مكافيا فلا يستطيع صبرا على بلوى ولا يلتزم شكرا على نعمى ولو قابل

بهذا النظر ملاحظة من شاركه في الرتبة وساواه في الحادثة لتكافا الامران فهان عليه
الصبر وحان عنده الفرج ۞ انشدت لامراة من العرب

ايها الانسان صبرا ان بعد العسر يسرا
كم راينا اليوم حرا لم يكن بالامس حرا
ملك الصبر فاضحى مالكا خيرا وشرا
اشرب الصبر وان كان من الصبر امرا

وانشد بعض اهل الادب

يواع الفتى للخطب تبدو اصدوره فياسى على عقابه ياتي سروره
الم تر ان الليل لما تراكمت دجاه بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبن الياس ان كنت عالما لبيبا فان الدهر شتى اموره

واعلم انه قل من صبر على حادثة وتماسك في نكبة الا كان انكشافها وشيكا وكان الفرج
منها قريبا ۞ اخبرني بعض اهل العلم والادب ان ابا ايوب الكاتب حبس في السجن
خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته وقل صبره فكتب الى بعض اخوانه يشكو طول حبسه ۞
وقلة صبره فورد عليه جواب رقعته

صبرا ابا ايوب صبرا مبرح فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها
ان الذي عقد الذي انعقدت له عقد المكاره فيك يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة ولعلها ان تنجلي ولعلها

فاجابه ابو ايوب

صبرتني ووعظتني وانا لها وستنجلي بل لا اقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها كرما به اذ كان يملك حلها

قال فلم يلبث بعد ذلك في السجن الا اياما اطلق مكرما وانشد ابن دريد عن ابي حاتم

اذا اشتملت على الياس القلوب ... وضاق لما به الصدر الرحيب
واوطنت المكاره واطمانت ... وارست في اماكنها الخطوب
فلم ترى لانكشاف الضر وجها ... ولا اغنى بحيلته الاريب
اتاك على قنوط منك غوث ... يمن به القريب المستجيب
وكل الحادثات وان تناهت ... فموصول بها الفرج القريب

الفصل الثالث في المشورة

اعلم ان من الحزم لكل ذي لب ان لا يبرم امرا ولا يمضي عزما الا بمشورة ذي الراي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح قال الله تعالى امر نبيه صلى الله عليه مع ما تكفل به من ارشاده ووعد به من تاييده فقال تعالى وشاورهم في الامر قال قتادة امره بمشاورتهم تالفا لهم وتطييبا لانفسهم ه وقال الضحاك امره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل ه وقال الحسن البصري امره بمشاورتهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المومنون وان كان عن مشورتهم غنيا ه وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال المشاورة حصن من الندامة وامان من الملامة ه وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه نعم الموازرة المشاورة وبيس الاستعداد الاستبداد ه وقال عمر بن الخطاب رحمه الله الرجال ثلثة رجل ترد عليه الامور فيسددها برايه ورجل يشاور فيما اشكل عليه وينزل حيث يامره اهل الراي ورجل حاير باير لا ياتمر رشدا ولا يطيع مرشدا ه وقال عمر بن عبد العزيز ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما راي ولا يفقد معهما حزم ه وقال سيف بن ذي يزن من اعجب برايه لم يشاور ومن استبد برايه كان من الصواب بعيدا ه وقال عبد الحميد المشاور في رايه ناظر من ورايه ه وقيل في منثور الحكم المشورة راحة لك وتعب على غيرك ه وقال بعض الحكما الاستشارة عين الهداية ه وقد خاطر من استغنى برايه ه وقال بعض الحكما ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ه وقال بعض البلغا من حق العاقل ان يضيف الى رايه ارا العقلا ويجمع الى عقله عقول الحكما فالعقل الفذ ربما زل

١٣

والعقل الفرد ربما ضل ه وقال بشار بن برد

اذا بلغ الراي المشورة فاستعن ... براي نصيح او مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... مكان الخوافي قوة للقوادم

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من اهلها من قد استكملت فيه خمس خصال احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب تصح الروية ه وقد روى ابو الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه انه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا ه وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوا فانه يوشك ان يورطك بمشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتوريط الجاهل ه وقيل لرجل من عبس ما اكثر صوابكم فقال نحن الف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكانا الف حازم ه وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره او كبير قد اخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه ه وقيل في منثور الحكم كل شي محتاج الى العقل والعقل محتاج الى التجارب ولذلك قيل الايام تهتك عن الاستار الكامنة ه وقال بعض الحكما التجارب ليست لها غاية والعاقل منها في زيادة ه وقال بعض البلغا من استعان بذوي العقول فاز بدرك المامول ه وقال ابو الاسود الديلي ه

وما كل ذي نصح بموتيك نصحه ... ولا كل موت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب ... فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية ان يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مامون السريرة موفق العزيمة ه روى عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه من اراد امرا فشاور فيه امرا مسلما وفقه الله لارشد اموره ه والخصلة الثالثة ان يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودة يصدقان الفكرة ويمحضان الراي ه وقد قال بعض الحكما لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود واياك ومشاورة النسا فان رايهن الى الافن وعزمهن الى الوهن ه وقد قال بعض الادبا شاور الحازم المشفق ظهر وشرع

وقال بعض الشعراء

اصف ضميرا لمن تعاشره واسكن الى ناصح تشاوره

وارض من المرء في مودته بما يؤدي اليك ظاهره

من يكشف الناس لا يجد احدا تصح منهم له سرائره

اوشك ان لا يدوم وصل اخ في كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة ان يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فان من عارضت فكره شوائب الهموم لم يسلم له راي ولم يستقم له خاطر. وقد قيل في منثور الحكم بتردد الفكر ينجاب لك الغرر. وكان كسرى اذا دهمه امر بعث الى مرازبته فاستشارهم فان قصروا في الراي ضرب قهرمانه وقال ابطأتم في ارزاقهم فاخطأوا في رايهم. وقال صالح بن عبد القدوس

ولا مشير كذي نصح ومقدرة في مشكل الامر فاختر ذاك منتصحا

الخصلة الخامسة ان لا يكون له في الامر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صاد والراي اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد. وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب

وقد يحكم الايام من كان جاهلا ويردي الهوى ذا الراي وهو لبيب

ويحمد في الامر الفتى وهو مخطئ ويعذل في الاحسان وهو مصيب

فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان اهلا للمشورة ومعدنا للراي فلا تعدل عن استشارته اعتمادا على ما تتوهمه من فضل رايك وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان راي غير ذي الحاجة اسلم وهو من الصواب اقرب لخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوى وارتفاع الشهوة. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال راس العقل بعد الايمان بالله التودد الى الناس وما استغنى مستبد برايه. وقال علي عليه السلام الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برايه.

وقال لقمان لابنه شاور من جرب الامور فانه يعطيك من رايه ما قام عليه بالغلاء وانت تاخذه مجانا. وقال بعض الحكماء نصف رايك مع اخيك فشاوره ليكمل لك الراي. وقال بعض الادباء من استغنى برايه ضل ومن اكتفى بعقله زل. وقال بعض البلغاء الخطأ مع الاسترشاد احمد من الصواب مع الاستبداد. وقال بعض الشعراء

خليلي ليس الراي في صدر واحد اشيرا علي اليوم ما تريان

ولا ينبغي ان يتصور في نفسه انه ان شاور في امره ظهر للناس منه ضعف رايه وفساد رويته حتى افتقر الى راي غيره فان هذه معاذير النوكى. وليس يراد الراي للمباهاة به وانما يراد للانتفاع بنتائجه والتحرز من الخطأ عند زلله. وكيف يكون عارا ما ادى الى صواب وصد عن خطأ. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال القحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على اموركم بالمشاورة. وقال بعض الحكماء من كمال عقلك استظهارك على عقلك. وقال بعض البلغاء اذا اشكلت عليك الامور وتغير لك الجمهور فارجع الى راي العقلاء وافزع الى استشارة العلماء ولا تأنف من الاسترشاد ولا تستنكف من الاستمداد فلأن تستشير وتسلم خير لك من ان تستبد وتندم.

وينبغي ان يكثر من استشارة ذوي الالباب لا سيما في الامر الجليل فقل ما يضل عن الجماعة راي او يذهب عنهم صواب لارسال الخواطر الثاقبة واجالة الافكار الصادقة فلا يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز. وقد قيل في منثور الحكم من اكثر من المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا وعند الخطأ عاذرا. وان كان الخطأ من الجماعة بعيدا. فاذا استشار الجماعة فقد اختلف اهل الراي في اجتماعهم عليه او افراد كل واحد منهم. فذهب الفرس الى ان اجتماعهم على الارتياء واجالة الفكر ليذكر كل واحد منهم ما قدحه خاطره ونتجه فكره حتى اذا كان فيه قدح عورض او توجه عليه رد نوقض كالجدل الذي يكون فيه المناظرة ويقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع اجتماع القرائح عليه خلل الا ظهر ولا زلل الا بان. وذهب غيرهم من اصناف الامم الى ان الاولى استشارة كل واحد بالمشورة ليجيل كل واحد منهم

في الراي طمعا في الخطوة بالصواب فان القرايح اذا تفرقت استكدها الفكر واستفرغها
الاجتهاد واذا اجتمعت فوضت فكان الاول من راييهما متبوعا ولكل واحد من المذهبين
وجه ووجه الثاني اظهر والذي اراه في الاولي غير هذين المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر
اهل الشوري فان تجانست بهم حال واهله هل هي صواب ام خطا فان اجتماعهم عليها اولي لانها
تتردد بين امرين اما المراد منه الاعتراض على فساده او ظهور الحجة في صلاحه وهو مع الاجتماع ابلغ
وعند المناظرة اوضح وان كان الشوري في خطب قد استبهم صوابه او استعجم جوابه من
امور حادثة واحوال غامضة ولم يحصرها عدد ولا يجمعها تقسيم ولا عرف لها جواب فيكشف
عن خطايه وصوابه فالاولي في مثله انفراد كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد في الجواب ثم
يقع الكشف عن احسنها هو اما صواب فيكون الاجتهاد في الجواب منفردا او الكشف عن القول
مجتمعا لان الانفراد في الاجتهاد اصح والاجتماع على المناظرة ابلغ فهذا ما راه وينبغي ان
يسلم اهل الشوري من حسد التنافس فيمنعهم من تسليم الصواب لصاحبه ثم
يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم في الاراء والاجتهاد واذا تصفح اقاويل
جميعهم كشف عن اصولها واسبابها وبحث عن نتايجها وعواقبها حتى لا يكون في الامر مقلدا
ولا في الراي مفوضا فانه يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلث خصال احداهن
معرفة عقله وصحة رويته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رايه والثالثة
وضوح ما استبهم من الراي وانفتاح ما انغلق من الصواب واذا تقرر له الراي
امضاه ولم يواخذهم بعواقب الاكدا فانما على الناصح الاجتهاد وليس عليه ضمان
النجح لا سيما والمقادير غالبة ومتى عرف نفسه تعقب المشير وكل الي رايه واسلم الي نفسه
فصار فقد الاعوان براي ولا يجد مشوره وقد قالت الفرس في حكمها اضعف الحيلة خير من اقوي
الشدة واقل الراي خير من اكثر العجلة والدولة رسول القضا المبرم واذا استبد الملك برايه
عميت عليه المراشد واذا ظفر براي من خامل الاراء فللراي اهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفوا

فان الراي كالضالة توخذ اين وجدت ولا يهون لمهانة صاحبها فيطرح فان
الدرة لا يضعها مهانة غايصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس يراد الراي
لمكان المشير به فيراعي قدره وانما يراد الانتفاع المستشير به وانشد ابو العيناء

النصح ارخص ما باع الرجال فلا ترد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصايح لا تخفي مناهجها على الرجال ذوي الالباب والفهم

ثم لا وجه لمن تقرر له راي ان يتوقف في امضايه فان الزمان غدر والفرص منتهزة والثقة
عجزه وقيل لملك زال عنه ملكه ما الذي سلبك ملكك قال تاخير عمل اليوم
الي الغد وقد قال الشاعر

اذا كنت ذا راي فكن ذا عزيمة ولا تك بالترداد للراي مفسدا
فان رايت الريث في العزم هجنة وانفاذ ذي الراي العزيمة ارشدا

وينبغي لمن انزل منزلة المستشار واحل محل الناصح الودود حتى صار مامول النجح مرجو الصواب
ان يودي حق هذه النعمة باخلاص السريرة ويكافي على الاسلام ببذل النصيحة فقد
روي عن النبي صلي الله عليه انه قال من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه ان ينصحه
وربما بطرته المشاورة فاعجب برايه فاحذره في المشورة فليس للمعجب راي صحيح
ولا روية سليمة وربما تبجح بالراي لعداوة او حسد فوري او مكر فاحذر العدو
ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استنصح عدوا او ضدا ان يكتم رايا وقد استرشده
ولا يخون وقد اوتمنه روي محمد بن المنكدر عن عايشة ان النبي صلي الله عليه قال
المستشير معان والمستشار موتمن ه وقال سليمن بن يزيد

واجب اخاك اذا استشارك ناصحا وعلي اخيك نصيحة لا ترد

ولا ينبغي ان يشير قبل ان يستشار الا فيما سر ولا ان يتبرع بالراي الا فيما لزم فانه لا
ينفك من ان يكون رايه متهما او مطرحا وفي اي هذين كان وصمة وانما يكون الراي

مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب او كان لباعث وسبب . روى ابو بلال العجلي عن حذيفة
بن اليمان عن النبي صلى الله عليه انه قال لابنه اذا استشهدت فاشهد واذا استعنت فاعن
واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر . وقال ابن بيهس الكلابي

من الناس من ان يستشرك فتجتهد له الراي يستغشك ما لم تتابعه
فلا تمنحن الراي ما لم تسله فلا انت محمود ولا الراي نافعه

فصل في كتمان السر

اعلم ان كتمان الاسرار من اقوى اسباب النجاح وادوم لاحوال الصلاح . روي عن النبي
صلى الله عليه انه قال استعينوا على الحاجات بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود . وقال
علي بن ابي طالب عليه السلام سرك اسيرك فاذا تكلمت به صرت اسيره . وقال
بعض الحكماء لابنه يا بني كن جوادا بالمال في موضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق
فان احمد جود المرء الانفاق في وجوه البر والبخل بمكتوم السر . وقال بعض الادباء
من كتم سره كان الخيار اليه ومن افشاه كان الخيار عليه . وقال بعض البلغاء ما اسرك
ما كتمت سرك . وقال بعض الفصحاء ما لم تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضائع . وقال انس
ابن اسيد .

الم تر ان وشاة الرجال لا يتركون اديما صحيحا
فلا تفش سرك الا اليك فان لكل نصيح نصيحا

وكم من اظهار سر اراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطوته امنا
وفي عواقبه سالما ولنجاح حوائجه راجيا . وقال انوشروان من حصن سره فله بتحصينه
خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات . واظهار الرجل سر غيره اقبح من اظهاره
سر نفسه لانه يبوء باحدى وصمتين اما الخيانة ان كان مؤتمنا او النميمة ان كان
مستودعا فاما الضرر فربما استويا فيه او تفاضلا وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم .
وفي الاسترسال بابداء السر دلائل على ثلثة احوال مذمومة احدها ضيق الصدر وقلة الصبر

حتى لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر . وقال الشاعر

اذا المرء افشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو احمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر اضيق

والثاني الغفلة عن تحرز العقلاء والسهو عن يقظة الاذكياء . وقد قال بعض الحكماء انفرد بسرك
ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون . والثالث ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر
وقد قال بعض الحكماء سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد ارقته . واعلم ان من الاسرار ما لا
يستغني عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم فليختر العاقل لسره امينا
ان لم يجد الى كتمانه سبيلا وليتحر في اختيار من يأتمنه عليه ويستودعه اياه فليس
كل من كان على الاموال امينا كان على الاسرار امينا والعفة عن الاموال ايسر من العفة عن اذاعة
الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه ويشح على اليسير
من ماله حفاظا له وصيانة ولا يرى ما اذاع من سره كبيرا في جنب ما حفظه من يسير
ماله مع عظم الضرر الداخل عليه فمن اجل ذلك كان امناء الاسرار اشد تعذرا واقل وجودا
من امناء الاموال وكان حفظ الاموال ايسر من كتم الاسرار لان احراز الاموال منيعة
واحراز الاسرار بارزة يذيعها لسان ناطق ويشيعها كلام سابق . وقال عمر بن عبد
العزيز القلوب اوعية الاسرار والشفاه اقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل
امرئ مفتاح سره . ومن صفات امين السر ان يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح
مبذول وود موفور كتوما بالطبع فان هذه امور تمنع من الاذاعة وتوجب حفظ
الامانة فمن كملت فيه فهو عنقاء مغرب . وقيل في منثور الحكم قلوب العقلاء
حصون الاسرار وليحذر صاحب السر ان يودع سره من يتطلع اليه ويؤثر الوقوف
عليه فان طالب الوديعة خائن . وقد قيل في منثور الحكم لا تنكح خاطب سرك .
وقال صالح بن عبد القدوس . لا تذع سرا الى طالبه منك ان طالب السر مذيع

ويجد كثيرة المستودعين لسره فإن كثرتهم سبب للإذاعة وطريق إلى الإشاعة لأمرين أحدهما
أن اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير معوز ولا بد إذا كثروا من أن يكون فيهم من أخل
ببعضها والثاني أن كل واحد منهم يجد سبيلا إلى نفي الإذاعة عن نفسه وإحالة ذلك
على غيره فلا يضاف إليه ذنب ولا يتوجه إليه عتب وقد قال بعض الحكماء كلما
كثرت خزان الأسرار ازدادت ضياعا وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ ... وسر الثلاثة غير الخفي

وقال آخر

فلا تنطق بسرك كل سر ... إذا ما جاوز الاثنين فاشي

ثم لتسلم من إذاعتهم إياه من إدلالهم واستطالتهم فإن لمن ظفر بسر من فرط الإدلال وكثرة
الاستطالة ما إن لم يحجزه عنه عقل ولم يكفه عنه فضل كان أشد من ذل الرق وخضوع العبد
ولذلك قال بعض الحكماء من أفشى سره كثر عليه المتآمرون فإذا اختار وارتجى أن
يوفق للاختيار واضطر إلى استيداع سره وليته كفي الاضطرار إلى استيداع سره
وجبلة أداء الأمانة فيه بالتحفظ والتناسي حتى لا يخطر له ببال ولا يدور له في خلد
ثم يرى ذلك حرمة يرعاها ولا يدل إدلال اللئام وحكي أن رجلا أسر إلى صديق له
حديثا ثم قال له أفهمت قال بل جهلت قال أحفظت قال بل نسيت وقيل لرجل كيف كتمانك
للسر فقال أجحد المخبر وأحلف للمستخبر وقال بعض الشعراء

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت ... مني الضلوع على الأسرار والخبر
لكنت أول من ينسى سرائره ... إذ كنت من نشرها يوما على خطر

وحكي أن عبيد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال

ومستودعي سرا تضمنت ستره ... فأودعته من مستقر الحشا قبرا
وما السر في قلبي كميت بحفرة ... لأني أرى المدفون ينتظر النشرا
ولكنني أخفيه حتى كأنه ... من الدهر يوما ما أحطت به خبرا

الفصل الخامس في المزاح والضحك

اعلم أن المزاح إزاحة عن الحقوق ومخرجا إلى القطيعة والعقوق يسم المازح ويؤذي الممازح
فوصمة المازح أنه يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجري عليه الغوغاء والسفهاء وأما أذية
الممازح فلأنه معقول بقول كريه وفعل ممض إن أمسك عنه أحزن قلبه وإن قابل عليه جانب
أدبه فحق على العاقل أن يتقيه وينزه نفسه عن وصمة مساويه وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى وقال عمر بن عبد العزيز اتقوا
المزاح فإنها حمقة تورث ضغينة وقال إنما المزاح سباب إلا أن صاحبه يضحك وقيل إنما سمي
المزاح مزاحا لأنه يزيح عن الحق وقال إبراهيم النخعي المزاح من سخف أو بطر وقيل في منثور
الحكم المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب وقال بعض الأدباء من كثر مزاحه زالت هيبته
ومن كثر خلافه طابت غيبته وقال بعض البلغاء من قل عقله كثر هزله وذكر خالد بن صفوان
المزاح فقال يصك أحدكم صاحبه بأشد من الجندل وينشقه أحرق من الخردل ويفرغ عليه أحر
من المرجل ثم يقول إنما كنت أمازحك وقال بعض الحكماء خير المزاح لا ينال وشره لا يقال وقال
النيسابوري في قصيدته للآداب وزاد فقال شر مزاح المرء لا يقال وخيره يا صاح لا ينال
وقد قال الحكماء المزاح من الفتى يدعو إلى التلاحي إن المزاح بدؤه حلاوة لكنما آخره
عداوة يحتد منه الرجل الشريف ويجتري بسخفه السخيف وقال أبو نواس

خل جنبيك لرام ... وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام
إنما السالم من ألجم ... فاه بلجام
ربما استفتح بالمزح ... مغاليق الحمام
والمنايا آكلات ... شاربات للأنام

واعلم أنه قل ما يعرى من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزحه إحدى حالتين لا ثالثة
لهما أحدهما إيناس المصاحبين والتودد إلى المخالطين وهذا يكون بما أنس من جميل

القول وبسط من يستحسن الفعل كما قال سعيد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فان الافراط
فيه يذهب البهاء ويجري السفهاء وان التقصير فيه يفض عنك المؤانسين ويوحش منك
المصاحبين ٥ والحال الثانيه ان ينفي بالمزاح ما طرا عليه من سام او حدث به من هم فقد
قيل لا بد للمصدور ان ينفث وانشدت لابي الفتح البستي

افد طبعك المكدود بالجد راحة ... يجم وعلله بشي من المزح

ولكن اذا اعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

وقد كان النبي صلى الله عليه يمزح على هذا الوجه وروي عنه صلى الله عليه انه قال اني
لامزح ولا اقول الا حقا فمن مزاحه عليه السلام ما روي ان عجوزا من الانصار اتته فقالت
يا رسول الله ادع الله لي بالمغفره فقال لها اما علمت ان الجنه لا يدخلها العجايز فصرخت فتبسم
رسول الله صلى الله عليه وقال لها اما قرات قول الله تعالى انا انشاناهن انشا فجعلناهن
ابكارا عربا اترابا ٥ واتته اخرى في حاجة لزوجها فقال لها ومن زوجك قالت فلان
فقال لها الذي في عينه بياض فقالت لا فقال بلى فانصرفت عجلا الى زوجها وجعلت تتامل
عينيه فقال لها ما شانك فقالت اخبرني رسول الله صلى الله عليه ان في عينيك بياض فقال
لها اما ترين بياض عيني اكثر من سواده ٥ واتى رجل علي بن ابي طالب عليه السلام فقال
اني احتلمت على امي فقال اقيموه في الشمس واضربوا ظله الحد ٥ وسيل الشعبي عن
اكل لحم الشيطان فقال نحن نرضى منه بالكفاف ٥ وقيل له ما اسم امراة ابليس فقال
ذلك نكاح ما شهدناه ٥ وقال رجل لغلام بكم تعمل معي فقال بطعامي فقال احسن
قليلا قال فاصوم الخميس والاثنين وحكي عن ابي صخر ابن حسان وكان
محدثا انه قال يوما لاصحابه ما رخص افقه الناس وضاح اليمن في قوله

اذا قلت هاتي نوليني تبرمت ... وقالت معاذ الله من فعل ما حرم

فما نولت حتى تضرعت عندها ... وانباتها ما رخص الله في اللمم

فاما الخروج الى حد الخلاعه فهجنه ومذمه كالذي حكي عن ابي مسكويه الضرير وكان
محدثا انه خرج يوما الى اصحابه وهو يقول

فاذا المعدة جاشت ... فارمها بالمنجنيق

بثلاث من نبيذ ... ليس بالحلو الرقيق

افما ترى كيف طرق بخلاعته التهمة على نفسه بهذا المزح فيما هو بري منه ولعله عند قوم
كان ابو حمد بن مسترسلا في مزاحه فحكى ابن قتيبه في المعارف انه وان ...
يستخلفه على المدينه فيركب حمارا قد شد عليه برذعه فيسير فيلقى الرجل فيقول له
الطريق تنحى الامير ٥ وربما اتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الغراب فلا يشعرون حتى
يلقي نفسه بينهم ويضرب برجليه فيفزع الصبيان فيفرون وهذا خروج عن
القدر المستقبح به ويوشك ان يكون لهذا الفعل منه تاويل سايغ ٥ وقد كان صهيب
بن سنان مزاحا فقال النبي صلى الله عليه اتاكل تمرا وبك رمد فقال يا رسول الله انما امضغ على الناحيه
الاخرى ٥ وانما استجاز صهيب ان يعرض لرسول الله صلى الله عليه بالمزح في جوابه لان استخباره
صلى الله عليه كان يقتضي المزح فاجابه عن استخباره بما وافقه من المزح مساعدة لغرضه
وتقربا الى قلبه والا فليس لاحد ان يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه مزحا لان المزح هزل
ومن جعل جواب رسول الله صلى الله عليه المبين عن الله تعالى احكامه المودي الى خلقه اوامره
هزلا او مزحا فقد عصى الله تعالى ورسوله وصهيب كان اطوع لله ورسوله من ان يكون
بهذه المنزلة منه ٥ وقد قال رسول الله صلى الله عليه انا سابق العرب وصهيب سابق
الروم وسلمان سابق الفرس وبلال سابق الحبشه ٥ ومن مستملح المزاح ومستسمج الاعابه
ما حكى الزبير بن بكار عن الكثيري ان القشيري وقف عليه شيخ من الاعراب
فقال يا اعرابي ممن انت قال من بني عقيل فقال من اي عقيل قال من بني خفاجه فقال القشيري

رايت شيخا من بني خفاجه   فقال الاعرابي ما شانه فقال
له اذا جن الظلام حاجه   فقال الاعرابي ماهيه فقال
كحاجة الديك الى الدجاجه ، فاستغرب الاعرابي ضاحكا وقال قاتلك الله ما
اعرفك بسرائر القوم فانظر كيف بلغ بهذا المزح غايته ولسانه نزه وعرضه مصون
وهو الغاية مما يتسامح به الفضلا من الخلاعة وان كان مستنكرا للنحوي والنزاهة عن
مثله اولى ، وليجتنب ان يسترسل في ممازحة عدو فيجعل له طريقا الى اعلان المساوي
وهو جاد ويفسح له في التشفي مزحا وهو محق ، وقد قال بعض الحكما اذا مازحت
عدوك ظهرت عيوبك ، واما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر في الامور المهمة
مذهل عن الفكر في النوايب الملمة وليس لمن اكثر منه هيبة ولا لمن وسم به خطر
ومقدار ، روى ابو ادريس الخولاني عن ابي ذر الغفاري قال قال رسول الله صلى الله عليه اياك وكثرة
الضحك فانه يميت القلب ويذهب بنور الوجه ، وقد حكي عن ابن عباس في قوله تعالى
ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها قال الصغيرة الضحك ، وقال
عمر بن الخطاب من كثر ضحكه قلت هيبته ، وقال علي بن ابي طالب اذا ضحك العالم ضحكة
مج من العلم مجة ، وقيل في منثور الحكم ضحك المرء غفلة من قلبه ، والقول في
الضحك كالقول في المزاح ان تجافاه الانسان نفر عنه واوحش منه وان الفه كانت
حاله ما وصفنا فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما وتبشرا وقد قال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه التبسم دعابة وهذا ابلغ في الايناس من الضحك الذي يكون استهزا
وتعجبا وليس يكره منه المرة النادرة لطاري استغفل النفس عن دفعه هذا
رسول الله صلى الله عليه وهو املك الخلق لنفسه قد تبسم حتى بدت نواجذه وانما كان
ذلك منه على الوجه الذي ذكرناه

الفصل السادس في الطيرة والفال

اعلم انه ليس شي اضر بالراي ولا افسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن ان خوار بقرة

او نعيب غراب يرد قضا او يدفع مقدورا فقد جهل ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال
لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ولا صفر فالعدوى ما يظنه الناس من تعدي العلل والامراض
فاخبر انه لا يعدي فقيل يا رسول الله انا نرى النقبة من الجرب في مشفر البعير فتعدي الى
جميعه فقال صلى الله عليه فما اعدى الاول واما الهامة فهو ما كانت العرب في الجاهلية
تقوله من ان القتيل اذا طل دمه فلم يدرك بثاره صاحت هامته في القبر اسقوني
قال الزبرقان بن بدر ، يا عمرو الا تدع شتمي ومنقصتي اضربك حيث تقول الهامة اسقوني
وقال ابرهيم بن هرمه

وكيف وقد صاروا عظاما واقبرا   يصيح صداها بالعشي وهامها
تفانوا ولم يبقوا وكل قبيلة   سريع الى ورد الفنا كرامها

واما الصفر فهو حية تكون في الجوف تصيب الماشية والناس وهو اعدى عندهم
من الجرب وفيه يقول الشاعر

لا يمسك الساق من اين ولا وصب   ولا يعض على شرسوفه الصفر

وروى ابا هريرة ان النبي صلى الله عليه انه قال اذا ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا
تبغوا واذا تطيرتم فامضوا وعلى الله توكلوا   وقال الشاعر

طيرة الناس لا ترد قضا   فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
اي يوم تخصه بسعود   والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم الا وفيه سعود   ونحوس تجري لقوم وقوم

وقد كانت الفرس اكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا اراد سفرا نفرت اول طاير
يلقاه فان طار يمنة سارت وتيمنت وان طار شامة رجعت وتشامت فنهى النبي
صلى الله عليه عن ذلك وقال اقروا الطير على مكاناتها ، وحكي عن عكرمة قال كنا
جلوسا عند ابن عباس فمر طاير يصيح فقال رجل من القوم خير فقال ابن عباس لا خير ولا

وقال لبيد　　لعمرك ما تدري الضوارب بالحصا　ولا زاجرات الطير ما الله صانع

واعلم انه قلما يخلو من الطيرة احد لا سيما من عارضته المقادير في ارادته وصده القضا عن
طلبته فهو يرجو واليأس عليه اغلب ويامل والخوف اليه اقرب فاذا عاقه القضا وخانه الرجا
جعل الطيرة عذر خيبته وغفل عن قضا الله ومشيته فهو اذا تطير من بعد احجم عن
الاقدام ويئس من الظفر وظن ان القياس فيه مطرد وان العبرة فيه مستمرة ثم
يصير ذلك له عادة فلا ينجح له سعي ولا يتم له قصد فاما من ساعدته المقادير
ووافقه القضا فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا على سعادته فلا يصده
خوف ولا يكفه خور ولا يؤوب الا ظافرا ولا يعود الا منجحا لان الغنم بالاقدام والخيبة
بالاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من امارات الاقبال فينبغي لمن
مني بها وبلي ان يصرف عن نفسه وساوس النوكى ودواعي الخيبة وذرائع الحرمان ولا
يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمه ومعارضة خالقه ويعلم ان قضا الله غالب وان رزقه
للعبد طالب الا ان الحركة سبب فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليمض
في عزائمه واثقا بالله تعالى ان اعطى وراضيا به ان منع فقد روى ابو هريرة قال قال رسول الله
صلى الله عليه في الانسان ثلثة الطيرة والظن والحسد فمخرجه من الطيرة ان لا يرجع
ومخرجه من الظن ان لا يحقق ومخرجه من الحسد ان لا يبغي وروي عنه صلى الله عليه وسلم
انه قال كفارة الطيرة التوكل على الله وقيل في منثور الحكم الخيرة في ترك الطيرة
وليقل ان عارضه في الطيرة ريب او خامره فيها وهم ما روي عن النبي صلى الله عليه انه قال من
تطير فليقل اللهم لا ياتي بالخيرات الا انت ولا يدفع السيات الا انت ولا حول ولا قوة
الا بالله وقد روي ان رجلا جا الى النبي صلى الله عليه فقال يا رسول الله انا نزلنا دارا فكثر
فيها عددنا وكثرت فيها اموالنا ثم تحولنا عنها الى اخرى فقلت فيها اموالنا
وقل فيها عددنا فقال النبي صلى الله عليه ذروها وهي ذميمة وليس هذا القول منه صلى الله عليه

على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش منه الى ما انس به
فاما الفال ففيه تقوية للعزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر فقد تفال رسول الله صلى الله عليه
في غزواته وحروبه وروى ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه سمع كلمة فاعجبته فقال اخذنا
فالك من فيك فينبغي لمن تفال ان يتاول الفال باحسن تاويلاته ولا يجعل لسوء الظن الى
سبيلا الى نفسه فقد قال النبي صلى الله عليه ان البلا موكل بالمنطق وحكي ان يوسف
شكا الى الله تعالى طول الحبس فاوحى تعالى اليه يا يوسف انت حبست نفسك حيث قلت
رب السجن احب الي ولو قلت العافية احب الي لعوفيت وحكي ان المومل
ابن اميل الشاعر لما قال

شف المومل يوم الحيرة النظر　ليت المومل لم يخلق له بصر

عمي فاتاه آت في منامه فقال هذا ما طلبت وحكي ان الوليد بن يزيد بن عبد
الملك تفال يوما في المصحف فخرج عليه قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد
فمزق المصحف وانشا يقول

اتوعد كل جبار عنيد　فها انا ذاك جبار عنيد
اذا ما جيت ربك يوم حشر　فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث الا اياما حتى قتل شر قتلة وصلب راسه على قصره ثم على سور بلده نعوذ
بالله من البغي ومصارعه والشيطان ومكايده وهو حسبنا وعليه توكلنا

الفصل السابع في المروة

ان من شواهد الفضل ودلايل الكرم المروة التي هي حلية النفوس وزينة الهمم والمروة
هي مراعاة الاحوال الى ان تكون على افضلها حتى لا يظهر منه قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها
ذم باستحقاق وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم
فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروته وظهرت عدالته ووجبت

وقال بعض البلغاء من شرائط المروة أن يتعفف عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف في
الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين
قويا على ضعيف ولا يؤثر دنيا على شريف ولا يسر ما يعقب الوزر والإثم ولا يفعل
ما يقبح الذكر والاسم وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروة فقال العقل
يأمرك بالأنفع والمروة تأمرك بالأجمل ولن تجد الأخلاق على ما وصفنا من حد المروة منطبعا
عن المراعاة مستغنية وإنما المراعاة هي المروة لا ما انطبعت عليه النفس من فضائل الأخلاق
لأن نوازع الهوى ونوازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب فوضى عن الأفضل من خلائقها
والأجمل من طرائقها ولو سلمت منهما وبعيد أن تسلم لما استكملت شرف الأخلاق تطبعا
ولا استغنت عن تهذيبها تكلفا وتصنعا قال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض — يخبث بعض ويطيب بعض

ولو استكمل الفضل طبعا وفي المعوز أن يكون مستكملا لكانت في المستحسن من عادات
دهره والموضوع من إصلاح عصره من حقوق المروة وشروطها ما لا يتوصل إليه إلا بالمعاناة
ولا يوقف عليه إلا بالتفقد والمراعاة فثبت أن مراعاة النفس على أفضل أحوالها
هي المروة وإذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها إلا من تسهلت عليه المشاق
رغبة في الحمد وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم ولذلك قيل سيد القوم أشقاهم
وقال أبو تمام الطائي: والحمد شهد لا يرى مشتاره — يجنيه إلا من نقيع الحنظل
غل لحامله ويحسبه الذي — لم يوه عاتقه خفيف المحمل

وقد لحظ المتنبي ذلك في قوله فقال

لولا المشقة ساد الناس كلهم — الجود يفقر والإقدام قتال

وقال أيضا: وإذا كانت النفوس كبارا — تعبت في مرادها الأجسام

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان هما علو الهمة وشرف النفس أما علو الهمة فلأنه باعث

على التقدم وداعي إلى التخصص أنفة من خمول الضعة واستكبارا المهانة
النقص ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره
سفسافها وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لا تصغرن هممكم فإني لم أر أقعد
عن المكرمات من صغر الهمم وقال بعض الحكماء الهمة راية الجد وقال بعض البلغاء
علو الهمم بذر النعم وقال بعض العلماء إذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروة وقال
بعض الأدباء من ترك التماس المعالي بسوء الرجاء لم ينل جسيما وأما شرف النفس فإنه يكون
قبول التأديب واستقرار التقويم والتهذيب لأن النفس ربما جمحت عن الأفضل
وهي به عارفة ونفرت من التأديب وهي له مستحسنة لأنها عليه غير مطبوعة وله غير
ملائمة فتصير منه أنفر ولضده الملائم آثر ولذلك قيل ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه
فإذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفي الفضائل راغبة فإذا مازجها صادف طبعا ملائما
فنمى واستقر فأما من مني بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد صار عرضة
لأمر أعوزته آلته وأفسدته جهالته فصار كضرير يروم الكتابة وأخرس يريد
الخطبة فلا يزيده الاجتهاد إلا عجزا والطلب إلا عوزا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك
امرؤ عرف قدره وقيل لبعض الحكماء من أسوأ الناس حالا قال من بعدت همته واتسعت
أمنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته وقال أفنون التغلبي

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه — وتقواله للشيء يا ليت ذا ليا
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي — إذا هو لم يجعل له الله واقيا

وقال بعض الحكماء تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خولتم وتستصغرون نعمة الله
عليكم وقيل في منثور الحكم المنى من بضائع النوكى فإن صادف بهمته
حظا نال به أملا كان فيما ناله كالمغتصب وفيما وصل إليه كالمتغلب إذ ليس في الحظوظ
تقدير لحق ولا تمييز لمستحق وإنما هو كالسحاب الذي يمسك عن منابت الأشجار

الى مغايض البحار ويبرز حيث ما دنا من خبيث وطيب فان صادف ارضا طيبة نفع
وان صادف ارضا خبيثة ضر وكذلك الحظ ان صادف نفسا شريفة نفع وكان نعمة
عامة وان صادف نفسا دنية ضر وكانت نقمة طامة وحكي ان موسى بن عمران
عليه السلام دعا على قوم بالعذاب فاوحى الله تعالى اليه قد ملكت سفلتهم على عليتهم
فقال يا رب كنت احب عذابا عاجلا فاوحى الله تعالى اليه اوليس هذا كل العذاب الاليم
واما شرف النفس اذا تجرد من علو الهمة فان الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو
كالقوة في الجلد الكسل او الجبان الفشل وقد قيل في منثور الحكم من دام كسله خاب
امله وقال بعض الحكماء نكح العجز التواني فخرج بينهما الندامة ونكح الشؤم الكسل
فخرج بينهما الحرمان وقال بعض الشعراء

اذا انت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس اهونا
فنفسك اكرمها وان ضاق مسكن ... عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
واياك والسكنى بدار مذلة ... تعد مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة اولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من علت همته مع
دناءة نفسه كان متعديا الى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا الى التماس ما لا يستوجبه
ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحقه ومقصر عما يجب له وفضل
ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب وقد قيل لبعض الحكماء
ما اصعب شيء على الانسان قال ان يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامران
واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهرا والادب بهما وافرا ومشاق
الحمد بينهما مستسهلة وشروط المروءة منهما متاتية وقد قال الحصين بن المنذر الرقاشي

ان المروءة ليس يدركها امرؤ ... ورث المكارم عن اب فاضاعها
امرته نفس بالدناءة والخنا ... ونهته عن سبل العلى فاطاعها
فاذا اصاب من المكارم خلة ... يبني الكريم بها المكارم باعها

واعلم ان حقوق المروءة اكثر من ان تحصى واكثر من ان تظهر فمنها ما يقوم قاهر الشرع به
حسا ومنها ما يقوم ويقتضيه شاهد الحال حدسا ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل
فلذلك اعوز استيفاء شروطها الا لمن يتفرد بالفاضل عليها بفطنته ويستدل بالفاضل
عليها بفطرته وان كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروءة وشروطها ولكن
نذكر في هذا الفصل الاشهر من قواعدها واصولها والاظهر من شروطها وحقوقها ونجمع سورا
في تقسيم جامع وهي تنقسم قسمين احدهما شروط المروءة في نفسه والثاني شروطها في
غيره فاما شروطها في نفسه بعد التزام ما اوجبه الشرع من احكامه فيكون بثلاثة
امور وهي العفة والنزاهة والصيانة فاما العفة فنوعان احدهما العفة عن المحارم
والثاني العفة عن المآثم فاما العفة عن المحارم فنوعان احدهما ضبط الفرج عن الحرام
والثاني كف اللسان عن الاعراض فاما ضبط الفرج عن الحرام فلانه مع وعيد
الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة وهتكة واضحة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من وقي
شر ذبذبه ولقلقه وقبقبه فقد وقي يريد بذبذبه الفرج وبلقلقه اللسان
وبقبقبه البطن وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال احب العفاف الى الله تعالى
عفاف الفرج والبطن وحكي ان معاوية سال عمرا عن المروءة فقال تقوى
الله تعالى وصلة الرحم وسال المغيرة فقال هي الصبر على البلوى والشكر على النعمى والعفو
عند المقدرة فقال معاوية انت مني حقا وقال انوشروان لابنه هرمز الكامل
المروءة من حصن دينه ووصل رحمه واكرم اخوانه وقال بعض الحكماء من احب المكارم
اجتنب المحارم وقيل عار الفضيحة يكدر لذتها وانشدني بعض اهل الادب للحسين بن علي

الموت خير من ركوب العار ... والعار خير من دخول النار
والله من هذا وهذا جاري

والداعي الى ذلك شيئان احدهما ارسال الطرف والثاني اتباع الشهوه وقد روي عن النبي
صلى الله عليه انه قال لعلي عليه السلام يا علي لا تتبع النظره النظره فان الاولى لك والثانيه
عليك وفي قوله لا تتبع النظره النظره تاويلان احدهما لا تتبع نظر عينيك نظر قلبك
والثاني لا تتبع النظره الاولى التي وقعت سهوا بالنظره الثانيه التي توقعها عمدا
وقال عيسى ابن مريم عليه السلام اياكم والنظره بعد النظره فانها تزرع في القلب الشهوه
وكفى بها لصاحبها فتنه وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه العيون مصايد
الشيطان وقال بعض الحكما من ارسل طرفه استدعا حتفه وقال بعض الشعراء

وكنت متى ارسلت طرفك رايدا ... لقلبك يوما اتعبتك المناظر
رايت الذي لا كله انت قادر ... عليه ولا عن بعضه انت صابر

واما الشهوه فهي خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنه القبايح ومسوله
الفضايح وليس عطب الادمي له سبب وعليه البد ولذلك قال النبي صلى الله عليه
اربع من كن فيه وجبت له الجنه وحفظ من الشيطان من ملك نفسه حين يرغب
وحين يرهب وحين يشتهي وحين يغضب وقهرها عن هذه الاحوال يكون
بثلثة امور احدها غض الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرايد المحرك والقايد
المهلك وروى سعيد بن سنان عن انس ابن مالك عن النبي صلى الله عليه انه قال
تقبلوا لي بست اتقبل لكم بالجنه قالوا وما هي يا رسول الله قال اذا حدث احدكم
فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا ائتمن فلا يخن غضوا ابصاركم واحفظوا فروجكم
وكفوا ايديكم والثاني ترغيبها في الحلال عوضا واقناعها بالمباح بدلا فان الله تعالى
ما حرم ذلك عونا على طاعته وحاجزا عن مخالفته وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما امر الله
تعالى بشي الا واعان عليه ولا نهى عن شي الا واغنى عنه والثالث النفس تقوى اشعار
الله تعالى في اوامره واتقاوه في زواجره والزامها ما الزم من طاعته وتحذيرها ما

حذر من معصيته واعلامها انه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير وانه يجازي
المحسنين ويكافي المسي وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله روي عن ابن مسعود ان آخر
ما نزل من القران واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم
لا يظلمون وآخر ما نزل من التوريه اذا لم تستحي فاصنع ما شئت وآخر ما
نزل من الانجيل شر الناس لا يبالي ان يراه الناس مسيا وآخر ما نزل من الزبور من
يزرع خيرا يحصد غبطة فاذا اشعرها ما وصفت انقادت الى الكف واذعنت
بالانكفاء فسلم دينه وظهرت مروته فهذا شرطه واما الكف الثاني عن الاعراض
فلان طلاق السفها واستقام الغوغاء وهو مستسهل الكلف ان لم يقهر نفسه عنه
بوازع كاف وزاجر صاد تلبط بمعاره وتخبط بمضاره وظن انه لتخافي الناس عنه
حمى يتقى ورتبه يرتقى فهلك واهلك ولذلك قال النبي صلى الله عليه الا ان دماكم
واموالكم واعراضكم حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ايغار الصدور وابدا
الشرور واظهار البذا واكتساب الاعدا ولا يبقى مع هذه الامور وزن لمرموق ولا مروه لملحوظ
ثم هو بها موتور وموزور ولاجلها مزجور ومهجور وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه
قال شر الناس من اكرمه الناس اتقا لسانه وقال بعض الحكما انما هلك الناس بفضول
الكلام وفضول المال وما قدح في الاعراض من الكلام نوعان احدهما ما قدح في عرض صاحبه
ولم يتجاوزه الى غيره وذلك اربعة اشيا الغيبه والنميمه والسعايه والسب بقذف
او شتم وربما كان السب انكاها للقلوب وابلغها اثرا في النفوس ولذلك ما زجر الله
تعالى عنه بالحد تغليظا وبالتفسيق تشديدا وتصعيبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين
اما انتقام يصدر عن سفه او بذا يحدث عن لوم وقد روى ابو سلمة عن ابي
هريره ان النبي صلى الله عليه قال المومن غر كريم والفاجر خب ليم وقال
ابن المقفع استطالة لسان الجهالة وكف الناس عن هذه الحال ما يصدها من الزواجر

فيعلم ... في المروءة فهذا الشرط. وأما العفة عن المآثم فنوعان أحدهما الكف
عن المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الاسترسال بالخيانة. فأما المجاهرة بالظلم
فعتو ... وهو ... أو جلا ان استمر. أما الفتنة في
... تنعكس على الباغي بها فلا تنكشف الا وهو بها مصروع
... فلا يجوز لمكفر الشر الجاهل ... وروي عن النبي صلى الله عليه أنه
قال الفتنة نائمة فمن أيقظها صار طعاما لها. وقال جعفر بن محمد عليه السلام
... مصارع الظالمين. وقال بعض الحكماء صاحب الفتنة أقرب شيء أجلا
وأسوأ شيء عملا.

وقال بعض الشعراء

وكنت كعنز السوء قامت لحتفها إلى مدية تحت الثرى تستثيرها

وأما الظلم فقد يكون مع قوة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه مع المكنة جلا
وفيما كالنار إذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقي منه مع تمكنها شيئا حتى إذا
أفنته ما وجدت خمدت كذلك حال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على
ذلك شيئان الجرأة والقسوة ولذلك قال النبي صلى الله عليه اطلبوا الفضل
المعروف عند الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم والصاد عن ذلك أن يرى آثار
الله عز وجل في الظالمين فإن له فيهم عبرا ويتصور عواقب ظلمهم فإن فيها مزدجرا
وقد روي عن النبي صلى الله عليه أنه قال من أصبح ولم ينو ظلم أحد غفر الله له ما اجترم.
وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه يا علي اتق دعوة المظلوم
فإنه إنما يسأل الله تعالى حقه وإن الله عز وجل لا يمنع ذا حق حقه. وقيل في منثور الحكم ويل
للظالم من يوم المظالم. وقال بعض الحكماء من جار حكمه أهلكه ظلمه. وقال بعض الشعراء

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

وأما الاسترسال بالخيانة فضعف ... لأن بترك الخيانة مهين ولقلة الثقة

به مستكين. وقد قيل في منثور الحكم من يخن يهن. ... في بعض
الكتب السالفة ان مما تعجل عقوبته ولا تؤخر ...
تقطع والبغي على الناس ولو لم ... الخيانة إلا ما يجنيه
المذلة لخفاه ناجزا ولو تصور عقبى أمانته وجدوى ثقته ...
لضايع جاهه وأقوى شفعا تقدمه ... في نفسه من
الإعظام. وقد روي عن النبي صلى الله عليه أنه قال أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من
خانك. وروى سعيد بن جبير قال لما نزلت قوله ومن أهل الكتاب من إن تأمنه
بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلى قوله ذلك بأنهم قالوا
ليس علينا في الأميين سبيل يعنون أن أموال العرب حلال لهم لأنهم من غير
أهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه كذب أعداء الله ما كان من شيء في الجاهلية
إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر ولا يجعل ما ائتمن
به من الأمانة ذريعة ولا ما يبديه من العفة غرورا فينتهك الذريعة ويكشف الغرور
فيكون مع هتكة التدليس أقبح وبمعرة الرياء أفضح. وقد روي عن النبي صلى الله عليه
أنه قال لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنما والصدقة مغرما. وقال بعض الحكماء
من التمس ما لا يكون. ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون. والداعي
إلى الخيانة شيئان أحدهما المهانة وقلة الأمانة فإذا حسمهما عن نفسه بما وصفت ظهرت
مروءته فهذا شرط قد استوفينا فيه أقسام العفة. وأما النزاهة
فنوعان أحدهما النزاهة عن المطامع الدنية والثاني النزاهة عن مواقف الريبة
فأما المطامع الدنية فلأن الطمع ذل والدناءة لوم وهما أدفع شيء للمروءة. وقد كان
النبي صلى الله عليه يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع.

وقال بعض الشعراء

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذاك مضر منك بالدين

والحسبة ثقة بالله مما في خزائنه فانما هي بين الكاف والنون
... النفس فلا ينتفع بما اوتي وان كان
لم ... وان كان زهيدا لقلته انفقته
... الاعظم خطرا في بذل الهون القرين
... المال عن اجل ... نفسه عليه اقل اصغا للنايب ولا قبول
... ان رجلا قال يا رسول الله اوصني قال عليك باليأس مما في ايدي الناس
واياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلاة فصل صلاة مودع واياك وما
يعتذر منه وقال بعض الحكما عز النزاهة اشرف من سرور الفائدة وقال بعض الشعرا

ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم هذه المطامع شيئان اليأس والقناعة وقد روى عبد الله بن مسعود عن
النبي صلى الله عليه انه قال ان روح القدس نفث في روعي ان نفسا لن تموت حتى
تستوفي رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب ولا يحملنكم ابطا الرزق على ان
تطلبوه بمعاصي الله فان الله لا يدرك ما عنده الا بطاعته فهذا شرط واما
مواقف الريبة ففي التردد بين منزلتين حمد وذم والوقوف بين حالتي سلامة وسقم
فيتوجه اليه لائمة المتهومين وينال ذلة المريبين وكفا بصاحبها موقفا ان
صح افتضح وان لم يصح امتهن وقد قال رسول الله صلى الله عليه دع ما يريبك الى ما
لا يريبك وسئل محمد بن علي عن المروه فقال ان لا تعمل في السر عملا تستحي
منه في العلانية وقال حسان بن ثابت ما وجدت شيئا هو اهون من الورع قيل
له وكيف قال اذا ارتبت بشي تركته والداعي الى هذه الحال شيئان الاسترسال
وحسن الظن والمانع منهما شيئان الحيا والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة
وانتفت التهمة بطول الخبرة كالذي حكي عن عيسى بن مريم عليه السلام انه راه

بعض الحواريين وقد خرج من منزل ذات فجور فقال يا روح الله ما تصنع هاهنا
فقال الطبيب انما يداوي المرضى ولكن لا ينبغي ان يحملك ... الاسترسال
وليكن الحذر عليه اغلب والى الحزم ...
حسن الثقة هذا رسول الله صلى الله عليه وهو ابعد خلق الله من الريب واصونهم
من التهم وقف مع زوجته صفية ذات ليلة على باب المسجد ...
معتكفا فمر به رجلان من الانصار فلما راياه اسرعا فقال لهما على رسلكما انها صفية
بنت حيي فقالا ايجا لجنا فيك شك يا رسول الله فقال مه ان الشيطان ...
احدكم مجرى الدم فخشيت ان يقذف في قلوبكما سوا فكيف بمن ...
وتقابلت فيه الظنون هل يعري في مواقف الريب قادح محقوق ولائم
مصدقه وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال اذا لم يستح المرء الا عمالا فقد
شغل وذا استعمل الحزم وترك الحذر وترك مواقف الريب ومظان
التهم ولم يقف موقف اعتذار ولا عذر المختار لم يختلج في نزاهته شك ولم
يقلح في عرضه افك وقد قال الشاعر

اصونك ان اغلب فيك ظنا لان الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هرون مؤونة التوقف ايسر من تكلف التعسف وقال
بعض الحكما من حسن ظنه بمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع وانشد
بعض اهل الادب لابي بكر الصولي

احسنت ظني باهل دهري فحسن ظني بهم دهاني

لا امن الناس بعد هذا انما الخوف الامن الاماني

فهذا شروط استوفينا فيه نوعي النزاهة واما الصيانة وهي الثالث من
شروط المروة فنوعان احدهما صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقدير مادتها والثاني

صيانة ... من المن والاجتهار مال في الاستعانة فاما الملتمس الكفاية وتقدير
الحاجة ... [illegible] ... ذليل مستثقل وهو لما فطر عليه
محتاج الى ... [illegible] ... وقته ولذلك قالت العرب
غناء ... [illegible] ... نوعان لازم وندب فاما اللازم فما
اقام الكفاية وافضى الى سد الخلة وعليه في طلبه ثلثة شروط احدها استطابته
من الوجوه المباحة وتوقي الوجوه المحظورة فان المواد المحرمة مستخبثة الاصول
محقوقة الفروع ان صرفها في بر لم يوجر وان صرفها في مدح لم يشكر ثم هو لاوزارها
محتمل وعليها معاقب وقد قال النبي صلى الله عليه لا يعجبك رجل اكتسب مالا من غير
حله فان انفقه لم يتقبل منه وان امسكه فهو زاده الى النار وقال بعض الحكما شر المال
ما لزمك اثم مكتسبه وحرمت اجر انفاقه ونظر بعض الخوارج الى رجل من اصحاب
السلطان يتصدق على مسكين فقال انظر الى حسناته من سيئاته وقال علي بن الجهم

شر من عاش ماله فاذا حاسبه الله سره الاعدام

والثاني طلبه من احسن جهاته التي لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس له بها عرض فان المال
يراد لصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها فقد قال عبد الرحمن بن
عوف يا حبذا المال اصون به عرضي وارضي به ربي وقال ابو بشر الضرير

كفى حزنا اني اروح واغتدي وما لي من مال اصون به عرضي
واكثر ما القى الصديق بمرحبا وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

وسئل ابن عايشة عن قول النبي صلى الله عليه اطلبوا الحوايج من حسان
الوجوه فقال معناه من احسن الوجوه التي تحل والثالث ان يتانى في تقدير
مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير المال مع حسن
التقدير كالبذر في الارض اذا روعي يسيره زكا وان اهمل كثيره اضمحل

وقد قال محمد بن علي الكمال في تنشئة الابنة في الدين ... [illegible]
في المعيشة وقيل لبعض الحكما ... [illegible]
فاذا استكملت هذه الشروط فيما يستمد من قدر كفايته ... [illegible]
سئل الاحنف بن قيس عن المروة فقال العفة والحرفة ... [illegible]
لا تكن على احد كلا فانك تزداد بذلك ذلا واضرب على الارض ... [illegible]
فذهب ولا تعجزن عن الطلب لوصب ... [illegible] ... لحال اللازم ... [illegible]
العالية والنفوس الابية يرون ما وصل الى الانسان كسبا افضل مما وصل اليه ... [illegible]
في الارض في جدوى عزه وبالكسب مجد على عزه وفرق ما بينهما في الفضل ظاهر وقال الشاعر

الا انني العيش لا اداب له طلبا وسعيا في الهواجر والغلس
واربع اما ان يوافيني الغنى حتى احاول بالغنى وليتمس
واصرف نوالكم عن اخيك موفرا فالليث ليس يسيغ الا ما افترس

فاما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر فيه معتبر بحال
طالبه وان كان زهده تقاعد عن منازل الرؤسا وتقاصر عن مطاولة النظرا وانقبض عن
منافسة الاكفا فحسبه ما كفاه فليس في الزيادة الا شره وليس في الفضول الا نهم
وكلاهما مذموم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي
وقال علي بن ابي طالب عليه السلام الدنيا ... على العاقل وقال عبد الله بن مسعود المستغني
بالقناع عن الدنيا كالمطفي النار بالتبن وقال بعض الحكما استروا وجوهكم بالقناعة
وتسلوا عن الدنيا بتجافيها عن الكرام وان كان ممن قد مني بعلو الهمم وتحركت فيه
اريحية الكرم واثر ان يكون راسا مقدما وان يرى في النفوس مفخما ومعظما فالكفاية
لا تقله حتى يكون ماله فاضلا ونائله فايضا قيل لبعض العرب ما المروة فيكم
فقال طعام ماكول ونائل مبذول وبشر مقبول وقال الاحنف بن قيس

[illegible] الكثير لجدت وكنت له باذلا

[illegible] قال [illegible] لا استطاع اذ لم يكن مالها فاضلا

[illegible]

اخيجة ابن الحلاج

ولكنت لباقم ارزق مودته [illegible] المروة الا لكثير المال

اذا اردت [illegible] ما تقاعدني عما ينوه باسمي رقة الحال

واما [illegible] لمن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة فلان المنة في استرقاق

الاحرار [illegible] ذله في الممنون وسطوة في المان به والاسترسال في الاستعانة تثقيل

ومن تثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه

خدمك بنوك قال اغناني الله عنهم. وقال علي بن ابي طالب عليه السلام لابنه الحسن في

وصيته له يا بني ان استطعت ان لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن

عبد غيرك وقد جعلك الله حرا فان اليسير من الله تعالى اكرم واعظم من الكثير من

غيره وان كان كل منه كثيرا. وقال زياد لبعض الدهاقين ما المروة فيكم فقال اجتناب

الريب فانه لا ينبل مريب. واصلاح الرجل ماله فانه من مروته وقيامه بحوائجه

وحوائج اهله فانه لا ينبل من احتاج الى اهله ولا من احتاج اهله الى غيره. وانشد

ثعلب: من عف خف على الصديق لقاؤه ... واخو الحوائج وجهه مملول

واخوك من وفرت ما في كيسه ... فاذا عبثت به فانت ثقيل

ولئن كان الناس لحمة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعدة

والتظافر فانما ذلك تعاون ائتلاف يتكافون فيه ولا يتفاضلون وربما كان المستغني

فيه متفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والمزارع باكرته

فليس منه بد ولا لاحد عنه غنى وانما الذي يتحشون عنه الكرام تعاون

المتفضل فينقبضوا عن ان يستعينوا الا لكون عليهم يد ويسارعوا الى

ان يعينوا الا ان تكون لهم يد ومن اقدم من غير اضطرار على الاستعانة [illegible] واعمل فيها من

مروته ما استبدل الصيانة ومن دعاه الاضطرار الى النائبة الملم [illegible] الى الاستعانة

من يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على مضطر

فان اغناه الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال [illegible] ولعل في التعرض للمال [illegible] ويعدل

الى ولاة الامور فان الحوائج عندهم انجح وهي عليهم اسهل وهم لذلك [illegible] يرون لهم

لا يجدون له مساوليصبر على ابطائهم فان ترادف الامور عليهم يشغلهم عن [illegible] ولذلك

قيل قدم لحاجتك بعض لجاجتك. وتقدم من قول الحكماء في السلطان [illegible] نسيم

وعلى قوم سموم. وقال عبد الله ابن المعتز من صحب السلطان فليصبر على قسوته كصبر

الغواص على ملوحة بحره. وقال ابو نشاره [illegible] بن الاعرف

يعين قرابته ويغتد صهرا ... او يسعد بالقرابة من دعاها

وما ورثناك من عدم ولكن ... هششت الى الامارة من رجاها

واياما فعلت فان نفسي ... تعد صلاح نفسك من غناها

فان تعذر عليه صلاح حالة الاجمال [illegible] ما يتعين به [illegible] ان له مع المروة فسحة

فيه لكن ان وجد قرضا مرددا ولم يأخذ صلة وجرى ان القرض مستسمح به في

المروات هذا رسول الله صلى الله عليه مع ما اعلاه الله تعالى من قدره وفضله على خلقه

قد اقترض ثم قضى فاحسن. وقال صلى الله عليه المستدين تاجر الله تعالى في ارضه

وقال صلى الله عليه من اعياه رزق الله تعالى فليستدن على الله وعلى رسوله. وقال

ان لا يكن كثر فقل عطية ... يبلغ بها باغي [illegible] بعض الرضا

او لا يكن هبة فقرض يسرت ... اسبابه ولو اهب من قرضا

ولئن كان الدين [illegible] فهو اسهل من رق الافضال فقد روي عن علي بن ابي طالب عليه السلام

انه قال من اراد البقاء ولا بقاء فليباكر الغذاء وليخفف الرداء قيل وما خفة الرداء

البقاء [illegible] ان اعوزه ذلك الاسترزاق فهو الرق المذل ولذلك قال لامرو وقلقل
وقال [illegible] فقال يا علي صن وجهك [illegible] القدر كل عزة وجلالة والذي
[illegible] صيانة السايلين وان لم يتق لهذي
[illegible] امور هي جهد المضطر احدهما ان يتجافى ضرع
[illegible] ويحرم بالاجهد وليكن من التجمل على
[illegible] لبعض الحكما تي يفحش زوال النعم
[illegible] وانشد بعض اهل الادب لعلي ابن الجهم

هي النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر ايام تجور وتعدل

وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... واحسن اخلاق الرجال التفضل

ولا عار ان زالت عن الحر نعمة ... ولكن عارا ان يزول التجمل

والثاني ان يقتصر بالسوال على ما دعته اليها الضروره وقادته اليه الحاجه ولا يجعل ذلك
ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه فلا يعذر في ضرورته وقد قال بعض الحكما من
الف المسالة الفه المنع والثالث ان يعذر في المنع ويشكر على الاجابه فانه
ان منع فعن ما لا يملك واذا [illegible] فالى ما لا يستحق وقد قال النمر بن تولب

لا تغضبن على امرى في ماله ... وعلى كرايم صلب مالك فاغضب

والرابع ان يعتمد على سوال من كان للمسلة اهلا وكان النجح عنده مامولا فان ذوي
المكنه كثيرون والمعين منهم قليل ولذلك قال النبي صلى الله عليه الخير كثير وقليل فاعله
والمرجو للاجابه من تكاملت فيه خصالها وهي ثلث احداهن كرم الطبع فان الكريم
مساعد واللييم معاند وقد قيل المخذول من كانت له الى اللييام حاجة والثانيه
سلامة الصدر فان العدو الب على نكبتك وحرب في محنتك وقد قيل من اوغرت
صدره استدعى شره فان رق لك بطبعه ورحمك بحسن ظنه فاعظم بها محنته

ان يصير عدوك لك راحما وقال الشاعر
وحسبك من حادث بامرئ يرى حاسديه له راحمينا
والثالثه ظهور المكنه فان من سال من [illegible]
مستشعرا لمديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان جديرا وقد [illegible]
من لا يعرف لا حتى يقال له لا فهو احمق [illegible]
الحوايج الى غير اهلها ولا تطلبها في غير حينها ولا تطلب ما لست له مستحقا [illegible]
ذلك كنت حقيقا بالحرمان وقال الشاعر

لا تسالن امرا حاجة ... يحاول من ربه مثلها

فيترك ما كنت حملته ... ويبدا بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروه في نفسه فاما شروط المروه في غيره فثلثة المؤازره والمياسره
والافضال فاما المؤازره فنوعان احدهما الاسعاد بالجاه والثاني الاسعاف في النوايب
فاما الاسعاد في الجاه فقد يكون من الاعلى قدرا والانفذ امرا وهو ارخص المكارم
ثمنا والطف الصنايع موقعا وربما كان اعظم من المال نفعا وهو الظل الذي يلجا اليه
المضطر والحمى الذي ياوي اليه الخايف فان وطاه اتسع بكثرة الاعوان والشيع
وان قبضه انقطع بنفور الغاشيه والتبع فهو بالبذل ينمي ويزيد وبالكف ينقص ويبيد
فلا عذر لمن منح جاها ان يبخل به فيكون اسوا حالا من البخيل بماله لان البخيل بماله
الذي يحفظه لنوايبه ويستبقيه للذاته ويستكثره لرويته وبضد ذلك
من بخل بجاهه لانه قد اضاعه بالشح وبذره بالبخل وحرم نفسه غنيمة مكنته
وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندما على فايت واسفا على ضايع ومقتا يستحكم
في النفوس وذما قد ينتشر في الناس وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال
الخلق كلهم عيال الله فاحب خلق الله اليه احسنهم صنيعا الى عياله وقال

بعض الحكما اصنع الخير عند امكانه يبق لك حمده عند زواله واحسن والدوله لك يحسن
بك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك وقال بعض البلغا من
علامة الاقبال اصطناع الرجال وقال بعض الادبا بذل الجاه احد الحبائين وقال ابن
الاعرابي [illegible] من امل شيا هابه ومن جهل شيا عابه وبذل الجاه قد يكون من
كرم النفس وشكر النعمه وضده من ضده وليس باذل الجاه للناس الجزا بذلا مشكورا
لانه يعتاض من جاهه ويعاوض على نعم الله تعالى ولايه فكان بالذم احق وانشد
لبعض الادبا لعلي بن العباس الرومي

لا تبذل العرف حين تبذله لمشتري الحمد او لمعتاضه
بل تفعل العرف حين تفعله لجوهر العرف لا لاعراضه

وعلى من اسعد بجاهه ثلثه حقوق يستكثر بها الشكر ويستديم بها المزيد احدها
ان يستسهل المعونه مسرورا بها ولا يستثقلها كارها لها فيكون بنعم الله تعالى
متبرما ولاحسانه متسخطا وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال من عظمت نعمة الله تعالى
عليه عظمت مؤونه الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤونه عرض تلك النعمه للزوال والثاني
مجانبه الاستطاله وترك الامتنان فانهما من لوم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم
الصنيع واحباط الشكر وقد قيل للحكيم اليوناني من اضيق الناس طريقا واقلهم صديقا
قال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه والثالث ان لا يعرف
بمشكور سعيه تقريعا بذنب ولا توبيخا على هفوه فلا يفي ممضض التوبيخ بادراك النجح
ويصير الشكر وجدا والحمد عتبا ولذلك قال النبي صلى الله عليه اقيلوا ذوي الهيات
عثراتهم وقال النابغه الجعدي

الم تعلما ان الملامة نفعها قليل اذا ما الشي ولى فادبرا

واما الاسعاف في النوايب فلان الايام غادره والنوازل غايره والحوادث عارضه والنوايب
رابضه فلان الايام غادره فلا يعذره فيها الا عليم ولا يستغني عنها الا سليم

كفاك اجر المرء ايام دهره تروح له بالواعظات وتغتدي

فان وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيه ان استطاع
سبيلا اليه ووجد قدرة عليه وروي عن النبي صلى الله عليه انه قال خير من الخير معطيه
وشر من الشر فاعله وقيل لبعض الحكما هل شي خير من الذهب والفضه قال معطيهما
والاسعاف في النوايب نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما اختص بثلثه اصناف
وهم الاهل والاخوان والجيران اما الاهل فلماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل
لم يسد من احتاج اهله الى غيره وقال حسان بن ثابت

وان امرا نال الغنى ثم لم ينل قريبا ولا ذا حاجة لزهيد
وان امرا عادى الرجال على الغنى ولم يسال الله الغنى لحسود

واما الاخوان فلمستحكم الود ومتاكد العهد وسيل الاحنف بن قيس عن المروه
فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله تعالى في كل مكان وقال بعض
الحكما القريب من صفه الصديق ان يبذل لك ماله عند الحاجه ونفسه عند النكبه
ويحفظك عند المغيب وراى بعض الحكما رجلان يصطحبان ولا يفترقان فسال
عنهما فقيل هما صديقان فقال فما بال احدهما فقير والاخر غني واما الجار فلدنو داره
واتصال مناره قال علي بن ابي طالب ليس حسن الجوار كف الاذى ولكنه الصبر على
الاذى وقال بعض الحكما من اجار جاره اعانه الله واجاره وقال بعض البلغاء
من احسن الى جاره دل على حسن نجاره وقال بعض الشعراء

وللجار حق فاحترس من اذائه وما خير جار لا يزال مداريا

فيجب في حقوق المروه وشروط الكرم في هاولا الثلثه تحمل اثقالهم واسعافهم
في نوايبهم ولا فسحة لذي مروة مع ظهور المكنه ان يكلهم الى غيره او يلجيهم الى سواله

والحر من سايل نفسه عنهم ناتهم عيال كرمه واضافته مروته وقال بعض الشعرا

حق على السيد المرجو نايله والمستجار به في العرب والعجم
ان لا يمل الاقاصي صوب راحته حتى يخص به الادنين من الخدم
ان الفرات اذا جاشت غواربه روى السواحل ثم امتد في الامم

فاما المتبرع فمن عدا هولا الثلثه من البعدا الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفايض المروة فنهض في حوادثهم وتكفل بنوايبهم فقد زاد على شروط المروة وتجاوزها الى شروط الرياسة وقيل لبعض الحكما اي شي من افعال الناس يشبه افعال الاله عز وجل قال الاحسان الى الناس وان كف تشاغلا عمن لزم فلا لوم مالم يلجا اليه مضطرا اذ القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم الموازرة. فاما المياسرة فنوعان احدهما العفو عن الهفوات والثاني المسامحة في الحقوق. فاما العفو عن الهفوات فلانه لا مبرا من سهو وزلل ولا سليم من نقص او خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريا من نبوة فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا. وقد قال بعض الحكما لا صديق لمن اراد صديقا لا عيب فيه. وقيل لانوشروان هل من احد لا عيب فيه قال من لا يموت. واذا كان الدهر لا يوجد ما طلب ولا ينيله ما احب. فكان الوحيد في الناس مرفوضا قصيا والمنقطع عنهم بها وحشيا لزمه مساعدة زمانه في القضا ومياسرة اخوانه في الاغضا روي عن النبي صلى الله عليه انه قال ان الله تعالى امرني بمداراة الناس كما امرني باقامة الفرايض. وقال بعض الادبا لخصال لا تجتمع الا في الكريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال وقال ابن الرومي

فعذرك مبسوط لذنب مقدم وودك مقبول باهل ومرحب

ولو بلغتني عنك اذني اقمتها لدي مقام الكاشح المتكذب
فلست بتقليب اللسان مصارما خليلا اذا ما القلب لم يتقلب

واذا كان لا غنا عن احتمالها والصفح كرما بريت لحسبه الهموم ويزول بفقده الانس فالهفوات نوعان صغاير وكباير فالصغاير مغفورة والنفوس بها معذورة لان الناس مع الطوارق المختلفة والخلايق المتغايرة لا يسلمون منها فكان الزجر فيها مطرحا والعتب مستقبحا. وقد قال بعض العلما من هجر اخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده قبل اوانه وقال ابو العتاهية

وشر الاخلا من لم يزل يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقا ويبريك في السر بري القلم

واما الكباير فنوعان احدهما ما هفا به خاطيا او زل به ساهيا فالحرج فيها مرفوع والعتب عنها موضوع لان هفوة الخاطر هدر ولومه هذر وقال بعض الحكما لا تقطع اخاك الا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه وقال الاحنف بن قيس حق الصديق ان تحتمل له ثلث ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة. وحكي ابن ابي عون ان غلاما هاشميا عربد على قوم فاراد عمه ان يسي به فقال يا عم اني قد اسات وليس معي عقلي فلا تسي بي ومعك عقلك وقال ابو فراس

لم اواخذك اذ جنيت لاني واثق منك بالاخاء الصحيح
فجميل العدو غير جميل وقبيح الصديق غير قبيح

فان تشبه خطاوه بالعمد وسهوه بالقصد لم يسلم بالتوهم فيكون ملوما ولا يذم بالظن فيصير مذموما ولذلك قيل التثبت نصف العفو وقال بعض الحكما لا يفسدك الظن على صديق قد اصلحك اليقين له. وقال بعض شعرا هذيل

وبعض الامر يحمله بعض فان الغش يحمله التمين

ولا تعجل بظنك قبل خبرٍ فعند الخبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العين فضلاً وفيما اضمر الفضل المبين
كلون الماء مشتبهاً وليست تخبر عن مذاقته العيون

والثاني ان يعتذر ما اجترم من كبايره ويقصد ما اجترح من سياته فلا يخلوا حاله فيما
اتاه من احوال اربعة فالحال الاولى ان يكون موتوراً قد قابل بترته وكافى على مساته
واللايمة على من وتره والبادي بها راجعة لان المكافي اعذر وان كان الصفح
اجمل ولذلك قال النبي صلى الله عليه اياكم والمشاره فانها تميت الغره
وتحيي العره. وقال بعض الحكما من فعل ما شا لقي ما لم يشا. وقال
بعض الادبا من نالته اسائتك همته مساتك. وقال بعض البلغا من اولع بقبح
اوجع بقبح المقابله. وقال صالح بن عبد القدوس

اذا وترت امرأً فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدى مسالمة اذا راى منك يوماً فرصة وثبا

والاغضا عن هذا الذنب اوجب وان لم تكن المكافاة ذنب لانه قد راى
عقبى اساته فان واصل الشر واصلته المكافاه. وقد قيل باعتزالك
الشر يعتزلك وبحسن التصفح يكثر الواصلون. وقال بعض الحكما من
كنت سبباً لبلايه وجب عليك التلطف في علاجه من دايه. وقال البحتري

اذا انت لم تعرض عن الجهل والخنا اصبت حليماً او اصابك جاهل

والحال الثانيه ان يكون عدواً قد استحكمت شحناوه واستفرغت منه شراره
واستخشنت ضرادة فهو يتربص بدوايرالسو انتهاز فرصة ويتجرع بممانعة
العجز مرار غصصه فاذا ظفر بنايبه ساعدها وان شاهد نعمةً عاندها فالبعد
منه حذراً اسلم والكف عنه متاركةً اغنم فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت

غوايل مكره. وقد قالت الحكما لا تعرضن لعدوك في دولته فاذا
زالت كفيت شره. وقال لقمان لابنه يا بني كذب من قال ان الشر بالشر يطفا
فان كان صادقاً فليوقد نارين ولينظر هل يطفي احدهما الاخرى وانما يطفي
الشر كما يطفي الما النار. وقال جعفر بن محمد عليهما السلام كفى بك
نصراً ان ترى عدوك يعصي الله فيك. وقال بعض الادبا السيره ...
المعادي. وقال البحتري

واقسم لا اجزيك بالشر مثله كفى بالذي جازيتني لك جازيا

والحال الثالثه ان يكون ليم الطبع خبيث الاصل قد اغواه لوم الطبع على ...
وبعثه خبث الاصل على اتيان الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يانف من
المكروه فهذه الحال اطم لان الاضرار بها اعم والسلامة من مثله الا بالبعد
والانقباض. ولا خلاص منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضاري في
سوارح النعم وكالنار الآتيه في يابس الحطب. لا يقربهما الا تالف ولا يدنوا
منهما الا هالك. وروى مكحول عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه انه قال الناس
كشجرةٍ ذات جنا ويوشك ان يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك
وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله وكيف المخرج منهم قال
اقرضهم من عرضك ليوم فاقتك. وقال عبد الله بن العباس العاقل الكريم
صديق كل احد الا من ضره والجاهل اللييم عدو كل احد الا من نفعه. وقال
بعض الحكما اعداوك داوك والبعد منهم شفاوك. وقال بعض الادبا شرف الكريم
تغافله عن اللييم. ووصى بعض الحكما ابنه فقال يا بني اذا سلم الناس منك فلا
عليك ان تسلم منهم فانه قلما اجتمعت هاتان النعمتان. وقال عبد المسيح بن ع

والخير والشر مقرونان في قرنٍ فالخير متبع والشر محذور

من المحال الا ان يكون صديقا قد استحدث نبوة وتغيرا او اخا قد استجد جفوة او
تنكرا فان اطرحه لعقوقه واطرحه لازم حقوقه وعدل عن بر الاخا الى جفوة الاعداء
فهذا قد يعرض في المودات المستقيمه كما قد تعرض الاجسام لها الامراض وهي سليمه
فان عولجت اقلعت وان اهملت اسقمت ثم اتلفت ولذلك قالت الحكما داو المودة
بكثرة التعاهد وقال كشاجم

اقل ذا الود عثرته وقفه على سنن الطريق المستقيمه

ولا تسرع بمعتبه اليه فقد يهفو ونيته سليمه

ومن الناس من يرى ان متاركة الاخوان اذا تغيروا اصلح والاطراح لهم اذا فسدوا
اولى كاعضا الجسد اذا فسدت كان قطعها اسلم فان شح بها سرت الى نفسه
وكالثوب اذا خلق كان اطراحه بالجديد احمد من لبسه له وقد قال بعض الحكما رغبتك
فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة له وقال بزرجمهر من
تغير عليك في مودته فدعه حيث كان قبل معرفته له وقال نصر الخبزارزي

صل من دنا وتناس من بعدا لا تكرهن على الهوى احدا

قد اكثرت حوا اذ ولدت فاذا جفا ولد فخذ ولدا

وهذا مذهب من قل وفاوه وضعف اخاوه وساءت طرايقه وضاقت خلايقه
ولم يكن فيه فضل للاحتمال ولا صبر عن الادلال فقابل على الجفوة وعاقب على الهفوة
واطرح سالف الحقوق وقابل على العقوق بالعقوق فلا بالفضل اخذ ولا الى العفو
اخلد وقد علم ان نفسه قد تطغى عليه فترديه وان جسمه قد يسقم عليه فيولمه
ويوذيه وهما اخص به واحنى عليه من صديق فلم تبرّ بذاته ولم ينفصل بادواته
او يريد من غيره لنفسه ما لا يجده من نفسه هذا عين المحال ومحض الجهل على ان من
لم يحتمل بقي فردا وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا اعظم من

عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال النبي صلى الله عليه أحبب حبيبك هونا ما وقال
اوصاني ربي بسبع الاخلاص في السر والعلانيه وان اعفو عمن ظلمني واعطي
من حرمني واصل من قطعني وان يكون صمتي فكرا ونطقي ذكرا ونظري عبرا وقال لقمن
لابنه يا بني لا تترك صديقك الاول فلا يطمين اليك الثاني يا بني اتخذ الف صديق
فالالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا فالواحد كثير وقيل للمهلب ... ما
تقول في العفو والعقوبه قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بايهما شيت وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد بكفيك في ادباره متعلقا

اذا انت لم تترك اخاك وزلة اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

فاذا كان الامر على ما وصفت من حقوق الصفح فالكشف على سبب الجفوة ليعرف
الدا ويعالجه فان لم يعرف الدا لم يقف على الدوا كما قال المتنبي

فان الجرح ينفر بعد حين اذا كان البنا على فساد

واذا كان ذلك كذلك فلا يخلوا حال السبب من ان يكون لملال او لزلل فان كان لملل
وقد قيل في منثور الحكم لا تامنن ملولا وان
مودات الملول ظل الغمام وحلم النيام
تحلى بالصله فعلاجه ان يترك على ملله فسيمل الجفا كما مل الاخا وان كان لزلل فاحد
حطت اسبابه فان لها مدخلا في التاويل وشبهه يوول الى الجميل حمله على اجمل تاويله
وصرفه الى احسن جهته كالذي حكي عن خالد بن صفوان انه مر به صديقان له فعرج عليه
احدهما وطواه الاخر فقيل له في ذلك فقال نعم عرج علينا هذا بفضله وطوانا ذاك
بثقته به وانشد بعض اهل الادب لمحمد بن داود الاصفهاني

ويزعم للواشين اني فاسد عليك واني لست فيما عهدتني

وما فسدت لي يشهد الله نيته عليك ولكن خنتني فاتهمتني

غدرت بعهدي عامدا واخفتني فخفت ولو امنتني لامنتني

وان لم يكن لزلله في التاويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان
خجله فالندم توبه والخجل انابه ولا ذنب لتايب ولا لوم على منيب ولا يكلف
عذرا عما سلف فيلجا الى ذل التحريف وخجل التعنيف ولذلك قال النبي صلى الله عليه
اياكم والمعاذر فان اكثرها مفاجر وقال علي بن ابي طالب عليه السلام كفى بما يعتذر
منه تهمة وقال مسلم بن قتيبه لرجل اعتذر اليه لا يدعونك امر قد تخلصت منه الى
الدخول في الامر لعلك لا تتخلص منه وقال بعض الحكما شفيع المذنب اقراره وتوبته
اعتذاره وقال بعض البلغا من لم يقبل التوبه عظمت خطيئته ومن لم يحسن
الى التايب قبحت اسائته وقال بعض الادبا الكريم اوسع ما يكون مغفرة اذا
ضاقت بالمذنب المعذرة وقال بعض الشعراء

العذر يلحقه التحريف والكذب وليس في غير ما يرضيك لي ارب
وقد اسات فبالنعمى التي سلفت الا مننت بعفو ما له سبب

وان عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل انابته فالعذر توبة والتنصل انابة فلا يكشف
عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر عذره فيكون لئيم الظفر مسي المكافاة وقد قيل
من غلبته الحدة فلا تغتر بمودته وقال بعض الحكما شافع المذنب خضوعه الى عذره
وقال بعض الشعرا

اقبل معاذير من ياتيك معتذرا ان بر عندك فيما قال او فجرا
فقد اطاعك من ارضاك ظاهره وقد اجلك من يعصيك مستترا

وان تارك نفسه في زلله ولم يتداركه بعذره وتنصله ولا بمحاه بتوبته وانابته دعت
حاله في المتاركة فستجده لا ينفك فيها من امور ثلثه اما ان يكون قد كف سيي عمله واقلع
عن سالف زلله فالكف احدى التوبتين والاقلاع احدى العذرين فكن انت
المعتذر عنه بصفحك والمتنصل له بفضلك فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تكن
على المسي اميره والثاني ان يكون قد وقف على ما اسلفه من زلله غير تارك ولا متجاوز

فوقوف المرض احدى البرين وكفه عن الزيادة احدى الحسنيين فينبغي بالوقوف
على التجاوز ان يستوي شطريه ويعول به على اصلاح شطره الاخر وايال وارجائه فان الارجا يبعث
شطر فساده والثاني يصلح شطر صلاحه فان من سقم جسمه فلم يعالجه سرى السقم الى
صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه والثالث ان يتجاوز مع الاوقات ويزيد فيه
على مرور الايام فهذا هو الداء العضال فان امكن استدراكه وياتي استصلاحه باجتناب اله
عنه ان علا وبار عليه ان دنا وبعتابه ان اسا والا فقد اكدا العيا النجيه ومن يلتقته
الاعذار الى غايتها فلا ايم عليه والمقيم على شقاقه باغ مصروع وقد قيل من سل سيف
البغي اغمده في راسه فهذا شرطه واما المسامحة في الحقوق فلان الاستيفا موحش
والاستقصا منفر ومن ادى كل حقه من النفوس المستصعبه بشح او طمع لم يصل اليه
الا بالمنافره والمشاقه ولم يقدر عليها الا بالمخاشنة والمحاشه وقد استقر في
الطباع مقت من شاقها وناقضها وبغض من شاححها ونازعها كما استقر فيها
حب من سامحها وباشرها وكان الين الامور بالمرو واستعطاف النفوس بالمسامحة
والمباشره وتالفها بالمقاربه والمساهله وقال بعض الحكما من عاشر اخوانه بالمسامحه
دامت له مودتهم وقد قال بعض الادبا اذا اخذت عفو القلوب زكا ريعك فان
استقصيت اكديت والمسامحه نوعان في عقود وحقوق فاما العقود فهو ان
يكون فيها سهلة المناجزه قليل المحاجه مامون الغيبه بعيدا من المكر والخديعه
روى عن النبي صلى الله عليه انه قال اجملوا في طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب
له منها وقال صلى الله عليه الا ادلكم على شي يحبه الله ورسوله قالوا بلى يا رسول الله
قال التغابن للضعيف وحكى ابن ابي عون ان عمرو بن عبيد اشترى للحسن البصري
ازارا بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر سبعه دراهم فقال له ثمنه ستة
دراهم ونصف فقال اني اشتريته لرجل لا يقاسم اخاه درهما ومن الناس من

ويجوز المساهلة في العفو عنها اولى لان الاستقصا فيها مذموما حتى انه ليماكس في التافه الحقير وان جاد بالجزيل الكثير حكي عن عبد الله بن جعفر وقد ماكس في درهم وهو يجود بما يجود به فقيل له في ذلك فقال ذاك مالي اجود به وهذا عقلي بخلت به وهذا انما يستحسن من اهل المروة في دفع ما يخادعهم الادنيا ويتغابنهم به الاشحا وهكذا كانت حالة عبد الله بن جعفر فاما ما اقتضاه الاسترسال والاستنجاح فلا لانه مناف الكرم ومباين للمروة فاما المسامحه في الاحوال فهو اطراح المنازعه في الرتب وترك المنافسه في التقدم فان مشاحة النفوس فيها اعظم والعناد عليها اكبر فان سامح فيها ولم ينازع كان اخذ بافضل الاستعمال الاحسن الاداب ووقع في النفوس من افضاله بر غايب الاموال ثم هو ازيد في رتبته وابلغ في تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لاخشن الاخلاق واستعماله لاهجن الاداب انكا في النفوس من حد السيف وطعن السنان ثم هو اخفض للرتبه وامنع من التقدم ودخل ان فتى من بني هاشم تخطا رقاب الناس عند ابن ابي داود فقال له يا بني ان الادب ميراث الاشراف ولست ارى عندك من سلفك اثرا واما المسامحه في الاموال فتتنوع ثلثة انواع مسامحة اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة انظار لعسر وهي مع اختلاف اسبابها تفضل ماثور وتالف مشكور واذا كان الكريم قد يجود بما تحوي يده وينفذ فيه تصرفه كان اولى ان يجود بما خرج عن يده وطاب نفسا بفراقه وقد تفضل المسامحه في الحقوق الى من لا يقبل البر ويابا الصله فيكون احسن موقعا واذكا محلا وربما كانت المسامحة فيها الم من رد السايل ومنع المجتدي لان السايل كالمجتدي على سوال الكفاف يتربص ان رددته على سوال عزك وليس كل من صار اسير حقك ورهين دينك يجد بدا من مسامحتك ومياسرتك ثم لك مع ذلك حسن الثنا وجزيل الاجر وقال محمود الوراق

المرء بعد الموت احدوثة يفنى وتبقى منه اثاره
فاحسن الحالات حال امرئ تطيب بعد الموت اخباره

فهذه حال المياسره واما الافضال فنوعان افضال اصطناع وافضال استكفاف ودفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان احدهما ما اسداه جودا في شكور والثاني ما تالف به نبوة نفور وكلاهما من شروط المروة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن قلت صنايعه في الشاكرين واعرض عن تالف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا محقورا ولا مروه لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم وقال عمر بن عبد العزيز ما طاوعني الناس على شي اردته من الحق حتى بسطت لهم طرفا من الدنيا وقال بعض الحكما اقل ما يجب للمنعم بحق نعمته ان لا يتوصل بها الى معصيته وانشد لبعض الاعراب

من جمع المال ولم يجد به وجمع المال العام جذبه هون على الناس هوان الكلب

وقال اسحق ابن ابرهيم الموصلي

يبقى الثنا وتذهب الاموال ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الرجال وشكرهم الا الجواد بماله المفضال
لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يصدق ما يقول فعال

فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم عمادها وفقد من شروط الرياسه سنادها فليواس بنفسه مواساة المساعف وليسعد بها اسعاد متالف كما قال المتنبي

فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

ان كان لا يرا عا فان اجتهد بها الا ابتغا للمفضلين قليله بين المكثرين فان الناس لا يساوون بين المعطي والمانع ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدى الذي ان ردده صوتا لم يجد نفعا وكما قال الشاعر

يجود بالوعد ولاكنه يدهن من قارورة فارغه

فكان من ضن عليهم من المال بما كان فارغا وعليها عدا الافضال به كان هينا وقد قدمنا من القول في شروط الافضال ما اقنع فاما الافضال لاستكفاف فلان ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيله يغريه الجهل باظهار عناده ويبعثه اللوم على البذا بسفهه وان لم يتوق استكفاف السفها واعرض عن استدفاع اهل البذا صار عرضه هدفا للمثالب وحاله عرضة للنوايب واذا استكف السفيه واستدفع البذي صان عرضه وحمى نعمته وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال ما وقي به المرء عرضه فهو صدقه وقال ابو بشر رضي الله عنهما ذبوا باموالكم عن احسابكم وامتدح رجل الزهري فاعطاه قميصه فقال له رجل اتعطي على كلام الشيطان فقال من ابتغا الخير اتقا الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه من ادبر الوالدين فليعط الشعرا اه وهذا صحيح لان الشعر سايد بيت به ما ضمن من مدح او هجا ولاجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فانه يمدحك بثمن ويهجوك مجانا ولاستكفاف السفها بالافضال شرطان احدهما ان يخفيه حتى لا تنتشر فيه مطامع السفها فيتوصلون الى اجتدابه بسبه والى طلبه بثلبه والثاني ان يتطلب له في المجامله وجها ويجعله في الافضال عليه سببا لان لا يرى انه على السفه قد اعطي ولاجل البذا قد حبي فيغريه ذلك بزيادة السفه واستدامة البذاه واعلم انك ما جبنت ملحوظ المحاسن محفوظ المساوي ثم بعد ذلك حديث منتشر لا يرافقك صديق ولا يحامي عنك شفيق فكن احسن حديث ينشر يكن سعيك في الناس مشكورا واجرك عند الله مذخورا فقد روى زياد بن الجراح عن عمرو بن ميمون الاودي قال قال رسول الله صلى الله عليه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك فهذا ما اقتضاه هذا الفصل من شروط المروه وان كان كل ذنابنا

هذا من شروطها ما اتصل
بحقوقها

الفصل الثامن في اداب منثوره

اعلم ان الاداب مع اختلافها بتنقل الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان ما بلغه منها الوسع من اداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو امكن ذلك لكان الاول قد اغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتاخر تكلفها وانما حظ الاخير ان يعاني حفظ الشارد وجمع المتفرق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته فيثبت ما كان موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره في استنباط زيادة واستخراج فايدة فان اسعف بشي فاز بدركه وحظي بفضيلته ثم يعبر عن ذلك كله بما كان مالوفا من كلام الوقت وعرف اهله فان لاهل كل وقت في الكلام عادة تولف وعبارة تعرف ليكون اوقع في النفوس واسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على اقرب ومفصل مانه ويبنيه على اصوله وفروعه حسب ما يقتضيه الحسن فان لكل نوع من العلوم طريقة هي اوضح مسلكها واسهل ماخذا فهذه خمس شروط هي حظ الاخير فيما يعانيه وكذلك القول في كل تصنيف مستحدث فلولا ذلك لكان تعاطي ما تقدم به الاول عنا ضايعا وتكلفا مستهجنا وارجو ان يمدنا الله بالتوفيق لتاديه هذه الشروط ويتفضل بالمعونه بتوفيه هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكلف ونبرا من عيب التقصير وان كان اليسير معوزا والخاطي معذورا وقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان اسا فقد استقذف وقد مضت ابواب تضمنت فصولا رايت اتباعها بما لم احب الاخلال به فمن ذلك حال الانسان في ماكله ومشربه فان الداعي الى ذلك شيان حاجه ماسه وشهوه باعثه فاما الحاجه الماسه فتدعوا الى ما سد الجوعه وسكن الظما وهذا مندوب اليه عقلا

او ابلغ

لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال
في الصوم لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع
منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع منه نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا
نصيب من زهد لان ما حرمها من فعل الطاعات واتيان القرب بالعجز والضعف اكثر ثوابا
واعظم اجرا وليس في ترك المباح ثواب يقابل فعل الطاعات واتيان القرب ومن احسن
نفسه حظا موفورا وحرمها اجرا مذخورا كان زهده في اكثر اقوى من رغبته ولم يبق عليه
من عمله الا الشهرة بريائه وسمعته. واما المشتهى فتنوع نوعين احدهما
شهوة الاكتفاء والزيادة والثاني شهوة من تناول الالوان الملذة فاما النوع الاول وهو
شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه في العقل
والشرع كما كان قدر الكفاية مندوبا اليه بالعقل والشرع لان تناول ما زاد على الكفاية
نهم معر وشره مضر وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والبطنة فانها مفسدة
للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة. وقال علي بن ابي طالب عليه السلام اذا كنت
بطنا فعد نفسك زمنا. وقال بعض البلغاء اقلل طعاما تحمد مناما. وقال بعض الحكماء لا
يسكن الا بيسير العلم معدة مليت لطعام. وقال بعض الادباء الرغب لوم والنهب
شوم. وقال بعض الحكماء اكبر الدواء تقدير الغذاء. وقال بعض الشعراء

فكم من اكلة منعت اخاها بلذة ساعة اكلات دهر
وكم من طالب يسعى لامر وفيه هلاكه لو كان يدري

روى ابو يزيد المدني عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله
خلق ... ملئ شرا من بطن فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشراب
وثلثا للريح. واما النوع الثاني وهو شهوة الاشيا الملذة ومنازعة النفس الى
طلب الانواع المشتهيه فمذاهب الناس في تمكين النفس منها مختلفة فمنهم من يرى ان

فيهون عليه
صرف النفس عنها اولى وقهرها عن اتباع شهواتها احرى ليذل له ... ويهون عليه
عنادها لان تمكينها وما تهوى يطغيها ويبطرها واشره يرديها لان شهواتها غير متناهية
فاذا اعطاها المراد من شهوة وتبعها تعدت الى شهوات قد ابيحت بها فيصير
الانسان اسير شهوات لا تنقضي وعبد هوى لا ينتهي ومن كان بهذه الحال لم يرج
له صلاح ولم يوجد فيه فضل. وانشدت لابي الفتح البستي رحمه الله

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته اتطلب الربح مما فيه خسران
اقبل على النفس واستكمل فضائلها فانت بالنفس لا بالجسم انسان

والحذر من هذه الحال حكي ان ابا حازم كان يمر على الفاكهة فيشتهيها فيقول موعدك
الجنة. وقال اخرون تمكين النفس من لذاتها اولى واعطاها ما اشتهته من المباحات
احرى لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها ونشاطها بادراك لذاتها فينحسر عنها ذلة
المقهور وبلادة المحصور فلا تقتصر في درك ولا تقصر في نهضة ولا تكل عن استعانة
وقال اخرون بل توسط الامرين اولى لان في اعطائها كل شهواتها تسلط النفس
السليطة معان وفي منعها عن بعض الكف لها عن السلاطة وفي شهواتها بلادة حسم عن
النفس البليدة عاجز وفي تمكينها عن البعض الفلادة. وهذا اشبه المذاهب
بالسداد لان التوسط في الامور احمد. وقد مضى الكلام في المأكول والمشروب
فينبغي ان يتبع بذكر الملبوس اعلم ان الحاجة وان دعت الى المأكول والمشروب ادعى
فهي الى الملبوس ماسه وبها اليها فاقه لما في اللباس من حفظ الجسد ودفع الاذى
وستر العورة وحصول الزينة. قال الله تعالى يا بني ادم قد انزلنا عليكم لباسا يواري
سواتكم اي يستر عوراتكم وسميت العورة سوءة لانه يسوء صاحبها انكشافها
من جسده. وقوله تعالى وريشا فيه اربع تاويلات احدها انه المال وهو قول
مجاهد والثاني انه اللباس والعيش والنعيم وهو قول ابن عباس والثالث انه المعاش

وهو قول معبد الجهني والرابع انه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس
التقوى فيه ست تأويلات احدها لباس التقوى هو الايمان وهو قول قتادة والسدي
والثاني انه العمل الصالح وهو قول ابن عباس والثالث انه السمت الحسن وهو قول عثمان
بن عفان والرابع خشية الله تعالى وهو قول عروة بن الزبير والخامس هو الحيا
وهو قول معبد الجهني والسادس هو ستر العورة وهو قول عبد الرحمن ابن زيد
وقوله ذلك خير فيه تأويلان احدها ان ذلك راجع الى جميع ما تقدم من قوله
قد انزلنا عليكم لباسا يواري سواتكم وريشا ولباس التقوى ثم قال ذلك الذي ذكرت
خير كله والثاني ان ذلك راجع الى لباس التقوى ومعنى الكلام وان لباس
التقوى خير من الرياش واللباس وهذا قول قتادة والسدي فلما وصف الله تعالى
حال اللباس واخرجه مخرج الامتنان علم انه معونة منه لشدة الحاجة اليه واذا
كان كذلك ففي اللباس ثلثة اشيا احدها دفع الاذى به والثاني ستر العورة
والثالث الجمال والزينة فاما دفع الاذى فواجب بالعقل لان العقل يوجب دفع المضار
واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال
اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم باسكم فاخبر بحالها ولم
يامر بها اكتفا بما يقتضيه العقل واستغنا بما يبعث عليه الطبع ويعني
بالاظلال الشجر وبالاكنان كن وهو موضع يستكن فيه ويعني بقوله سرابيل
تقيكم الحر يعني ثياب القطن والكتان والصوف وسرابيل تقيكم باسكم
الدروع التي تقي الباس وهي الحرب فان قيل كيف قال تقيكم الحر ولم يذكر البرد
وقال وجعل لكم من الجبال اكنانا ولم يذكر السهل فعن ذلك جوابان احدهما ان
القوم كانوا اصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال وكانوا اصحاب حر دون
برد فذكر لهم نعمه الله عليهم فيما هو مختص بهم وهذا قول عطا والجواب الثاني

انه اكتفى بذكر احدهما عن ذكر الاخر اذا كان معلوما ان السرابيل التي تقي
الحر تقي ايضا البرد ومن اتخذ من الجبال اكنانا اتخذ من السهل وهو قول المبرد ولما
ستر العورة فقد اختلف الناس فيه هل وجب بالعقل او بالشرع
فقالت طايفة وجب سترها بالعقل لما في ظهورها من القبح وما كان قبيحا
فالعقل مانع منه الا ترى ان ادم وحوا لما اكلا من الشجرة التي نهيا عنها بدت
لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة تغطية لهما لما في
سترها اباه مستقبحا من سواتهما لانهما لم يكونا قد كلفا ستر ما لم يبد لهما
ولا كلفاه بعد ان بدت لهما وقبل سترهما وقالت طايفة اخرى لم يستر العورة
واجب بالشرع لانه بعض الجسد الذي لا يوجب العقل ستر باقيه وانما
اختصت العورة بحكم شرعي فوجب ان يكون ما يلزم من سترها حكما شرعيا
وقد كانت قريش واكثر العرب مع ما كانوا عليه من وفور العقل وصحة الالباب يطوفون
بالبيت عراة ويحرمون على نفوسهم اللحم والودك ويرون ذلك ابلغ في القربة وانما
القرب ما استحسنت في العقل حتى انزل الله تعالى يا بني ادم خذوا زينتكم عند كل
مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين يعني بقوله خذوا زينتكم
الثياب التي تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما حرمتم على انفسكم من اللحم والودك
وفي قوله تعالى ولا تسرفوا تأويلان احدهما لا تسرفوا في التحريم وهذا قول
السدي والثاني لا تاكلوا حراما فانه اسراف وهذا قول ابي زيد فاوجب بهذه
الايه ستر العورة بعد ان لم يكن العقل موجبا له فدل ذلك على ان سترها
وجب بالشرع دون العقل واما التجمل والزينة فهو مستحسن بالعرف
والعادة من غير ان يوجبه عقل او شرع وفي هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير
والتوسط المطلوب فيه معتبر بالعرف من وجهين احدهما عرف البلاد

فان لاهل المشرق زيا مالوفا ولاهل المغرب زيا مالوفا وكذي لما بينهما من البلاد
المختلفه عادات في اللباس مختلفه والثاني عرف الاجناس فان للاجناد زيا
مالوفا وللتجار زيا مالوفا وكذي لمن سواهما من الاجناس المختلفه عادات في اللباس
مختلفه وانما اختلفت عادات الناس في ملابسهم من هذين الوجهين ليكون
اختلافهم فيها سمة يتميزون بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل الانسان في لباسه
عن عرف بلده وجنسه كان ذلك منه خرقا وحمقا ولذلك قيل العري الفادح خير
من الزي الفاضح واما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين احدهما بالمكنة
من اليسار والاعسار فان للموسر في الزي قدرا وللمعسر دونه والثاني
بالمنزلة والحال فان لذي المنزلة الرفيعة في الزي قدرا وللمنخفض عنه
دونه ليتفاضلوا فيه على حسب تفاضل احوالهم فيصيروا به متميزين فان
عدل الموسر الي زي المعسر كان شحا وبخلا وان عدل الرفيع الي الدني كان زي
مهانة وذلا وان عدل المعسر الي زي الموسر كان تبذيرا وسرفا وان
عدل الدني الي زي الرفيع كان جهلا وتطفلا ولزوم العرف المعهود واعتبار
الحد المقصود ادل على العقل وامنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه اياكم ولبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة وقال بعض
الحكما البس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظما ولا يعيبه عليك العلما وقال
بعض الشعرا

ان العيون رمتك اذ فاجاتها وعليك من شهر الثياب لباس
اما الطعام فكل لنفسك ما تشا واجعل لباسك ما اشتهاه الناس

واعلم ان المروة ان يكون الانسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير اكثار
ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة الي
العناية بها دناة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعري من تمييز ان ذلك

هو المروة الكاملة والسترة الفاضلة لما يري من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه من
جملة العوام المسترذلين وخفي عنه انه اذا تعدا طوره وتجاوز قدره كان اقبح لذكره
وابعث على ذمه كما قال المتنبي

لا يعجبن مضيما حسن بزته وهل يروق دفينا جودة الكفن

حكي المبرد ان رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس ارث ثيابه واذا ضاق لبس احسنها
فقيل له في ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود واذا ضقت فبالهيئة وقد اتي
ابن الرومي بما بلغ من هذا المعني في شعره فقال

وما الحلي الا زينة لنقيصة يتمم من حسن اذا الحسن قصرا
فاما اذا كان الجمال موفرا كحسنك لم يحتج الي ان يزورا

ولذلك قالت الحكما ليست العزة في حسن البزة وقال بعض الشعرا

وتري سفيه القوم يدنس عرضه سفها ويمسح نعله وشراكها

واذا اشتد كلفه بمراعاة نفسه وصار الملبوس عنده انفس وهو على مراعاته
وقيل في منثور الحكم البس من الثياب ما يخدمك ولا تلبس ما تخدمه وقال
خالد بن صفوان لاياس بن معويه اراك لا تبالي ما لبست قال البس ثوبا اقي به نفسي احب
الي من ان البس ثوبا اقيه بنفسي وكما انه لا يكون شديد الكلف بها فكذي لا يكون
شديد الاطراح لها فقد حكي ابن عابسه ان رجلا جا النبي صلي الله عليه فنظر اليه
رث الهيئة فقال الك مال قال من كل المال قد اتاني الله قال ان الله يحب اذا انعم على امري
نعمة ان ينظر الي اثرها عليه وقد قيل المروة الظاهرة في الثياب الطاهرة
وهكذا القول في غلمانه وحشمه ان اشتد كلفهم صار عليهم قيما ولهم خادما وان
اطرحهم قل رشادهم وصاروا سببا لمقته وطريقا الي ذمه لكن يكفهم عن سيئ
الاخلاق وياخذهم باحسن الاداب كما قال فيهم بعض الشعرا

سهل الفنا اذا امررت ببابه طلق اليدين مودب الخدام

وليكن في تفقد احوالهم على ما يحفظ عمله ويصون بذله فقد روي عن النبي صلى الله عليه
انه قال اذهبوا بذهب الله عنكم البوس والبسوا تظهر نعمة الله عليكم واحسنوا الى ماليكم فانه
اكبت لعدوكم وليتوسط فيهم حالتي اللين والخشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن
مقتوه وكان على خطر منهم ويحكى ان الموبذ سمع ضجة الخدم في مجلس انوشروان فقال له اما
تحتشم [illegible] الغلمان فقال له انما يحابنا اعداونا وقال ابو تمام الطائي

يحتشم العدو عنوة ثم يحتشمه لصديقه عن صدقه ونفاقه
فلينظرن المرء من غلمانه ثم خلايقه على اخلاقه

ان للنفس حالتين حالة استراحة ان عدمتها اياه كلت وحالة تصرف ان ادمتها
اختلت فالاولى بالانسان تقدير حالتيه حالة نومه ودعته وحالة تصرفه ويقظته
فان لهما قدرا محدودا وزمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة حدهما وتغيير زمانهما وقد روي عن
النبي صلى الله عليه انه قال نومة الصبحة معجزة منفخة مكسلة مورمة مفشلة منساة
للحاجة وقال عبد الله بن عباس النوم ثلثة نومة خرق وهي الصبحة ونومة خلق
وهي القايلة ونومة حمق وهي العشاء وقد روى محمد بن يزداد عن ميمون بن
مهران عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه نوم الضحى خرق والقيلولة خلق والعشا
حمق وقيل في منثور الحكم من لزم الرقاد عدم المراد فاذا اعطى النفس حقها من
النوم والدعة واستوفى حقه منها بالتصرف واليقظة خلص بالاستراحة من عرقها
وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها وحكي ان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز
دخل على ابيه فوجده نايما فقال له يا ابه تنام في وقت والناس بالباب فقال يا بني نفسي
مطيتي واكره ان اتعبها فتقوم بي وينبغي ان يقسم مال تصرفه ويقظته على المهم
من حاجاته فان حاجة الانسان لازمة والزمان يقصر عن استيعاب المهم فكيف
به ان تجاوز الى ما ليس بمهم هل يكون الا كتاركة بعضها بالعرا وملبسه ببعض

اذى بخباطاته ثم ان عليه ان يتصفح في ليله ما صدر من افعال نهاره فان الليل اخطر
للخاطر واجمع للفكر فان كان محمودا امضاه واتبعه بما شاكله وضاهاه وان كان
مذموما استدركه ان امكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانه اذا فعل ذلك وجد
افعاله لا تخلو من احدى احوال اما ان يكون قد اصاب فيها الغرض المقصود او يكون
قد اخطا فيها فوضعها في غير مواضعها او يكون قد قصر فيها فنقصت عن حدودها
او يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت عن حدودها وهذا التصفح انما هو استظهار
بعد تقديم الفكر قبل الفعل ليعلم به مواقع الاصابة فيلتمس بها استدراك
الخطا وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره وكما يتصفح احوال نفسه فكذلك
يجب ان يتصفح احوال غيره فربما كان استدراك الصواب منها اسهل لسلامة
النفس من شبهة الهوى وخلو الخاطر من حسن الظن فان ظفر بصواب وجده
من غيره او اعجبه جميل من فعله زين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح
احوال غيره فاقتدى باحسنها وانتهى عن سيئها وقد روى زيد بن خالد
الجهني عن النبي صلى الله عليه انه قال السعيد من وعظ بغيره وقال الشاعر

ان السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر

وانشد في بعض اهل العلم لطاهر بن الحسين

اذا اعجبتك خصال امرئ فكنه تكن كالذي يعجبك
فليس على المجد والمكرمات اذا جيتها حاجب يحجبك

فاما ما يرومه من اعماله ويوثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب ان يقدم الفكر فيه
قبل دخوله فان كان الرجا فيه اغلب من الياس منه وحمدت العاقبة سلك من
اسهل مطالبه والطف جهاته وتقدر شرفه يكون الاقدام وان كان الاياس اغلب عليه
من الرجا مع شدة التغرير ودناة الامر فليحذر ان يكون له متعرضا فقد روي عن

النبي صلى الله عليه انه قال اذا هممت بامر فتدبر عاقبته فان كان رشيدا فامضه
وان كان غيا فانته عنه وقالت الحكما طلب ما لا يدرك عجز وقال بعض
الشعرا ما احسن ان يعتذر المرء من نفسه وليس له من سائر الناس عاذر
فاياك والامر الذي ان توسعت موارده ضاقت عليك المصادر

وليعلم ان لكل حين من ايام عمره خلقا وفي كل وقت من اوقات دهره عملا فان
تخلق في كبره باخلاق الصغر وتعاطى افعال الفكاهة والبطر استصغر من
هو اصغر منه وحقره من هو اقل واحقر منه فكان كالمثل المضروب بقول الشاعر

وكل باز يمسه هرم تخرا على راسه العصافير

وكن ايها العاقل مقبلا على شانك راضيا على زمانك سلما لاهل دهرك جاريا على
عادة عصرك منقادا لمن قدمه الناس عليك متحننا على من قدمك الناس
عليه ولا تباينهم بالعزلة ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فلا عيش لممقوت
ولا راحة لحسود المعادي وانشد لبعض اهل الادب

اذا اجمع الناس في واحد وخالفهم في الرضا واحد
فقد دل اجماعهم دونه على عقله انه فاسد

اجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها باخفا عيبك واظهار عذرك
فيجرء عدوك واخطايك في زجر نفسه بانكارك ومجاهرتك من نفسك التي هي
اخص بك لاعوانك لها باعذارها ومسامحتك لها فيكسبك سوا بجهل شنع عدوه ونقص
نفسه وقد قال بعض الحكما اصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعا لك
وقال بعض البلغا من اصلح نفسه ارغم انف اعاديه ومن اعمل جده بلغ كنه
امانيه وقال بعض الادبا من عرف عيبه فلا يلم من عابه وانشد بعض

ابو ثابت النحوي لبعض الشعراء

وقصر وفيه عيناه عن عيب نفسه ولو بان عيب من اخيه به سرا
ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه لامسك عن عيب الصديق وقصرا

فهذب ايها العاقل نفسك بانكار عيوبك وانفعها بتقويمك لها فان من لم يكن له
من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ اعاننا الله واياك على القول والعمل
وعلى النصح والقبول وهو حسبنا ونعم الوكيل

تم الكتاب بحمد الله وحسن توفيقه

والحمد لله حق حمده وصلى الله على محمد خير خلقه وعلى اصحابه من بعده

وفرغ من نقله الفقير الى رحمة الله تعالى الياس عبد الله غفر الله له
ولامة محمد صلى الله عليه اجمعين رحم الله من قراه وقال امين



كتبت وقد ايقنت لا شك انني
كتبت ليدي يوما ويبقى كتابها

والحمد لله وحده

الحمد لله على نعمائه

الفقيه رضي الله عنه سمعت جماعة من العلما رفعوا الحديث الى خالد ابن معدان
قلت لمعاذ ابن جبل حدثني بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه
وسلم حفظته وذكرته كل يوم من دقة ما حدثك به فبكا حتى قلت انه لا يسكت
ثم سكت وقال بابي انت وامي حدثني رسول الله وانا رديفه فبينما نحن نسير
اذ رفع بصره الى السما فقال الحمد لله الذي يقضي في خلقه ما احب ثم قال يا معاذ
قلت لبيك يا رسول الله امام الخير ونبي الرحمه فقال احدثك حديثا ما
حدث به نبي امته ان حفظته نفعك وان سمعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند
الله ثم قال ان الله تعالى خلق سبع املاك قبل ان يخلق السموات لكل سما ملك وجعل
كل باب منها بوابا فتكتب الحفظة عمل العبد من حين يصبح الى حين يمسي ثم ترتفع
وله نور كنور الشمس حتى اذا بلغ سما الدنيا فيزكيه ويكثره فيقول الملك قف
اضرب بهذا العمل وجه صاحبه وقل له لا غفر الله لك انك صاحب الغيبه تغتاب
المسلمين لا ادع عمله تجاوزني الى غيري قال ويصعد الحفظة بعمل العبد وله
نور وضو حتى ينتهي به الى السما الثانيه فيقول الملك قف اضرب بهذا
العمل وجه صاحبه وقل له لا غفر الله لك انه اراد بهذا العمل عرض
الدنيا انا صاحب عمل الدنيا لا ادع عمله تجاوز الى غيري قال ويصعدوا
بعمل العبد مبتهج بصدقة وصلاة كثيرة فيعجب الحفظة فيجاوز الى
السما الثالثة فيقول الملك قف اضرب بهذا العمل وجه صاحبه وقل له
لا غفر الله لك انا ملك صاحب الكبر انه من عمله وتكبر على الناس في
مجالسهم امرني ربي ان لا ادع عمله يتجاوز الى غيري قال ويصعد
الحفظة بعمل العبد يزهر كما تزهر النجوم بتسبيح وصوم فيمر بهم
الى السما الرابع فيقول الملك قف اضرب بهذا العمل وجه صاحبه
وقل له لا غفر الله لك انا الملك صاحب العجب بنفسه انه من عمله وادخل
به العجب امرني ربي ان لا ادع عمله يتجاوز الى غيري فيضرب
به

به وجه صاحبه فيلعنه ثلثة ايام قال ويصعد الحفظة بعمل العبد
مع الملائكة كالعروس المزفوفة الى اهلها فيمر به الى [illegible]
بالجهاد في الصلوة ما بين الصلاتين فيقول الملك قف اضرب بهذا
العمل وجه صاحبه واحمله على عاتقه انا ملك صاحب الحسد انه
يحسد من يتعلم ويعمل لله حسدهم ووقع فيهم فيحمله على عاتقه ويلعنه
ما دام هو في الحيوة قال ويصعد الحفظة بعمل العبد بوضو وقيام
الليل وصلوة كثيرة فيمر به الى ملك السما السادسة فيقول الملك
بهذا العمل وجه صاحبه انا ملك صاحب الرحمة ان صاحبكم
واذا اصاب عبدا من عباد الله ذنبا او ضر في الدنيا شمت به
ان لا تجاوزني عمله الى غيري قال ويصعد الحفظة بعمل العبد
وله ضو كضو البرق فيمر به الى ملك السما السابع فيقول
اضرب بهذا العمل وجه صاحبه واقفل [illegible] انا ملك صاحب
احجب عمله عن الله تعالى انه اراد به الرفعة في المجالس وصوتا في المداين
امرني ربي ان لا تجاوز عمله الى غيري قال ويصعد الحفظة بعمل العبد مبتهج
[illegible] وصمت وذكر كثير وتسبيح [illegible] السموات حتى ينتهي به
الى حملة العرش فيشهدون له فيقول الله عز وجل انتم الحفظة وانا الرقيب على ما
في نفسه انه لم يرد بهذا العمل وجهي [illegible] فيقول الملايكة كلهم عليه
لعنتك ولعنتنا وتقول اهل السموات عليه لعنة الله ولعنة الملايكة السبع
ولعنتنا ثم بكا معاذ وقال اما نعمل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اقتدوا
بنبيك يا معاذ عليك باليقين وان كان في عملك تقصير فاقطع لسانك
عن اخوانك ولتكن ذنوبك عليك ولا تحملها على اخوانك ولا تزكي نفسك
بتذميم اخوانك ولا ترفع نفسك بوضع اخوانك ولا تراي بعملك
الناس والسلام على من اتبع الهدى

١٦٢

... [illegible] الحضرمي ... [illegible] ومن ...
... [illegible] وسمّاه ... [illegible] وجميع اولاد المسلمين

... [illegible] ... الحضرمي ... [illegible]
... [illegible] سادس ... [illegible] المبارك ...

... [illegible] رحمه الله تعالى ... سادس ... [illegible]

رحمة الله عليه

... وزن مثقال ذرة سيبرا
... او يفعل الجميل ... جزاه
... اذا زلزلت وجل ثناه

... اثما وزن مثقال ذرة سيرا
... ان من ... [illegible]
... او يفعل الجميل ... [illegible]
... اذا زلزلت ... [illegible]

١٦٢ برگ



